

A  
282  
N498

جان نوڤيل

# دَوْلَةُ الْقَاتِيكَانِ

رَجَّاهَا أَنْظَمَتْهَا رَسَّالَتَهَا

تَقْلَهُ عَنْ الْفَرَنْسِيَّةِ

مَخَيَّلُ الرَّجِّي

دارالمكشوف



## المقدمة

ليس هذا الكتاب مقالة في اللاهوت ، ولا تاريخاً  
للكنيسة ، ولا وصفاً لحاضرة القاتيكان ، ولا سيرة احد  
الباباوات . انما هو رواية شاهد رأى كيف تدار  
عجلة الادارة العليا في الكنيسة الكاثوليكية ، فخطرت  
له عدة سؤالات : كيف يحكم البابا والكرادلة والمجامع  
والدواوين نصف المليار من الكاثوليكين ؟ - كيف  
يزاول رأس الكنيسة ، من قصره في القاتيكان ، سلطته  
المطلقة على المؤمنين المشتتين في جميع اقطار العالم ؟  
- ما هو البابا ، ما هو الاسقف ، ما هي المجامع  
والدواوين ؟ - كيف تسير اعمال وزارة الدولة  
البابوية ؟ - ما هي طريقة امراء الكنيسة في معيشتهم ؟  
كيف يقضي البابا وقته سواء في الحفلات الطقسية الفخمة  
او في حياته الخاصة ؟ - كيف ينتخب البابا وما  
هي الحفلات الشائقة التي تقام في تنويجه وفي مأتمه ؟  
اين صار إصلاح الرهبانيات ؟ - هل من معضلة علمانية  
كاثوليكية ؟ - وقضايا اخرى كثيرة .

الطبعة الاولى ، بيروت - لبنان ، آذار ١٩٦٠  
جميع الحقوق محفوظة لدار المكشوف



ليس هدف الشاهد الرد على هذه الاسئلة باجوبة نظرية . فقد شاهد كيف يعيش سكان الفاتيكان ، الكبار منهم والصغار ، فحاول تحديد دور كل منهم ، واستخلاص المبادئ التي عليها تركز الكنيسة اعمالها . ومن وراء ما نراه في الكنيسة من نواحٍ منظورة ، ألم المؤلف بكلمة عن العقيدة الكاثوليكية في ما يلامس « نفس الكنيسة » ، وأبان كيف ان الجميع يمكنهم ان يكونوا من نفس الكنيسة ، اذا ما جدوا في طلب الحقيقة بخلوص النية وعمق الدرس ، سواء كانوا كاثوليكين او ارثوذكسين ، بروتستانتين او يهوداً ، او « بدون مذهب » .

وغني عن البيان ، من بعدما تقدم ، ان موضوع الكتاب ليس الدفاع عن الكنيسة ، ولا بالبحري الجدل في شؤونها ، بل محاولة اخبارية بحتة .

★

وُلد المؤلف في بلدة نوفسل Neuvicelle ، من مقاطعة سافودا العليا في فرنسا ؛ ومن بلدته استعار اسمه في هذا الكتاب . وقضى صباه بين بحيرة ليان Léman والبحر القزويني ونهر التيب Tibre . وكان تلميذاً في سويسرا ، وطالباً في مقاطعتي البروفنس والازراس في فرنسا ؛ وحاز شهادة التدريس العليا Agrégation من جامعة

باريس ؛ ودرّس في مقاطعة البوس Beauce في فرنسا ، قبل ان اصبح المراسل الروماني لجريدة « القتال » Combat الباريسية .

ومنذ بضع سنوات ، عيّن المراسل الخاص الدائم في رومية لجريدة مسائية كبيرة في باريس ، ولحطة الاذاعة والتلفزة الفرنسية . ولما كان دأبه تدوين الحوادث والاخبار المختلفة يوماً فيوماً ، استطرد الى بحث مجرى الاحوال من وقت الى آخر ، والى تحقيقات واخباريات ، تعمقاً في درس معضلة او قضية ، او في رسم لوحة عن موضوع او حالة ما .

وهكذا تستى له ان يجاوز حدود حاضرة الفاتيكان . وكان ، كل مرة ، يزداد شعوراً بهذه الدنيا الفاتيكانية ، المثيرة الاحساس من وجوه جمّة ، والكثيرة المقاتن في الغالب ، دنيا يكتشفها روادها الذين الفوا مغانيها . فراقه ان يؤدي شهادة بحياة الدواوين الرومانية وسير اعمالها .



القسم الاول

قداسة البابا



## الفصل الاول

### اصغر دولة في العالم

#### ١ - الدولة القاتيكانية .

حديث العالم عن الستار الحديدي ، وحديثنا في هذا الكتاب عن الباب النحاسي الاصفر . فهذا الباب يجرسه جنود سويسريون ، سلاحهم الرمح ( او : الحربة ) Hallebarde ، وبه المدخل الى اصغر دولة في العالم ، يملك عليها شيخ يتشع بثوب ابيض ؛ دولة ليست اكبر من ولاية او محافظة صغيرة ، تستظل بكنيسة كبيرة ، ولا تشغل من المساحة اوسع مما يشغله حي في عاصمة كبيرة كباريس مثلاً .

هذه الدولة تقوم ابنتها على مقبرة قديمة . فما ان تحفر في الارض قليلاً حتى تصطدم بدياميس عميقة واروقة طويلة ، كان الوثنيون ، وبعدهم المسيحيون الاولون ، يدفنون فيها موتاهم ؛ والى جانب المقبرة ، في طبقات الارض السفلى ، ملعب روماني ، كان نيرون يدفع فيه الى العذاب والموت شهداء الدين المسيحي الجديد ، وفي مقدمتهم اول رؤساء هذه الدولة : القديس مار بطرس ، فمات منكساً على صليب منذ تسعة عشر قرناً .



لحاضرة الفاتيكان مخافر حدود ثلاثة ، يُعبر بها الى داخلها :  
الباب النحاسي الاصفر ، وقوس الاجراس ، وباب القديسة  
حنة . وليس على الحدود موظفو جمارك . إلا انه يقوم مقامهم  
حاجز مزدوج : الجنود السويسريون والدرك البابوي ؛ فاولئك  
يحيطون بالحربة الاساقفة ومن يبدو لهم انه من سلك السفراء ،  
وهؤلاء يسيرون بالداخل الى مكتب جوازات السفر ،  
فيودع فيه بطاقة هويته ويصرح باسم من يقصد مواجته .  
وبعد تحقيق هاتفي وجيز ، تدفع اليه وثيقة خاصة ويذهب ،  
مشياً على قدميه في الغالب ، في السبيل الذي يُنهج له ، ولا  
يغيب عن انظار الدركيين القائمين في الممرات والمنعطفات ،  
فيظل قيد مراقبتهم طوال مسافة سيره .

تخطيط مدينة رومية بحاضرة الفاتيكان من جهاتها الاربع .  
ولا يقتضي اكثر من ثلاثة ارباع الساعة لمن شاء ان يدور  
حولها من الخارج . وانما لنزهة ممتعة حذاء الاسوار القديمة .  
ومن روادها ازواج من شبيبة لاهية عابثة ، يحيقون  
بدولة البابا حلقات من فتيان وفتيات يتبادلون احاديث  
الهوى العذري .

على ان من الصعب رسم حدود هذه الدولة بكل ضبط ،  
لان من ممتلكاتها ما هو خارج اراضيها في مدينة رومية  
وضواحيها ، وللبابا عليه سلطة تامة مطلقة ، وتربو مساحاته  
على مساحة حاضرة الفاتيكان نفسها . على ان التبعة الفاتيكانية

يفقدها اصحابها اذا لم يقطنوا ضمن حدود الدولة ، باستثناء  
الكرادلة والسفراء البابويين ، فانهم يحفظونها ولو سكنوا  
خارج الحاضرة .

## ٢ - البلاط الرسولي وكنيسة مار بطرس .

ان البلاط الرسولي ، وهو الفاتيكان بالذات ، مؤلف  
بما يقرب من ١٠,٠٠٠ قاعة ورواق ومنزل وغرفة ومستودع .  
وقد عدوا فيه ١٢,٥٢٣ نافذة ، و ٩٩٧ سلماً ، ٣٠ منها خفية  
و ١٥ لولبية . وما عدا الجناح الخاص بالبابا وقاعات الحفلات ،  
عدد لا يحصى من المساكن العالقة ، كاعشاش العصافير ، في  
الحيطان وعلى السطوح وفي الابراج ، كما في سراديب هذه  
الابنية المتشابكة ، التي بدأ تشييدها منذ ستائة سنة ولما  
ينته . وسكان هذه المنازل كرادلة وكهنة ورهبان وراهبات ،  
فضلاً عن جماعة المستخدمين العلمانيين وعائلاتهم .

والى جانب البلاط الرسولي ، ترتفع اكبر كنيسة في العالم ،  
هي الكنيسة الملكية او الباسيلية Basilique ، المشيدة  
على اسم القديس مار بطرس ، على مساحة تستأثر بقسم كبير  
من ارض الدولة الفاتيكانية . إلا ان بعض الزوار لا يرتاحون  
في الغالب الى ما يرون فيها من تحف غنية جداً ، ولا الى  
انفتاحها المفرط لنور النهار ، لانهم الفوا ما في الكتدرائيات  
الغوطية من ظلال معتمة أدعى الى الخشوع الروحاني ،



فخالوه من مقتضيات المعابد على الاطلاق . بيد ان كنيسة مار بطرس من الجمال وتناسق الخطوط في الذروة .

طول الكنيسة ٢١١ متراً وعرضها ١٤٠ متراً ؛ ومن فوق مذبحها الكبير مظلة تدعى « الاعتراف » او « اعتراف مار بطرس » ، تضاهي قصر اللوفر الباريسي في ارتفاعها . وفي رومية كنيسة صغيرة ظريفة ، هي سان كارلينو ، قد تحشر بومتها في ركن من الاركان الاربعة التي يرتكز عليها وسط الكنيسة .

في داخل الكنيسة ٧٧٧ عموداً و ٤٤ مذبحاً و ٣٩٥ تمثالاً . ولهذا التماثيل حجم جسيم : فالتاج الذي على رأس تمثال القديس اغوستينوس يوازي قامة رجل عادي ، فكم يكون التمثال بالنسبة اليه . وعلى العكس تمثال مار بطرس ، فان حجمه طبيعي ؛ وهو التمثال الذي يبري المؤمنون بقبلاتهم قدميه النحاسيتين .

يقوم بخدمة الكنيسة العظيمة وتعهدها نقابة او جمعية عمال تأسست في القرن السادس عشر ، يدعى اعضاؤها « سمبسيثرييني » اي « مار بطرسيين » ، وعددهم نحو سبعين ، يلبسون بزة خاصة ، وفي الغالب يتوارثون اعمالهم ابناً عن اب واباً عن جد ، يتمرنون عليها ويتدربون بها شيئاً فشيئاً منذ صباهم . وليست تقتصر هذه الاعمال على داخل الكنيسة ، بل تشمل بالاخص خارجها وحتى قبتها الشاهقة .

فهي بالحقيقة اشبه شيء باعمال بهلوانية ، يحرسون على الاحتفاظ بسرها المهني التقني . وبفضل هذا التدريب يستطيعون تسلق قمة العواميد لتزيين الكنيسة استعداداً للحفلات الشائقة ، والتجول ، منكسي الرأس ، على حواجز القبة من الداخل ليقفلوا نافذة ، او لينفضوا الغبار عن الكلمات المذهبة ، وكل حرفٍ منها كقامة الرجل علواً ، ويستعينون في اعمالهم بجبال محترمون بها او يتعلقون بها بعد ان يكونوا قد شدّوها الى رؤوس العواميد ، او الى تماثيل الملائكة الرخامية .

ولكن ما يزيد دهشة العالم اجمع واعجابه انما هو انارتهم مقدّم الكنيسة اي صدرها الخارجي . فيقصون نحو شهر لوضع خمسة آلاف مصباح والى مشعل في اماكنها . وهذه المشاعل كناية عن صحون معدنية واسعة ، عليهم ان يملأوها بمقدار نحو ستة قناطر من الشمع . ويستخدم « المار بطرسيون » عدة كيلومترات من جبال غليظة ليتسلقوا مقدّم الكنيسة على طوله ، حتى القبة والمصباح العظيم والكرة الكبيرة والصليب الذي يعلو البناء . وكثيراً ما يضطرون الى ان يقفزوا في الفضاء ، وهم متعلقون بالجبال ، ليصلوا الى نقاطٍ معينة ، يضعون مشاعل فيها .

اما التنوير فيتمّ على مرحلتين : عند العشية تنار المشاعل الموضوعة على دوائر المقدم والقبة لتبيان دقتها ولطفها . ثم يتسلق رئيسهم بذاته الصليب الذي يعلو الكنيسة ،



وتتبعه فرقته ، مؤذناً بيد التنوير ؛ فيتخرج آتئذ رقصاً في الفضاء رجالٌ سود صفار ، تكاد تبصرهم العين في غيوبة الشفق . وما هي الا بضع ثوانٍ فتدب النار بوقت واحد في كل المشاعل ، فينتشي صدر الكنيسة وقبتها حياة ، ويتحدّر اللهب متوجّجاً مضطرباً على العواميد ، ويتثنى ويتلوى كالحيات على الزوايا ، وي طرح ظلاله على التماثيل الرخامية الكبيرة القائمة في اعلى المقدم .

ومن سنوات عديدة ، اخذت الكنيسة تنار بالكهرباء ، لاسباب اقتصادية من جهة ، وتوفرأ على سلامة العمال من جهة اخرى . فالمبالغ التي كانت تُدفع الى الشركات لتأمين حياة العمال « المار بطرسين » ، كانت قد اصبحت جد فاحشة .

### ٣ - الكنيسة والدولة .

في حاضرة الفاتيكان نحو من ثلاثين ساحة وشارعاً وسبعين بناية ، وكنيستين ( ما خلا مار بطرس ) ، ورعية ، وجبل ترتفع فوقه صواري الاذاعة الفاتيكانية ، ومحطة سكة حديدية ، واربعة مكاتب للبريد ، ومحكمة وسجنان ، واربعة مراكز حربية ، واربع نشرات دورية : الجريدة الرسمية باللاتينية : « اعمال الكرسي الرسولي » Acta Apostolicae Sedis ، تظهر عند الاقتضاء ؛ - الجريدة شبه الرسمية اليومية : « الراصد الروماني » Osservatore Romano ؛ - وجريدة اسبوعية :

« راصد الاحد » Osservatore della Domenica ؛ - ومجلة شهرية : « الكنيسة » Ecclesia ، وهذه جميعها باليطيانية .

يبلغ سكان حاضرة الفاتيكان نحواً من ١٠,٠٣١ شخصاً ، منهم ٧٥٠ رجلاً و ٢٨١ امرأة . عدد العائلات ١٥٣ ، والاطفال ٥٧ . وينتسب السكان باصلهم الى خمس عشرة جنسية . اللغة الرسمية هي الايطالية ( ولغة الكرسي الرسولي هي اللاتينية ) . دين الدولة هو المذهب الكاثوليكي ، وعلمها بلونين : ابيض واصفر ، ونشيدھا من وضع الموسيقي الفرنسي غونو Gounaud ( ١٨١٨ - ١٨٩٣ ) . للسيارات الفاتيكانية صفائح علامتها scv ( خدمة حاضرة الفاتيكان ؟ ) . معظم السكان من العسكريين ، والبقية اغلبهم من الكليويكيين . هذا وحاضرة الفاتيكان هي غير الكرسي الرسولي . فهذه العبارة الاخيرة تدلّ على السلطة التي تدير الكنيسة وتسوسها . ليست السيادة الزمنية من مقتضيات الكنيسة ، ولم يكن لها شيء منها في القرون المسيحية الاولى ، ومن سنة ١٨٧٠ الى سنة ١٩٢٩ ؛ وفي هذه السنة تنازلت الكنيسة نهائياً عن حقها بالاستيلاء على مدينة رومية برومتها ، مكتفية بحمي الفاتيكان ، حيث كوّنّت دولة زمنية أسمتها « حاضرة الفاتيكان » . على ان اعمال الكرسي الرسولي مستقلة تماماً عن حاضرة الفاتيكان . مثال ذلك ان حاضرة الفاتيكان عضو في بعض منظمات دولية ، كالانحاد الهويدي العام ؛ ولا شأن في



ذلك للكرسي الرسولي .

اما البابا فهو رئيس الكنيسة الكاثوليكية ،  
وسيد اي ملك حاضرة الفاتيكان منذ سنة ١٩٢٩ . على ان هذا  
اللقب لا يرد بين القابه إلا في الدرجة السادسة ، بعد اسقف  
رومية ، وبطريك الغرب ، الخ ...

ان حاضرة الفاتيكان تسير ، بنوع ما ، على مبدأ فصل  
الكنيسة عن الدولة . فيقوم باعباء حكومتها موظفون فوض  
اليهم سيد الدولة سلطاته . على ان الدولة خلقت لاجل الكرسي  
الرسولي ، فتوليه ما يعوزه من ارض ولو ضئيلة ترمز الى  
استقلاله وسيادته . وعليه فلا سياسة خاصة بحاضرة الفاتيكان ،  
ولا تطور ذاتي ، ولا ثورة مستطاعة . فوجودها منبثق من  
ارادة البابا . والبابا ليس فقط ملكاً يتمتع بالسلطات الثلاث :  
التشريعية والتنفيذية والقضائية ؛ انه كذلك صاحب الدولة ،  
وهي ملكه ، ولكنه يفوض معظم سلطاته الزمنية الى لجنة  
كردينالية .

وفي الوقت الحاضر (سنة ١٩٥٤) ، قوام هذه اللجنة الكاردينالان  
كنالي Canali وبيتزاردو Pizzardo ، والامير كارلو باتشلي ابن  
أخي البابا ، والكونت بيترو انريكو جالياتري Galeazzi .  
فهؤلاء يمارسون السلطة التنفيذية ، ويراقبون سير الدولة في ادق  
التفاصيل ، فلا تقوهم شاردة ولا واردة بما يعود الى الشؤون  
المالية والاقتصادية والادارية والاميرية والعسكرية ؛ الى حد

انهم لا مجهلون شيئاً ، حتى ولادة طفل احد عمال الافران ،  
او توقيف دركي تسلق السور وقفز خارجه ، او اضافة  
سارية جديدة الى سوارى محطة الاذاعة .

ان الكردينال كنالي يقوم باعمال باهظة وسامية  
في الدواوين الكنسية ، فهو رئيس محكمة التوبة ، والمقدم  
الاعلى لجمعية فرسان القبر المقدس ، الخ ... وهو الى ذلك  
اداري ثاقب النظر ، لا يستنكف غالباً عن ان يعنى بذاته  
بمراقبة توزيع الاعاشة في مخازن الدولة من خبز ومكر  
ولحم وزيت وخمر .

والرجل الذي يحتلّ المقام الاول ، الى جانبه ، بين الموظفين  
غير الرسميين ، ليس اكليريكياً ؛ انه الكونت جالياتري ،  
مهندس « دائرة املاك مار بطرس » ؛ وهو اداري كبير ،  
يتمتع بمنزلة خاصة حمية لدى الحبر الاعظم .

ولهذا الكونت اخ ، هو طيب البابا الخاص . على ان  
مهنته ، وفي هذا شيء من الغرابة ، طيب عيون . فذات  
يوم ، كان الكردينال باتشلي ماراً في شارع سيستينا  
برومية ، فرفع نظره ، فرأى عيناً ضخمة تحدق اليه من  
اعلى احدى البنايات كأنها تدعوه . ولم تك العين سوى لوجه  
دعاية للبروفسور جالياتري ، طيب العيون الشهير . وكان  
الكردينال بحاجة الى تبديل نظارتيه ، فاسرع الخطى الى حيث  
العين الفاتنة ، واصبح منذئذٍ احد زبائن جالياتري بدون



## انقطاع .

ولم تمض أيام حتى اعتمر التاج المثلث الطبقات Tiare .  
 ويوم انتخابه بالذات ، عند عودته من المعبد السيستي ، بعد  
 القرعة الاخيرة النهائية ، عثرت رجله فوق وقع وجرحته ذراعه ،  
 ولكنه لم يبال بالامر . وبعد ساعات قلائل ، نودي به حبراً  
 اعظم ، باسم بيّوس ، الذي اختاره لنفسه ، فكان  
 الثاني عشر بين الباباوات الذين دعوا بهذا الاسم . وفي غمرة  
 انفعالاته العميقة في هذا النهار الطافح بالعظائم ، لم يظن  
 لجرحه ، إلا مساءً . ولما كان لا يعرف طبيباً غير جالياتري ،  
 ارسل فاستدعاه . ومنذئذ ، كلما اعتلّ بيوس الثاني عشر ،  
 كان يدعى طبيب العيون لمعالجته . ولم يمض بضعة اشهر حتى  
 لقب جالياتري بطبيب البابا . وكان اخوه ، كما رأينا ، مهندس  
 حاضرة الفاتيكان . وقد أهلت الطبيب صفاته ومكنته  
 وظيفته من التقرب المستديم من الحبر الاعظم ، فنال حظوة  
 عظمى لديه ، وأوتي من ذلك نفوذاً فريداً ، فكان صاحب  
 الرأي السديد ، والامر المطاع ، والشفاعة المرجوة . وشاء  
 الكونت جالياتري ان يجاري عصره فقام باسفار عديدة ،  
 وخاصة الى الولايات المتحدة الاميركية حيث ربطته  
 صداقة متينة بذاك الذي اصبح الكردينال سبلن ، وكان  
 الطبيب من جملة الذين اشاروا بترقيته ، فاستُع له .

## ٤ - الحكومة الفاتيكانية وتبعتها .

ان الاشخاص الخاضعين لولاية الحكومة البابوية لجدّ  
 سعداء : لا ضرائب مفروضة عليهم ، ولا بدل ايجار يطلب  
 منهم عن محلات سكنهم ، لانهم لا يقيمون في الفاتيكان  
 إلا اضطراراً لسبب وظيفتهم . وهم معفون من الخدمة  
 العسكرية .

ثم ان الدولة تقدم اليهم ، باسعار جد بخسة ، الخبز  
 والحليب والسكر والاقمشة ، في مخازن رسمية مرخص لها  
 وحدها بالبيع . ويجدون ما يحتاجون اليه من العلاجات في  
 صيدلية الدولة ، المعهود بها الى جمعية اخوة القديس يوحنا .  
 ولا رسوم تدفع عن الكلاب . ولا يستوفي الجمرك ،  
 مبدئياً ، من رسوم إلا عن البضائع الواردة من الخارج .  
 وفي الغالب تتفق الدولة والمستوردين الخاضعين لها على مبلغ  
 الرسوم ، بدون تطبيق التعرفة الرسمية .

اما دخل الدولة فمن بيع الطوابع البريدية ( ٢٨ مجموعة  
 منذ سنة ١٩٢٩ ) التي تدرّ عليها مليوني لير في الشهر  
 تقريباً ( ١٠ آلاف ليرة لبنانية تقريباً ) . ويصعب جداً تحديد  
 المبالغ التي يدفعها الغواة ثمن طوابع فريدة نادرة . وتربح  
 الدولة شيئاً من بيع الدخان الاميركي والمشروبات الكحولية .  
 ولكن هذا جميعه ليس بشيء بالنسبة الى ما يتوجب على  
 الدولة من نفقات على الموظفين والجند والاشغال العامة ، الخ ...



فالدولة القاتيكانية في حالة عجز محتوم . ولكن لا ميزانية بصورة منظمة ولا تقديرات مسبقة للصرف . فالكرسي الرسولي يسدّ النقص ، بناء على بيانات ترفع اليه . وفي سجل ماليته بابٌ خاص بالدولة الزمنية .

( في حاضرة القاتيكان ، ثلاث محاكم تنظر في الخلافات الناشئة بين الخاضعين لها : المحكمة البدائية داخل الاسوار ، ومحكمتا الاستئناف والتمييز في القصور البابوية في رومية . على ان الدعاوى جد قليلة لسبيين : احدهما ان السكان يحترمون القانون والشرائع ، والآخر ان السلطات القاتيكانية تؤثر تسليم المجرمين والمخالفين الى المحاكم الايطالية المدنية . وليست المحاكم القاتيكانية صالحة للنظر في ما يقترب ضد الشرائع الكنسية ، مما يعود القضاء فيه الى المحاكم الدينية . كما ان هذه ، بالمقابلة ، لا تعنى بما كان من شأن القضاء الزمني الخاص بالمحاكم القاتيكانية .

وبالطبع ، لا بد من مكان لسجن المحكوم عليهم ؛ فهناك حسان يتألف كل منها من غرف مستوفية جميع اسباب الراحة ، ومجهزة بكل لوازم النظافة ومعدات الوقاية الصحية . ولكنها غالباً ما يظللان فارغين . وقد حوّلوا الى مستودعات للمؤن ، في ايام الحرب الاخيرة )

★

من الدلائل الواضحة على سيادة القاتيكان ، محطة السكة

الحديدية القائمة فيه . فهذه المحطة يدخلها بعض قطارات الشحن ، ولكنها انشئت خاصة كشهادة ناطقة باستقلال الدولة .

ولهذا يقوم فيها جسر فخم ، وتتصل خطوطها الحديدية ، التي لا تريد على بضعة امتار ، بالخطوط الايطالية . وعند الحاجة يسدل حاجز حديدي يفصل بين خطوط الدولتين . والمحطة مدير بدون بزة رسمية ولا قبعة خاصة ، وقد أنعم عليه بلقب كافاليرو ، بالرغم من خلو المحطة من اي موظف او مستخدم آخر .

هذا ولا يملك البابا قطاراً خاصاً به ، ولا اسطولاً بحرياً او جوياً . ولكن دائرة سيارات الشحن والسيارات الشخصية واسعة جداً . ومن السيارات ما صنع لخدمة الخبر الاعظم بصورة خاصة ، فوضع فيه عرش محل المقاعد المألوفة . ولكن البابا يفضل اتخاذ سيارة من الطراز العادي ، عندما يخرج من القاتيكان .

اما الاشغال الصناعية والمهنية فليست بذات شأن في القاتيكان . على ان فيه مكاناً يضيح بالمحركات والآلات ؛ فهناك معمل شهير للفسيفساء ، ومشغل لالبسة الجند ، ومطبعتان كبيرتان احدهما تحوي حروفاً من جميع لغات العالم ؛ والعمال فيها رهبان محتوم عليهم كتمان السر . وفي الواقع ، لم يُفش سرٌ قط في تاريخ الكنيسة حتى الآن .



والعمال ، كالموظفين في دوائر الدولة وكالمستخدمين ، يقبضون رواتب ضئيلة . لكنهم يعتاضون بما يوزع عليهم من مؤن ، وبما يلقونه من اسعاف في تعاونية منشأة لخدمتهم ؛ ويرتاحون الى شبه ضمانه تجعلهم يثقون بانهم يقضون حياتهم في ظل مار بطرس ، بدون ان يُصرفوا من العمل ، وبمعزل عن الثورات والازمات التي تتوالى في الدول الاخرى فتبليها . وقد بلغت عناية الدولة البابوية بعمالها انها تحسم كل شهر مبلغاً زهيداً من رواتبهم ، ضماناً لنفقة دفتهم . وعدا ذلك ، كلما توفي بابا ، توزع منح على العمال المستخدمين لاعداد انتخاب البابا الجديد . فيحدث بعض المرات ، اذا شعر العمال بصعوبات في امر معيشتهم ، انهم يودّون : « لو يموت البابا ! »

ليس في القاتيكان منظمات نقابية . وكان قد عنّ لبعضهم محاولة شيء من ذلك ، على اثر انتهاء الحرب الاخيرة ، وكانت شوارع رومية تعج بسيارات ملأى بشبان يلبسون القبعات الاستراخانية ، ويلوحون باعلام حمراء ، مرددين بالطليانية نشيد الثورة الدولية . ولكن سرعان ما عادت المياه الى مجاريها ، بعد ان جلا هؤلاء الاغراب عن المدينة الخالدة ، وخفت صدى اناشيدهم . فكانت القلبة للادارة البابوية الرشيدة بروحها الابوية ، وانسحب من الميدان بعض العمال المتحمسين .

ان حاضرة القاتيكان لفخورة باطفائيتها ورجال اطفائيتها ، وهم من النخبة ، مركزهم اخدى اجمل باحات القاتيكان ، المعروفة بالـ « بلفيديره » Belvedere . يستخدمون سيارات الجيب ، ولديهم كل ما تقتضيه اطفائية عصرية مثالية . يطوفون مرتين كل يوم في قصر القاتيكان ، على مدى اتساعه ، حاملين رزماء ضخمة من المفاتيح ، يدخلون بواسطتها جميع الامكنة .

وللاطفائية انعام خاص بها ، يدل على ما يتمتع به رجالها من تقدير ومحبة . وهو انهم ، متى تقدموا في السن ، يعهد اليهم بخدمة المصاعد القاتيكانية ، وعددها ثلاثة . واقدمها يصل قاعات الاستقبال بجناح البابا الشخصي القائم فوقها . وهو معد لخدمة الحبر الاعظم دون سواء . انشيء سنة ١٨٥٠ . وكان يُحرّك في البدء بجهاز آلي تسيّره بالايدي فرقة من الخدم الاشداء . وقد استخدم هذا الجهاز لآخر مرة سنة ١٩٠٣ ، اذ صعد فيه ادوار السابع ، ملك انكلترا ، لزيارة البابا لاون الثالث عشر .

وفي عهد بيوس الحادي عشر ، علّقت ، في غرفة المصعد ، صفيحة فضية حفرت عليها صورة القديس كريستفل ، حارس المسافرين وشفيعهم .



## الفصل الثاني

### اعظم سلطة على الارض

#### ١ - في البلاط الوسولي ، عند الصباح .

هوذا الخبر الاعظم قد انتهى من الاغتسال ولبس ثيابه . وهوذا النور ينبعث من نوافذ المسكن الخاص به في الطابق الثاني من قصر القاتيكان ، ولما تدق الساعة في الساعة الكبيرة . الطقس بارد ، والساحة الفسيحة ، المنبسطة امام كنيسة مار بطرس ، بين ذراعي رواق الاعمدة المهدق بها عن جانبيها ، خالية ، يغمرها الضباب الكثيف .

ترك البابا حجرة الحمام ، حيث موسى الكهربائية وسائر ما يلزم للاغتسال والنظافة ، وقد ارتدى ثوباً ابيض وضعياً ، ثم اخذ بالذهاب والاياب في غرفة نومه ، مستسلماً الى التأمل . في هذه الغرفة سرير من خشب الجوز وكرسي ومرجع وطاولة تراكت عليها الاضارات . السكوت نخبم تماماً . ولا يسمع ، من وقت الى آخر ، سوى وقع اقدام دركي بابوي . وفي الردهة حسون وكناران تنتقل طائفة ، وقد يحط هذا او ذاك واقفاً على كتف البابا . وقد يجرو

على ارسال صوت حاد . ان هذه الطيور تصحب البابا في الساعة الاولى من النهار . والحسوت مشدوه بمواء موسى الكهربائية ، فما ان يسمعه حتى يسرع فيتبع كل حركة يأتيها الخبر الاعظم .

ثم تبدأ حركة في المعبد الصغير الخاص بالبابا . ويفتح البابا باب غرفته ، فيتقدم احد الحجاب ، بثوب اسود بنفسجي ، ويحني رأسه تحية واحتراماً . وفي المعبد راهبتان راكعتان تتلون بالتجاوب المسبحة الوردية لاکرام السيدة العذراء مريم . فتتار الشموع امام صورتها الموقرة . ويلبس الخبر الاعظم الحلة الجبرية ، القميص الطويلة والبطرشيلى والبدلة ، ويدنو من المذبح ، ويسم ذاته بشاره الصليب ، ويأخذ يتلو صلوات القداس ويقوم بطقوسه ، بصوت خافت وحركات مهية ، كما يفعل في هذه الساعة عينها ، في آلاف الكنائس ، ككهنة لا عدد لهم .

بعد القداس وصلاة الشكران ، ينتقل البابا الى غرفة الطعام ، حيث يأكل وحده ، فالتقليد يحول دون جلوس احد اياً كان الى المائدة البابوية . ويتناول فطوره طعاماً بسيطاً ، بدون افراط وفقاً لعادة البلدان المتوسطة . الا ان الافران البابوية كانت تعمل طوال الليل ، فانت احدى الراهبات ، ولبتت وقتاً تقلب الارغفة الصغيرة حتى انتقت له منها الرغيف الخفيف المحمّس المذهب .



وينتهي البابا من فطوره ، شأن جميع الكهنة خدمة الرعايا في العالم بأسره ، في مثل هذه الساعة ؛ وعلى شاكلتهم ، يبدأ يفكر في ما ينتظره من عمل وعناء في يومه .

وبعد ان يلقي نظرة خاطفة على بضع جرائد يومية : ايطالية وفرنسية وانكليزية والمانية واسبانية ، ينهض فيشكر ، ويتجه نحو الباب فيحييه الحرس السويسري ، القائمون في الرواق الخارجي الفسيح ، بان يخضعوا له بالجنو على ركبة واحدة . ويفتح باب المصعد خادم يرتدي ثوباً قرمزيّاً . فينحدر البابا به الى الطابق الثاني ، ويدخل مكتبته الشخصية ، فيأخذ التلفون الذي يصله مباشرة بمكتب وكيل وزارته ، المنسيور مونتيني . ومن هذا الحين ، تنقضي الحياة الهائلة الوضيعة التي كان البابا ينعم بها في مسكنه الخاص ، منصرفاً الى التأمل والتفكير ، وبياشر السيد ، الذي تمتد ولايته على نحو خمسمائة مليون نسمة ، الاضطلاع بمهام وظيفته السامية .

## ٢ - على الارض وفي السماء .

هذا الصباح ، لا يتسنى للبابا ان يبقى طويلاً وراء مكتب عمله . فعليه ان يقوم في مار بطرس باحتفال كبير ، به يعلن قداسة فتاة قروية ايطالية صغيرة ، قتلها احد الشهبانيين ، فقضت شهيدة الطهارة ، تدعى ماريّا جورتي Goretta . ولو اتسع له الوقت ليدنو من النافذة ، لشاهد ساحة مار بطرس الواسعة

الارجاء تعجّ وتوج بالناس كأنهم النمل . وكانت فرق من الدرك البابوي وحرس البلاط قد اتخذت مواقعها في اسفل فناء الكنيسة ؛ والطلبة الاكليويكيون يحاولون بشق النفس اختراق صفوف الجموع المتراصة . ومن الكنيسة ، يتراعى الى الخارج صدى جلبة الجماهير المتألبة فيها .

هوذا مدير التشريفات يشق الباب ، ويرسلُ اشارة نحو البابا ، فينهض طوعاً ، ويعبر بقدم سريعة كعادته ممرات ممشي القاتيكان الواسعة ، راداً تحية الحرس بيوكة من يمينه . وكان اصحاب المقامات الكنسية العالية بانتظار قداسته في القاعات المحاذية للمعبد السيستي . في وسط سكون عميق ، كان يقطعه من وقت الى آخر تهامس الاجار ، افرغت على البابا حلته الحبرية الفاخرة ، فتوارى ثوبه الابيض الوضيع تحت اقمشة ثينة من الحرير متموجة مطرزة بالقصب وموشاة بالذهب والفضة ، وسبوتت اليدان الناعمتان اللتان كسرتا رغيف الفطور من زمن قريب بقفازين من حرير ابيض ، لمع فوق احدهما خاتم نين .

وكان الموكب البابوي قد انتظم امام المعبد السيستي ، واعد العرش المحمول Sedia Gestatoria ، وهو كناية عن كرسي مرتفع ، موضوع على نوع من محمل طويل ، مزدان بالذهب ومجمل بالتحمل ، يحمله اثنا عشر رجلاً . فصعد البابا الى هذا العرش المتحرك ، ومشى به الحملة بقمصانهم القرمزية .



وينتهي البابا من فطوره ، شأن جميع الكهنة خدمة الرعايا في العالم بأسره ، في مثل هذه الساعة ؛ وعلى شاكرتهم ، يبدأ يفكر في ما ينتظره من عمل وعناء في يومه .

وبعد ان يلقي نظرة خاطفة على بضع جرائد يومية : ايطالية وفرنسية وانكليزية والمانية واسبانية ، ينهض فيشكر ، ويتجه نحو الباب فيحييه الحرس السويسري ، القاثون في الرواق الخارجي الفسيح ، بان يخضعوا له بالجنو على ركبة واحدة . ويفتح باب المصعد خادم يرتدي ثوباً قرمزيّاً . فينحدر البابا به الى الطابق الثاني ، ويدخل مكتبته الشخصية ، فيأخذ التلفون الذي يصله مباشرة بمكتب وكيل وزارته ، المنسيور موتيني . ومن هذا الحين ، تنقضي الحياة الهائلة الوضيعة التي كان البابا ينعم بها في مسكنه الخاص ، منصرفاً الى التأمل والتفكير ، ويباشر السيد ، الذي تمتد ولايته على نحو خمسمائة مليون نسمة ، الاضطلاع بمهام وظيفته السامية .

## ٢ - على الارض وفي السماء .

هذا الصباح ، لا يتسنى للبابا ان يبقى طويلاً وراء مكتب عمله . فعليه ان يقوم في مار بطرس باحتفال كبير ، به يعلن قداسة فتاة قروية ايطالية صغيرة ، قتلها احد الشهبانيين ، فقضت شهيدة الطهارة ، تدعى مارياجورتي Goretti . ولو اتسع له الوقت ليدنو من النافذة ، لشاهد ساحة مار بطرس الواسعة

الارحاء تعجّ وتغوج بالناس كأنهم النمل . وكانت فرق من الدرك البابوي وحرس البلاط قد اتخذت مواقعها في اسفل فناء الكنيسة ؛ والطلبة الاكليويكيون يحاولون بشق النفس اختراق صفوف الجموع المتراصة ؛ ومن الكنيسة ، يترامى الى الخارج صدى جلبة الجماهير المتألبة فيها .

هوذا مدير التشريفات يشق الباب ، ويرسل إشارة نحو البابا ، فينهض طوعاً ، ويعبر بقدّم سريعة كعادته ممرات ممشي القاتيكان الواسعة ، راداً تحية الحرس بيوكة من يمينه . وكان اصحاب المقامات الكنسية العالية بانتظار قداسته في القاعات المحاذية للمعبد السيستي . في وسط سكون عميق ، كان يقطعه من وقت الى آخر تهامس الاجبار ، افرغت على البابا حلته الجبرية الفاخرة ، فتوارى ثوبه الابيض الوضيع تحت اقمشة ثينة من الحرير متموجة مطرزة بالقصب وموشاة بالذهب والفضة ، وسترت اليدان الناعمتان اللتان كسرتا رغيف الفطور من زمن قريب بقفازين من حرير ابيض ، لمع فوق احدهما خاتم ثين .

وكان الموكب البابوي قد انتظم امام المعبد السيستي ، واعد العرش المحمول Sedia Gestatoria ، وهو كناية عن كرسي مرتفع ، موضوع على نوع من محمل طويل ، مزدان بالذهب ومجمل بالتحمل ، يحمله اثنا عشر رجلاً . فصعد البابا الى هذا العرش المتحرك ، ومشى به المحملة بقمصانهم القرمزية .



ساد السكون وتحرك الموكب . ومن على العرش المتهزئ  
على اكتاف الحملة ، شاهد البابا سلم الكنيسة الملكي .  
وكان التاج المثلث الطبقات ، المرصع بالحجارة الكريمة ،  
ثقيلاً على رأسه . وما ان دخل الكنيسة من الصحن الداخلي ،  
حتى دوت فجأة الابواق الفضية فمزقت الاجواء . فجاوبت  
الجمهير بتصفيق حاد وهتاف اشبه بصياح المهوسين . اما  
الحبر الاعظم فكان ثبت الجنان ، بعيداً عن كل انفعال  
خارجي ، تحت حلته الثقيلة ، يطفو على الجمهير كأنهم البحر  
الزاهر ، تنشده وتهلل له في عظمت من ابهة ونور وتوسل .  
عندما يُقدم البابا على قداسة احد المؤمنين ، يمارس  
ملء سلطانه الذي يتجاوز به عالم المائتين الى ابعد منه  
بكثير . فبينما ينادي بالفتاة الطليانية الصغيرة قديسة ، انما  
يقوم بعمل ينبثق من حقه بالسيادة المطلقة على الكنيسة  
المجاهدة ، المؤلفة من ارواح غير منظورة . انه هذا الصباح ،  
في مار بطرس ، لفي الذروة من قدرته ، والالوج من  
عظمته .

فمن الآن فما بعد ، يحق للمؤمنين ان يرفعوا فوق المذابح  
صورة القروية الطليانية الطاهرة ، ويشعلوا الشموع ويحرقوا  
البخور امامها ، ويتوسلوا اليها بزيارات حافلة ان تشفع فيهم  
عند الله . فالبابا قد اعلن انه سبر غور حياة هذه الخليقة  
البشرية ، واذاغ باحتفال ان القديسة الجديدة قد اختلطت

بصفوف المختارين في الفردوس .  
على ان اعلان قديس او قديسة عمل قلما خلا منه سجل  
اعمال سائر الاحبار الاعظمين . وببوس الثاني عشر شاء ان  
يتعداه فمارس سلطانه الروحي بنوع بعيد الدوي ، نادر في  
تاريخ البابوية ، « فحدّد » عقيدة ايمانية ، اي نادى على الملأ ،  
في المدينة الخالدة والعالم اجمع ، بتعليم من قانون الايمان لا  
يستطيع المؤمن الكاثوليكي بعد الآن ان يرفض الاعتراف  
به وقبوله ، وإلا بطل ان يكون من اعضاء الكنيسة ،  
وعدته من الحوارج عليها اي هرطوقياً .

ف سنة ١٩٥٠ ، لما حدد البابا ، في وسط ساحة مار بطرس ،  
باحتيال احتاذ بلغ غاية الابهة ، عقيدة انتقال العذراء مريم  
الى السماء ، انما كان بذلك يسود ويملك على الضمائر : فقد  
حدد باسم الكنيسة ان جسد البتول مريم ، عند موتها ، - وليس  
نفسها فقط - ، وُجد في السماء ، بنوع سرّي وحقيقي كل  
الحقيقة ، الى جانب ابنها يسوع المسيح ، وان هذا الجسد لم  
يتسرب اليه فساد الانحلال كاجساد سائر البشر المائتين .

فبعد اعلان هذه العقيدة الايمانية ، لم يعد في وسع احد  
ان يُنكر حقيقة التعليم الذي تلقنه الكنيسة ابنائها بهذا  
الصدد ، لان الحبر الاعظم انما هو معصوم من الغلط . فبعد  
الآن ، ليس هذا الامر ، ولن يكون حتى انتهاء  
الدهر ، في نطاق الامور الخاضعة لحرية اختيارنا ، ولا قابلاً



لإعادة النظر فيه . ان كنيسة المائتين ، الكنيسة المجاهدة ،  
والكنيسة المنتصرة ، ملزمة بالخضوع لهذا الحكم الصادر  
عن الجبر الاعظم .

ان الشيخ الوضع قد ساد وملك في السماء وعلى  
الارض معاً ، بضع دقائق .  
فمن هو اذاً البابا ؟

### الفصل الثالث

#### السلطة البابوية

##### ١ - الكنيسة على شكل مصغر .

ان البابا ، وفقاً لعقيدتنا ، يمثل الله على الارض ، وفائب  
يسوع المسيح ، ورئيس الكنيسة المنظور . فباسم السيد  
المسيح يمكنه ، في بعض ظروف حافلة ، ان يبسط ولايته على  
الاحياء وعلى الاموات ، وان يحدد عقائد ايمانية للجماعة  
المسيحية العتيقة والمقبلة . فالكنيسة جسم سرّي ، اعضاؤه  
موتى واحياء ومن سيلدوت من هؤلاء . وهاكم قوامها  
على شكل مصغر .

ان الله تعالى هو خالق الاشياء جميعها ؛ وابنه الوحيد  
تجسد وصار انساناً ، وهو المسيح ، ليخلص بآلامه وموته  
الجنس البشري . ويسوع المسيح اسس الكنيسة وسيبقى الى  
الابد رأسها غير المنظور ؛ وقد جمع حوله رسلاً كان بطرس  
زعيمهم ، وكان الاساقفة خلفاءهم من بعد ؛ وبكلمة منه ، عيّن  
بطرس رئيساً للكنيسة بقوله له : « انت صخر ( بطرس ) ،  
وعلى هذا الصخر أبني بيعتي ... » « ارفع خرافي » .

فبطرس اذاً هو البابا الاول . وكان قد اقام كرسيه في انطاكية ، فنقله بعدئذ الى رومية ، وجعلها عاصمة المملكة الجديدة الجامعة التي هي مملكة النفوس . وصار اسقف رومية . ومنذ استشهاده ( حيث تقوم كنيسة مار بطرس الحالية ) ، داوم اساقفة رومية ، الذين خلفوه بسلسلة غير منقطعة منذ الف سنة تقريباً ، على المطالبة بحقهم في ادارة الكنيسة .

على ان رئاسة اسقف رومية كانت موضوع جدل ونزاع . وعلى مدى القرون ، رفض بعض الكنائس الاعتراف بهذه الرئاسة ، فانفصل عن رومية : « الارثوذكسيون » في الكنيسة الشرقية ، ومحورهم بيزنطة وبعدئذ موسكو ، والانجيليون والبروتستنتيون من اتباع كلفن ولوتير وزينكل . وفي ايامنا ، تحاول الحكومات الشيوعية ، القائمة وراء الستار الحديدي ، احداث صدوع وشقاق في صفوف الكاثوليكين من مواطنيها ، لتفصلهم عن سلطة البابا .

ولكن الكنيسة الرومانية ، بالرغم من كل ذلك ، واصلت السير في سبيلها ، غير آبهة للاضطراب والقلق ؛ بل راحت وظلت ، بدون ان تخفف شيئاً من وطأة نظامها الاداري الشديد الصارم ، تعمل بالحرية على تعزيزه وتوطيده بدون انقطاع .

ان بطرس لا يزال على الدوام في رومية . وهو على

الدوام رئيس الرسل . واليوم اكثر من كل الايام ، لا مشاحة اصلاً في سلطته على الاساقفة والكهنة والمؤمنين الذين يبسط عليهم ولايته . فالكنيسة اوضحت ، مع الايام شيئاً فشيئاً ، التعبير عن خصائص سلطتها . وقد عقد المئتان والثلاثة والستون بابا ، الذين تعاقبوا على كرسي بطرس ، الواحد تلو الآخر ، احلافاً ونقضوها مع السلطات الزمنية ، وخاضوا المعارك ضد الاباطرة وكثير من الملوك . ومنذ ثمانين سنة ، قبل احد هؤلاء الباباوات ، بيوس التاسع ، بانضمام الكنيسة على الصعيد الزمني ، فخر رومية التي اصبحت منذئذ عاصمة الدولة الابطالية . ولكن هذا البابا نفسه حدد العقيدة التي تثبت اسمى سلطة روحية للحبر الاعظم ، ألا وهي العصمة من الغلط .

## ٢ - البابا معصوم من الغلط .

ان البابا ، في احوال جد نادرة وتحت شروط معينة ، لا يمكنه ان يغلط حين يحدد عقائد تلامس الايمان . فسلطته هي ، اذاً ، قبل كل شيء آخر ، سلطة تعليمية . فهو الذي يصون معتقد الكنيسة ويوضحه . وانه لأمر جوهري ، لان قدرة الكنيسة كامة في ان معتقدها لا يمس . فلا زلة ولا عصيان ولا شيء من مثل ذلك يفوق بثقله التمرد على سلطان الكنيسة التعليمي . ولا خطيئة انقل من خطيئة الهرطقة .



ولهذا فمن يحدد ذلك ، لا يمكنه ، فيما بعد ، ان يكون كاثوليكياً . وها هي الشيوعية ، التي تحاول الظهور ككنيسة وتتخذ مسلك كنيسة ، لا تخشى شيئاً « كالأخرافات » الفكرية . ان البابا ، والحق يقال ، لا يحدث على الاطلاق شيئاً جديداً في المعتقد ، ولا يزيد عليه شيئاً . فالمعتقد محتوم مقرر في الوحي الالهي وفي التقليد الكنسي ؛ في الوحي ، من النصوص المقدسة في العهدين القديم والجديد ، في الاناجيل واعمال الرسل والرسائل والرؤيا ؛ وفي التقليد ، من مجمل الاقوال والكتابات التي هي بمثابة شرح لا ينتهي لهذا الوحي ، والتي يُعتبر آباء الكنيسة اخص مؤلفيها . فعندما يتكلم البابا ، كمثلهم معصوم من الغلط ، فانما هو يستقر ويوضح ويفسر حقيقة محتواة في الوحي البدائي . وبهذا المعنى يقال : ان البابا « يحدد » هذه الحقيقة « من على المنبر »

. Ex Cathedra

في القرون السالفة ، كانت الكنيسة تدعو الاساقفة الى مجامع مسكونية اي عامة ، يبسطون فيها العقائد ويمحصونها ويدافعون عنها ، قبل ان « يحدد » البابا الصيغة النهائية للتعبير عنها . ولكن هذه المجامع اصبحت مع الزمن قليلة جداً . فواصل الباباوات توطيد سلطتهم المركزية ، حتى اصبحت تدريجياً يعلنون وحدهم ، بدوت مجامع ، عقائد الايمان .

على انهم لا يقومون بهذا الامر إلا بعد اجراء دروس مستفيضة بواسطة علماء اللاهوت ، وبعد استشارة الكنيسة بأسرها . ففيما خص عقيدة انتقال العذراء ، التي تحدت سنة ١٩٥٠ ، كان بيوس التاسع قد كلّف ، قبل ذلك بسنوات مديدة ، عدداً وافراً من العلماء المتخصصين في الشؤون المريمية ، ان يصوغوا عبارة العقيدة على احسن وجه . ولم تكن البادرة من جانب البابا ، في هذا الامر كله ، بل من قبل بعض اللاهوتيين الذين التمسوا منه ذلك .

وقبل ان يعلن البابا العقيدة ويذيعها بصورة حافلة ، كان قد ارسل الى جميع اساقفة العالم ، ورؤساء الرهبانيات ، وفطاحل علماء اللاهوت ، لائحة مفصلة بسؤالات دقيقة ، في الموضوع ، يطلب اليهم الجواب عنها . فكان هذا نوعاً من الاستفتاء عبّرت به اكثرية ساحقة عن ايمانها بانتقال العذراء ، والتمست « تحديد » هذه الحقيقة .

فلم يُقدم البابا اذاً على هذا « التحديد » ، إلا بعد اتخاذ كل هذه الاحتياطات ، للاطلاع على ما يمكننا تسميته بالرأي العام المسيحي .

ان تحديد عقيدة انتقال العذراء فتح سبيلاً الى تقولات كثيرة ، واثار احياناً الدهشة وحتى الشك . والحال ان المسيحيين كانوا ، منذ القرون الاولى ، يكرمون بعبادة خاصة انتقال العذراء بالجسد الى السماء . وفي الشرق والغرب ،

قامت معابد عديدة على اسم انتقال مريم . والرسوم التي تمثل هذا الواقع السعيد لا عديد لها . وبالرغم من ذلك ، قد انتظر الباباوات اكثر من الف وخمسةائة سنة قبل ان يحددوا انتقال العذراء كعقيدة من الايمان .

قبل بيوس الثاني عشر ، تعاقب على كرسي بطرس اربعة باباوات لم يعلنوا عقائد ايمانية ؛ ذلك ان الباباوات لا يلجأون الا نادراً جداً الى انعام العصمة من الغلط . فيوس التاسع اعلن عقيدتين : الحبل بمرم من دون ان تلحق بها وصمة الخطيئة الاصلية سنة ١٨٥٤ ؛ وعصمة البابا من الغلط سنة ١٨٧٠ . وكان هذا البابا قد عقد المجمع الفاتيكاني ، وهو آخر مجمع مسكوني حتى الآن . فحالت احوال سياسية دون مواصلته ، ولا يزال موقفاً الى اليوم .

ان العقائد الايمانية ، التي يجب الاعتراف بها تحت طائلة الوقوع في الهرطقة ، هي في الحقيقة قليلة جداً . ولكنها القاعدة التي يرتكز عليها مرتفعاً بناء تعاليم الكنيسة وعقائدها المتنوع الاجزاء .

### ٣ - يحق للباباوات ان يغلطوا .

ما من شيء يسر البابا بيوس الثاني عشر كاهداء معجم اليه . فانه من غواة جمع المعاجم . فاحدث الطباعات منها ، في جميع اللغات ، تملأ الرفوف من صدر مكتبته ، فيعود اليها ،

ويعارضها بعضاً ببعض . ويلذه ان يؤاخذ السفراء والاساقفة الذين يتقن لغتهم بما قد يقعون فيه من اخطاء لغوية . وهو شغوف بتتبع النزاع القديم بين البروتستانت والبرازيليين في شأن المقطع الذي يجب رفع الصوت فيه من كل كلمة .

على ان بيوس الثاني عشر لا يكتفي بالتعمق في معرفة اصول اللغات التي يمارسها . فانه يدرس ما يلامس انشاءها ، ويواظب على مطالعة مؤلفات اقباطها ، ولاسيا الكلاسيكيين . ومن مستشاريه في اللغة الفرنسية ، صديقه القديم المطران جورج آجرت Grente ، عضو المجمع الادبي الفرنسي ، الذي رفعه الى مقام الكرادلة .

ان بيوس الثاني عشر يكتب على العمل ، منصرفاً الى اعداد الخطب التي يلقيها ، او الرسائل التي يوجهها الى المؤمنين . فعلى مكتبته تتراكم المؤلفات العلمية . وحسب عادته يطرق المواضيع في صلبها . وعندما ينتهي من استقبال العلماء الآتين اليه من جميع البلدان ، لا يتوانى عن سؤالهم عما اذا كانوا ، كل في دائرة اختصاصه ، يوافقون على صحة معلوماته العلمية . وقد يستعين البابا احياناً بمستشارين في ما يكتبه . ولكنه يضع هو بذاته التصاميم ويصوغ العبارة . وغالباً ما تستنجد المكتبة الفاتيكانية اصحاب المكتبات في كل الاقطار ، ان يوافوها بما تقضي به حاجات اسنى



روّادها مقاماً ، واكثرهم على ارتيادها مداومة ، واشدهم في الطلب الحاحاً .

ولا يروق بيوس الثاني عشر ان يكتب الا بريشة معدنية صغيرة ، بما كان يستعمله الطلبة قبل الحرب العالمية الاولى ، ويصعب الآن الحصول عليه . لهذا يعتني بريشته بكل حرص . فبعد انتهائه من الكتابة بها ، يسمح الحبر عنها بخزقة صغيرة . وللبابا خط دقيق واضح . وهو بذاته ينسخ الاوراق ، بعد اصلاح النص بخطه ، بواسطة الآلة الكاتبة .

وللبابا ذاكرة خارقة ، من نوع الذاكرات التصويرية ، ( الفُتُغرافية ) . فحسبه ان يقرأ بامعان نصاً ما مرتين ليستظهره بدون صعوبة . وعندما يلقي خطبه ، يستعين بكل كلمة مزيدة على الهامش ، وبكل عبارة عارضة خطها قلمه المعدني ، وبكل ما يخرج عن مألوف ما ترسمه احرف الآلة الكاتبة ، كعلامات ترشد ذاكرته . وقد اسرّ يوماً الى احد المقربين اليه بقوله : عندما اخاطب جمهوراً غفيراً ، لا شيء يستطيع ان يلهيني او يشغلني : لا الضجة ولا الجلبة . فاني ارى بعين الذاكرة كل صفحة من صفحات خطابي . فالخطاب مرسوم كصورة شمسية في داخلي ؛ فليس لي الا ان اقرأه .

ويعتبر البابا من مقتضيات واجبه الاولى ان يستقبل جميع

الذين يلتزمون مواجتهه ، وان يُدلي برأيه كرئيس الكنيسة في جميع المواضيع ، حتى ما كان منها دنيوياً محتجاً . ولما وطّد رجال بطانته العزم على نشر خطبه في مجلدات على حدة ، لم يفته ان يسأل سامعيه عن الاخطاء التقنية التي تكون قد وقعت فيها ، قبل ان يُوسل النص النهائي الى الطبع .

ان بيوس الثاني عشر من الخطباء المكثرين . فقد يصدف ان يلقي في يوم واحد اكثر من خطاب ، وفي احدى اللغات السبع التي يتقنها . فسواء خاطب اطباء الاسنان او القابلات ، وعلماء الفلك او غواة راكبي الدراجات ، فانه يتجاوز النصائح العامة الى التصريح بمخاضات مهن سامعيه وتعداد فوائدها . فيعبر عما يبدو له في مواضيع جد متنوعة : الرياضة ومنافعها وخطارها ، العناية بالاطفال الصغار ، وتحديد النسل ، وعدة تفاصيل من الحياة الزوجية ، وآخر ما وصل اليه العلم عن النور او عن طب الاسنان ، وشركات التأمين ، والوجودية ، والصحافة ، والتلفزة ، والسياحة ، والمداواة بالانسجة الحية ، وامراض المعدة ، والطيوان المدني ... وما كان الباباوات يقومون بمثل هذا النشاط ، الذي يديه بيوس الثاني عشر في درس شؤون الساعة ، حتى القضايا الفكرية الرائجة . ولكنهم كانوا يحددون موقفهم دائماً وبصورة رسمية من المعضلات العظمى التي كانت تشغل البشرية

في ايامهم . وعلى امتناعهم عن التدخل في الامور الزمنية الصّرف ، فكانوا لا يألون جهداً في المطالبة بحقهم في اسداء النصح الى المؤمنين وفي توجيههم في كل ما يلامس العقيدة او الآداب ؛ وهذا يعني عملياً كل مناهي الحياة .

وخلا ما ذكرنا عن تحديد العقائد الایمانية ، وذلك امر نادرٌ جداً ، فللاجبار الاعظمين طرق اخرى لاعلان تعاليم الكنيسة . منها ما يدعى بـ « الرسائل العامة » Encycliques ، وهي من الاهمية بعد التحديدات المذكورة ، وبها يخاطب البابا جميع المؤمنين باللغة اللاتينية ، ما عدا ظروفاً خاصة يؤثر ان يتخذ فيها لغة الشعب الذي يوجه اليه الرسالة . من ذلك ان بيوس الحادي عشر كتب بالالمانية رسالته في رذل المذهب النازي . ومنها البراءات Brefs , Bulles ، وهي رسائل لا تعنى بالامور العامة كالسابقة . ومنها الخطب الموجّهة ، كما يقال ، الى « رومية والعالم اجمع » : Urbi et Orbi . ومنها ما يلقونه ، وفقاً للتقاليد ، في مناسبة استقبالهم جماهير الزوار الذين يحجون الى رومية من كل الآفاق والاقطار .

كثيرون هم المؤمنون ، والكثوليكيون منهم ، الذين يستغربون بعض مواقف رئيس الكنيسة ، وقد يقفون في العثار بسببها . سبقنا فاشرنا الى ان البابا ، في مثل هذه المواقف ، ليس

معصوماً من الغلط . فالكثوليكي الذي لا تروقه بعض آراء وافكار يبيدها البابا في خطبه او رسائله ، لا يسقط بسبب ذلك في الهرطقة . وقد يحدث ان احدى المحاكم الرومانية تخطئ البابا ( فقد روى الاب جوليان ، رئيس محكمة الروما ، [ وقد اصبح كرديناً سنة ١٩٥٨ ] ، ان هذه المحكمة اصدرت حكماً بتاريخ ١٥ اذار سنة ١٩٠٩ ، به تثبت ان قراراً شفويّاً ، اتخذته البابا بيوس العاشر ، لافاعلية له البتة ضد حق مكتسب لم يأت المستغيث على ذكره ) .

من المباح لكل مومن ان يجادل وينازع في بعض توكيدات صادرة عن البابا ، وبالاخرى عن الاساقفة [ والبطاركة ] ، في شؤون سياسية ، واجتماعية ، واقتصادية ، وعلمية او فنية ، لانه باستثناء التحديدات الایمانية باسم الكنيسة ، تقع اعمال الباباوات واقوالهم في نطاق الحياة العادية . فلا يمكننا ان نقدرها حق قدرها الا وفقاً للظروف التاريخية . فضير المؤمن غير ملزم باعتناقها . فالباباوات انفسهم ، في الامور الواقعة في حيز النسيات ، غير معصومين من الغلط ؛ بل « يحق لهم ان يغلطوا » .

#### ٤ - سلطة البابا الادارية .

... ولكن علينا توضيح معنى هذه العبارة : « غير ملزم باعتناقها » ، لان بين اعتناقنا العقائد الایمانية التي



يحددها البابا معصوماً فيها من الغلط ، وموقفنا من بعض آراء وافكار ييديها في المظاهر الاخرى من نشاطه ، فرقاً يحتم علينا تمييز الواحد من الآخر . فالعقائد هي العناصر الاساسية في تعليم الكنيسة ، وبها تتعلق الآداب العملية . فان هذه الآداب لا قوام لها بذاتها ، ولكنها تنتج ، بطريقة منطقية ، عن الحقائق الالمانية التي تفرضها على اعمال البشر الذين يعرفون بهذه الحقائق .

فالبابا ، بالنسبة الى الكاثوليكين ، ليس حافظ العقيدة المعصوم من الغلط فحسب ، بل هو كذلك رئيس الكنيسة وصاحب السلطة الادارية . فهو ينعم ، كنائب المسيح ، بسلطة مطلقة ومباشرة . وكل السلطات المتطورة في الكنيسة متأصلة فيه ومتسلسلة منه . فيستطيع دائماً ان ينحّي اصحابها ويحل محلهم ويحكم بدلهم بلحقه . انه الاول بين الرسل . وقد خوّل سلطان التشريع الاعلى .

فعلى المؤمنين جميعاً ، علمانيين واكليزيكيين ، ان يقرّوا بسلطة البابا هذه بدرجاتها متفاوتة . فالذين يرفضون الطاعة له هم « المنشقون » المنفصلون عن الكنيسة الخارجون عليها . وذبهم ، في نظر الكنيسة ، اخفّ جداً من اثم الهراطقة . فهؤلاء انما ينكرون الاسس التي تقوم عليها الكنيسة ، وهي حرمة عقيدتها التي لا يجب ان تمس .

وعليه ، فالبروتستانتيون ، الذين طعنوا المعتقد الكاثوليكي

في الصميم ، هم « هراطقة » ؛ بينما « الارثوذكسيون » من اليونان والروس وما اليهم ، هم منشقون ( او كانوا على الاقل ، عند انفصالهم عنها ، منشقين ) ، لانهم ، بالرغم من رفض الطاعة للحبر الاعظم ، حفظوا الايمان المستقيم وابقوا على الاسرار المقدسة وظلوا يقبلونها .

وهاكم مثلاً معيناً : اذا عصى كاهن لاتيني امراً صادراً عن البابا او خرق شريعة التبتل ، او تصلب برأيه في شؤون سياسية او اجتماعية ، بالرغم من نهي جازم صادر عن رومية ، فانه يصبح هرطوقياً . ولكن مهما اثارت هذه القضية من ضجة او بلغت من فضيحة ، فانها تبقى ، في نظر الكنيسة ، اخفّ جداً من قضية معلم عادي مجهول ، في احدى المدارس الاكليروسية النائية ، يعبت بتعاليم الكنيسة ويطعن عليها .

ان سلطة البابا الادارية ، بالنسبة الى العلمانيين ، تقوم بجوهرها بتفسير العقيدة بكل كلمة تخرج من فمه . فبعض الباباوات ، مثل بيوس الثاني عشر ، قد اتخذوا ، وفقاً لمزاجهم ، مواقف جريئة ، بدون توانٍ ، من جميع المعضلات التي تصطدم بها البشرية . والبعض الآخر ، مثل بيوس العاشر ، خرجوا نادراً جداً عن الصعيد الروحي . وهذه المواقف الحبرية تتفاوت وتزيد اهميتها بتفاوت توجيهها الى العالم اجمع او الى فئات معينة . فكلمات وجيزة يلقيها البابا

على فرقة من الكشاف البلجيكي ، لا يحتم علينا القبول بها كرسالة عامة ، كما لا يخفى . فهذه تبسط نقطة من التعليم المسيحي بصورة جد حافلة ، فلا يمكن كاثوليكياً - علمانياً كان او اكليرسياً - ان يرفضها بسهولة ، بدون ان يتعرض لخطر الوقوع في عداد « المنشقين » .

على ان هذا لا يعني ان عليه ان يعتنق هذا التعليم بضميره ، وان يعتبره جزءاً اجبارياً من قانون الايمان . فيمكنه ان لا يقبل به الا من حيث ارتباطه بسلطة رئيس الكنيسة الادارية . ان الرسائل العامة تستوحى عامة من العضلات اليومية . فمن الطبيعي ان تشيخ مع هذه العضلات . من ذلك ان لاون الثالث عشر ، سنة ١٨٩٣ ، نشر رسالة عامة ورثانة ، جعلته في الطليعة والمقدمة من المنادين بالتجديد الاجتماعي ، فاثارت آتئذ العثار في صفوف المسيحيين المحافظين المستقيمي الرأي . ولكن الحياة ، منذ ذاك الوقت ، تقدمت والاحوال تبدلت . فصدورت رسائل عامة اخرى تبسطت في مواضع العضلات نفسها ، واوضحت حالياً فكرة الكنيسة فيها .

وهاكم مثلاً آخر : ان بيوس الثاني عشر عبّر ، بخطاب شهير ، عن فكرته في شأن تحديد النسل ، فظهر كل حذر وفطنة ودقة عميقة ، لان تعليم الكنيسة في شأن هذه القضية الادبية العلمية ، لا يزال في دور التوضيح والتطوير .

على ان البابا يستعين ، في مهمته هذه القائمة بنصب معالم الفكرة الكاثوليكية ، بدائرة خاصة ، على عاتقها صون العقيدة والآداب ، تدعى المجمع المقدس او السنتشيس Saint Office . وعن هذا المجمع تصدر قرارات توضح بصورة حافلة تعليم الكنيسة او تزدل وتحرم بعض مذاهب ونظريات . فعلى العلمانيين الرضوخ لهذه المقررات بمقتضى ارتباطهم بالسلطة الكنسية . ولكنهم يمكنهم ان يخضعوها لحكمة ضميرهم ، ويجوز لهم انتقاد صوابها . اما الكلمة الاخيرة في تفسير المعتقد ، فتعود الى السلطات الكنسية بدرجاتها والى البابا .



حتى بعد الموت ، عضو الكنيسة ، لا الكنيسة « المجاهدة »  
على هذه الارض ، بل الكنيسة « المتألّمة » في المطهر ،  
و « المنتصرة » في الفردوس . ولهذا الجسم السري ، بجميع  
اعضائه من احياء واموات ، رأس واحد هو يسوع  
المسيح ، مؤسس الكنيسة .

ان الكنيسة المجاهدة جماعة منظورة يسوسها البابا ، نائب  
المسيح على الارض ؛ فزمام الامور برومتها في يد رومية .  
الكاهن مسؤول تجاه اسقفه ، والاسقف تجاه الحبر الاعظم .  
واما الرهبان والراهبات من اية جمعية كانوا ، فانهم  
مرتبطون برومية بطريقة مختلفة ، ولكن حقيقية ؛ وبعضهم  
مستثنون من سلطة الاساقفة ، وليس رؤسائهم مسؤولين  
الاتجاه البابا مباشرة . اما في بلدان الرسالات ، وحيث يكثر  
الاضطهاد الديني ، فنظام السلطة الكنسية يختلف عما ذكرنا .  
فالؤمنون هناك يتعلقون بجميع « نشر الايمان » Propagande ،  
او « مجمع الكنيسة الشرقية » ( المنوط به على الاخص امر  
معظم الكاثوليكين فيما وراء الستار الحديدي ) .

على ان التدابير المتأخرة ، التي اتخذتها السلطة الرومانية ،  
تحتم بان يكون هيكل الابوشية ، اقله في الغرب ، صورة  
مضغرة عن الدواوين الكاثوليكية . وهذا يولي الكنيسة جمعاء  
التاماً بحكم الاجزاء من جهة ، وبحقق المركزية التي تبذل  
الجهود في سبيلها من زمن ليس بالقريب من جهة اخرى .

## الفصل الرابع

### شركاء البابا في السلطة

#### ١ - مراتب السلطة الكنسية .

ان بين البابا واهل الكنيسة وثاقاً يشدّهم اليه اكثر  
من اهل العالم . فانهم مثل الجنود الخاضعين لنظام لا يقبل  
الجدل . وكيان هذا الجيش ، الذي لا ينخرط فيه  
سوى متطوعين ، بسيط جداً . فانه مؤلف من ثلاث  
درجات : الكهنة ، والاساقفة ( ومنهم المطارنة والبطاركة ) ،  
والبابا . وضمن هذا النطاق ، كل واحد من المؤمنين عضو  
طبيعي في وحدة ادارية اولى هي الرعية ؛ والرعية احدى  
الوحدات الاساسية التي تتألف منها الابوشية ؛ وهذه  
بدورها مرتبطة برومية

وهكذا تتخذ الكنيسة المؤمن على عاتقها ، من المهد  
الى اللحد . فالكاهن يقبله في الكنيسة بايلائه سرّ المعمودية ،  
ويلقنه التعاليم المسيحية ، ويُسركه في الاسرار المقدسة ،  
ويؤاسيه ويشدده في امراضه ومحنه ، ويزوّده جسد المسيح  
عند ساعة موته ، ويبارك قبره . على ان المؤمن يظل ،

## ٢ - السلطة الكنسية والحوية .

وما ذكرناه ليس سوى رُبط تشد الافراد الى الكنيسة الكاثوليكية بوصفها جماعة منظورة . على ان الكنيسة ، فوق ذلك ، جماعة ، هيئة ، اوسع واعمق ، روحية صرف . وهذا ما تعنيه عبارة « نفس الكنيسة » ( انظر الفصل الاخير من الكتاب ) . وهذه الجماعة السامية ، لا سبيل الى ولوجها إلا بالانتاء الشخصي وبالعزم الاختياري . فالنظام الكنسي المفروض على كل مؤمن لا ينفي الحرية الشخصية ، بل يقويها . فالمبدأ الادبي الاساسي في تعليم الكنيسة هو انه على كل فرد ان يعمل دائماً وفقاً لضيمه وعمله حريته . والسلطة الكنسية لا قيمة لها إلا اذا اقترن الخضوع لها بالحرية . فمن جملة العقائد الكاثوليكية ان الانسان يتمتع بحرية جوهرية ، ليس تجاه سائر البشر فصعب ، بل تجاه الله نفسه . وبهذا يقوم الفرق بين الكتلركة والبروتستانتية اللوترية ، مثلاً ، التي تعلم بان للنعمة الالهية القدرة والغلبة على الحرية . قد يحدث في الحياة اليومية ان بعض الكهنة ، ولاسيما المنصرفون الى تربية النشء ، لا يتدأوا كون خطر الوقوع في فرض سلطتهم الروحية . فانقياد نفس طريئة او ضعيفة « لمرشد » او لقاضٍ روحي ، امر دقيق جداً ، يجب تعاطيه بكثير من الحذر والدراية ، وبنفس مروضة على الانضباط الداخلي الصارم ، لتستطيع ان تقود بدون ضلال

ولا تعسف . فاذا فقد ذلك ، خشي « وسم » حياة ، على طول مداها ، بتربية دينية مفروضة ، عبثت بتلك الحياة وشوَّهتها . وفي هذه الحال وامثالها ، اذا رفع احد الامر الى الجبر الاعظم ، بوصفه القاضي الاعلى ، كان البابا نصيره ؛ فانه المحامي عن حرية النفس البشرية ، هذه الحرية الجوهرية التي تتغلب على كل عسفٍ من اية جهة اتى ، حتى السلطات الكنسية العليا ؛ فشرعية الضير ، في عرف اللاهوت الكاثوليكي ، هي الاعلى والاسمى .

نجد مثلاً من ذلك في الزواج والكهنوت .

تدافع الكنيسة بكل ضراوة عن وثاق الزواج ، من حيث انه عقد لا يُفك ولا يُفسخ . ولكن اذا ثبت ، لدى محكمة الروتا ، او محاكم اخرى قانونية ، ان احد الزوجين لم يكن يتمتع بالحرية التامة عندما ارتبط بسر الزواج ، بل أوقع عليه قسر وضغط فحُرم تقرير عزمه بنفسه ، فرومية لا تتردد في اعلان زواجه باطلاً غير شرعي . كذلك اذا استطاع كاهن ان يبرهن على انه ضغط عليه لقبول درجة الكهنوت ، بدون ان يكون الله قد دعاه اليها ، فيمكنه استعادة حريته . على انه لا يبرح كاهناً ، لانه قبل بصورة قانونية سراً لا يمحي وسمه<sup>١</sup> . ولكن يرخص

١ اذا ثبت انه تقدم الى قبول درجة الكهنوت مكرهاً بدون



له في ان يعود الى حالة اهل العالم ، ويعقد زواجاً ، اذا شاء ، بدون ان يصبح بسبب ذلك مفصولاً عن الكنيسة .

### ٣ - السلطة الاسقفية .

كنت ممسكاً بكلتا يديّ بمؤخرة هذه القطر الكهربائية المكتظة بالركاب والمجدة في السير عبر شوارع رومية . وكان الى جانبي اكليريكي طاعن في السن ، يترجع كلما وصل القطار الى احد المنعطقات الكثيرة في الاسواق الضيقة ، حيث يزدحم معاً الاولاد والكلاب وعجلات باعة البقول والخار . فحضر الجاني يطلب بدل تذكرة الركوب ، فاصبغنا كلانا في حالة اشد ارتباكاً وخطراً . فاستطاع الكاهن المسن ، بكل جهد ، نزع قفازه الاسود المقروض بالعث ، فلمع في اصبعه خاتمه يزينه حجر كريم . فاذا صاحبي اسقف يسارع الى القاتيكان لمقابلة البابا . وكنت اظنه خادماً رعية قروية .

ولم يكن رفيقي الاسقف الوحيد في القطار . وقد شاهدت ، ونحن سائرون ، اسقفين آخرين على سحاط في مطعم « الفريدو » ، ملك المعكرونة . وفي مطار « شمبينو » قرب

ارادته ، فانه لم يقبل سر الكهنوت ، ولا بالاحرى وسه ؛ فالرسامة اذا باطلة . - المترجم .

رومية ، لحث مراراً اكثر من اسقف بلباس كنسي مدني معاً Clergyman ، وخاتمه يشع في شمس الريف الروماني .

ان رومية تعج بالاساقفة ؛ إلا انهم يفقدون في المدينة الخالدة مسحة الطلاوة والجلال التي يتحلون بها في عواصم ابرشياتهم . وقد ألف الرومانيون رؤيتهم بل ملثوها ، وهم لا يستنكفون عن ان يزحمهم ويدفعوهم بالاكثاف والاجناب . ويحمل الاساقفة ضيوفاً في الغالب ، بسبب ضالة ثروتهم ، على اصدقاء او معارف من الرهبان في الاديرة ضمن المدينة او في ضواحيها ، او في احدى المدارس . واما القادمون من بلدان غنية ، فيجعلون مسكنهم في نزل مينوقا الذي يخصه التقليد بالاكليريكين ، ويختار الكردينال اسلمن ، رئيس اساقفة نيويورك ، النزل الكبير ( جراند اوتيل ) ، وهو من رواده الاوفياء ، وفيه يعقد مؤتمراته الصحفية .

ولكن مها كان الاساقفة فقراء ووضعاء ، احياناً ، فانهم « اخوة البابا » وعلى خطّ مستقيم خلفاء الرسل ، مؤسسي الكنيسة الاول . نعم ان البابا ، الجالس على كرسي رومية المدينة الخالدة ، خليفة مار بطرس ، يقبض بيده على ازمة ملء السلطة الكنسية ، غير أن الاساقفة ، من اوجه شتى ، هم اقرانه وانداده ، وسلطتهم في ابرشياتهم ، من بعض مناحيها ، مطلقة . قال الاسقف جرّي Guerry : « باستثناء الولاية التامة والعليا ، التي يمارسها الجبر الاعظم

في جانب الكنيسة جمعا ، فالكنيسة الخاصة ، اي الابوشية ، تتمتع ، بواسطة اسقفها وفيه ، بسر المسيح كاملاً وبجميع المواهب والخيور الروحية التي تتمتع بها الكنيسة الجامعة . وقد اقتضى تنظيم السلطة الكنسية نحو الفي سنة . ومع هذا ، لا تزال قضية علاقات الاساقفة بالبابا ، وهي جدّ دقيقة ، غير مبتوتة في الواقع نهائياً حتى الآن . لا مجال للشك في ما خصّ التحديدات المعصومة من الغلط ، فانها من حق البابا وحده . ولكن السلطين ، في ما يعود الى الادارة ، تسيرون جنباً الى جنب بكل دراية ، وقد تشبّك الواحدة بالآخرى في بعض الميادين .

ولسائل : لماذا تعمل الحكومات الشيوعية بضراوة على مقاومة الاساقفة ؟ فالجواب : ان بقاء الكنيسة غير مستطاع الا على ايدي الاساقفة . فقوة الكتلكة كامنّة بنوع خاص في « التسلسل الرسولي » . فالاسقف الفرنسي ، السيد دوبّون ، والاسقف الصيني السيد وُو بّاك شيو ، كلاهما ، على حدّ سواء وعلى خط مستقيم ، من خلفاء الرسل . وهذا « التسلسل » ، في عرف الكنيسة ، لم يقطع ولم يبطل قط ، بل دام ويدوم بدون انقطاع . فالصيادون الجليليون ، تلاميذ يسوع ، عينوا خلفاءهم بوضع ايديهم عليهم . وقد انتقلت هذه الحركة الطقسية من جيل الى جيل ، فافضت الى الاساقفة الحاليين الذين تعود اليهم

رسامة الكهنة . فلا كهنة بدون اساقفة ، ولا كنيسة بدون اساقفة . ولهذا تلجأ حكومات ما وراء الستار الحديدي الى كل الوسائل لفصل بعض الاساقفة عن كرسي رومية ، فيتسنى لها عندئذٍ رسامة كهنة بصورة شرعية صحيحة في نظر رومية نفسها كما في نظر المؤمنين . غير انهم لقليلون جداً الاساقفة الذين يجحدون اهمم الكنيسة . فرومية قلما اخطأت المرمى في انتقاء رؤساء الابشيات . فحبطت مساعي الحكومات الشيوعية ، في كل مكان على التقريب ، لاحداث كنائس كاثوليكية منشقة .

#### ٤- وزارة الداخلية .

كيف يستطيع البابا ، من مركز رئاسته العليا وقيادته العامة في الكاثيكان ، ضمان اتصاله بالاساقفة ، وممارسته مراقبتهم عند الاقتضاء ؟ انه يقوم بذلك بواسطة مجمع خاص ، هو كناية عن وزارة الداخلية في الكنيسة ، يدعى المجمع اي مجمع الاساقفة Consistoriale ، ومهمته السهر المتواصل على سير الاحوال في الابشيات القائمة في البلدان الغربية ( ويعود ذلك في الشرق الى مجمع الكنيسة الشرقية ) .

وبتمّ هذا المجمع مهمته على وجهين : فالاساقفة يرفعون اليه ، كل خمس سنوات ، تقريراً اضافياً ، به يبيّون عن



اسئلة معينة ؛ ويحضرون الى رومية ليقوموا بما يسمى زيارة « الاعتاب الرسولية » . ولا يعفون من هذه الزيارة للبابا ولوزير داخلته الا بأذن خاص لا يُعطونه الا بصورة استثنائية . وأمّا التقارير فترفع وفقاً لنهج مواعيد معين وثابت ، بالتناوب على هذا الشكل بين اساقفة العالم اجمع . السنة الاولى : ايطاليا ، كورسيكا ، سردينيا ، صقلية ، مالطة ؛ السنة الثانية : اسبانيا ، البرتغال ، فرنسا ، بلجيكا ، هولندا ، انكلترا ، اسكتلندا ، ايرلندا ؛ السنة الثالثة : سائر البلدان الاوروبية ؛ السنة الرابعة : اميركا الشمالية والجنوبية ؛ السنة الخامسة : افريقيا ، آسيا ، استراليا .

وتشتمل الاسئلة على شؤون عمومية : اسم الاسقف ، وعمره ، وموطنه الاصلي ، وعنوانه وتاريخ تثقيفه ؛ مختصر تاريخ الابرشية ، ومساحتها ، ومناخها ، ولغتها ، وعدد سكانها وعدد الكاثوليكين فيها ، وعدد اتباع الشيع المنشقة عنها ، الخ ...

وعلى شؤون زمنية : الشريعة المدنية في شأن الارزاق الكنسية ؛ - موارد معيشة الاكليس ؛ - مجلس ادارة الابرشية : من هم اعضاؤه وهل يستنير الاسقف بآرائهم ؛ - هل يعمل بالقوانين الكنسية فيما يعود الى ضبط الدخل والصرف ؛ - التقادم والصواني وحسنات القداديس ؛ -

بيات بالاموال المنقولة والثابتة لكل من الاشخاص المعنويين ؛ - الوسائل للحصول دون ضياعها او نقصانها ، عند تغيير خوري الرعية او اي وكيل آخر .

وعلى شؤون دينية وكنسية : ضلالات وخرافات منتشرة في الابرشية ، حتى بين الاكليس ؛ - حرية العبادة وموقف السلطة المدنية والعناصر المناوئة للاكليس منها ؛ - الاسقف وموارد معيشته من الدولة او من بنايات الوقف ، وهل هي كافية ؛ - الديون وكيفية ايفائها ؛ - حالة الكرسي الاسقفي والاشخاص الساكنين فيه بالتفصيل ؛ - اقامة الاسقف في الابرشية ؛ - الوعظ ، الرسالة الرعوية ، القيام بحفلات جبرية ، زيارة الابرشية ، ايلاء سرّ التثبيت ؛ - ما هي علاقاته بالسلطات المدنية ؛ - الديوان الاسقفي ومكاتبه ومراكزه وموارده المالية ؛ - لائحة كاملة بالموظفين ؛ - النائب العام وصفاته واعماله ؛ - المدرسة الاكليوسية وحالتها العلمية والادبية ؛ - الطلبة وتهذيبهم وفق الروح الاكليوسية والآداب الاجتماعية ؛ - عدد الكهنة المرسومين في اثناء السنوات الخمس الاخيرة ؛ - خوارنة الرعايا ؛ - الوكلاء الاسقفيون في المناطق ؛ - الكهنة القانونيون في الكندراتية ؛ - اصحاب المقامات .

وعلى شؤون الاكليس بالعموم : ضمانات معيشته ؛ - العناية بالشيوخ والمرضى ؛ - دار للمتقاعدين ؛ - سلوك

الاكليس ( بتفصيل بالغ ) ؛ - عدد الكهنة المرخص لهم الاهتمام بينوكة ، وتعاونيات ، ونقابات ، واعمال اجتماعية اخرى ؛ - موقف الكهنة من الكرسي الرسولي ومن الاسقف ؛ - الكهنة وتعاطي الصحافة والنتيجة من ذلك ؛ - التأديبات القانونية ونتيجتها .

وعلى شؤون الرهبان : هل يزور الاسقف الاديرة كل خمس سنوات ؛ - هل من رهبان او راهبات يعيشون خارج الاديرة ؛ - ما هي سمعتهم .

وعلى شؤون الشعب المؤمن : حالة الآداب والاخلاق بالعموم ؛ - الروح العائلية ؛ - الحياة الدينية عميقة ام سطحية ؛ - معبودية الاطفال بدون تأخير ؛ - تناول القربان كل يوم او بتواتر ؛ - نسبة الزواجات المدنية ، والمساكنة الحرة ، والدفنات المدنية ؛ - هل يهرب الناس من الدفنة الكنسية بسبب الرسوم المفروضة ؛ - الناشئة وتربيتها وتهذيبها في العائلة وفي المدرسة ؛ - التعليم المسيحي ؛ - عدد الجمعيات والاخويات وفائدها ؛ - الجمعيات السرية والمناوئة للكنيسة وللأكليس ؛ - واجب الكاثوليكين بالاشتراك في الحياة السياسية ، الخ ، الخ ...

وهكذا يستطيع البابا ، في كل وقت ، ان يعرف ادى التفاصيل عما يجري في جميع ابرشيات العالم الكاثوليكي . على ان هذه التعليمات ، التي تود على الكرسي الرسولي

من اقطار المعمور كافة ، قد نحتاج احياناً الى تحقيق وتثبيت ، فيأتي الى الابريشيات ، موفدين من رومية ، احباراً او كهنة ليقوموا بهذه المهمة ، فضلاً عن السفارات البابوية في البلدان التي تتبادل التمثيل السياسي مع القاتيكان . فلاسفراء مهمة تمثل الخبر الاعظم لدى الحكومات المدنية ، ولدى السلطات الكنسية المحلية ، واطلاع الكرسي الرسولي على حالة الكنائس الموكول امرها الى هذه السلطات . وحيث لا سفارات ، يقوم بهذه المهمة القصاص الرسوليون ، ما عدا سقّتها الاول .

ولا ننس ان عدداً وافراً من المسافرين يعرجون على القاتيكات ، وان الاب الاقدس يستقبل منهم العشرات بشخصه ، بعد ان تكون بطاقته قد مهدت لهذه المقابلات بالتقارير الصائبة . فيسألهم البابا ويستمع اليهم اكثر مما يحدثهم ، متذرعاً بهذه الوسيلة لاستكمال معلوماته ، وخاصة لجس نبض الرأي العام العالمي . وليس يحدثو البابا من الاكليسيين وحدهم ، فبينهم كثيرون من اقطاب اهل العالم ، ومن العاملين في حقل العمل الكاثوليكي ، ومن النواب ، ورجال الحكومات ، وحياناً من الخصوم .

#### ٥ - وزارة الرهبانيات .

وفي القاتيكان وزارة داخلية اخرى تُعنى بالرهبان



والراهبات الذين يشغلون قسماً كبيراً من ملاكات الكنيسة ، وهي ما يدعى « مجمع الرهبان » . ومهمته محاولة الحد من الاخطار التي قد تنجم عن نزعة الرهبانيات الى التفرّد في ادارة شؤونها ، بالاستقلال عن سلطة الاساقفة ، وهم غالبهم مستنون منها ، على نحو ما يعنى « مجمع الاساقفة » بالحد من استقلال الاساقفة في ادارة ابرشياتهم .

فعلى « مجمع الرهبان » ان يستزيد دوماً من استخبارات مفصلة عن سير جميع الرهبانيات للرجال والنساء . ولا يخلو الامر من صعوبة ليست باليسيرة ، لان الرهبان البندكتيين والدومنيكيين والفرنسيسكيين واليسوعيين والكرمليين وغيرهم من جماعات رهبانية تزداد عدداً يوماً عن يوم ، يتذرعون بتقاليدهم وانعاماتهم العريقة في القدم ، ويضرون على الاحتفاظ بها ، بما يشبه عصبية قومية او وطنية ، وعلى التشبث بما يندون به عن المعتاد المألوف في نظام سائر الاكليزيين . فمن البديهي ان لكل من الرهبانيات الكبيرة قانونها الخاص في ممارسة التقوى ، ومذهبها او طريقها في الزهد والنسك ، وفلسفتها . وعدا ذلك فتعين الرؤساء او انتخابهم ، واستقلالهم الذاتي في داخل اديرتهم ورهبانياتهم ، يتم وفقاً لانعامات يحرسون على استمرارها .

اما الانظمة الرهبانية فتختلف باختلاف الرهبانيات . فللبندكتيين اديرة عديدة ، مستقل واحداه عن الآخر ،

ولكنها تؤلف تحالفاً ما بينها ، وتتبع جميعها قانون القديس بندكتس مؤسسها . ويخضع الدومنيكيون لولاية رئيس عام يقيم في رومية ، ويقسمون اقاليم عديدة . واما اليسوعيون ، فالمركزية في جمعيتهم على اشدّها . فرئيسهم العام مركزه رومية ، يبسط منها على كل فرد منهم سلطة توازي سلطة رئيس مطلق السيادة . على ان الرهبان جميعاً ، على اختلاف قوانينهم وانظمتهم الادارية ، ييغون ان تبقى لهم حياتهم الخاصة ، ويحاولون ان يحموا استقلالهم بما قد يناله من السلطة الرومانية المركزية ، فهمة « مجمع الرهبان » انما تتوخى مقاومة هذه النزعة الرهبانية . وبمعونته يواصل الباباوات سياستهم المركزية ، ويودّون لو يلجون بوقابتهم حتى خلوة الاديرة . وعلى نحو ما يجريه مجمع الاساقفة في استجوابهم عن اسئلة جد مفصلة ، يحتم « مجمع الرهبان » على رؤساء الرهبانيات بالاجابة عن لائحة من اسئلة مماثلة .

اضف الى ذلك انه يطلب اليهم ان يوافوه برسائل « سرية » يودعونها تعليقات متنوعة استكمالاً لما لديه عن الرهبانية واعضاؤها ، كما يوجب عليهم ان يرفعوا اليه ، كل خمس سنوات ، على شاكلة الاساقفة الى مجمعهم ، تقريراً مسهباً في الموضوع عينه ، وفي حالة الاديرة المالية وعلاقتها بالاساقفة ، وفي الكهنة المعينين لاستماع اعتراف الرهبان او الراهبات

ولارشادهم الروحي .

وتشتمل لائحة الاسئلة الموجهة الى رئيسات الراهبات على ما يلي : « في حال خروج راهبة من الدير ، هل تعاد اليها دوطتها المالية وجهازها فيما اذا كانت قد جلبت معها جهازاً الى الدير ؟ واذا لم يكن لها دوطة ولا جهاز ، وكانت بدون موارد شخصية ، هل تدفع المحبة سلطات الدير الى ان تقدم اليها ما يوصلها الى عائلتها بدون خطر ، وما يضمن لها معاشها بلياقة ، اقله الى مدة من الوقت ؟ »  
ولا يفوت المجمع ان يسأل عما اذا كانت الرئيسة او الوكيله العامة تتصرف باموال سرية ، لا يرد ذكره  
لكيفية صرفها في سجلات الحساب .

### القسم الثاني

اعوان البابا الاقربون



## الفصل الاول

### البابا في دارته الخاصة

#### ١ - المساء بعد عشاء النهار .

الشيخ الواعي الدقيق ، حارس العقيدة ، المعصوم من الغلط ،  
والرئيس المطلق السيادة على نحو نصف مليار ( خمسية مليون )  
من المؤمنين ، لا وليّ عهد له ، ولا وزير دولة ، ولا نجيّ  
ولا سمير ، يعيش وحده في قصره الفسيح الاربعاء ووسط  
بلاطه الفخم ، منصرفاً الى الزهد والنسك .

كل مساء يأوي الجبر الاعظم ، وقد قضى نهاره الطويل في  
العمل ، الى دارته الخاصة في البلاط الرسولي . الدارة عصرية  
ومرتبة وفقاً لنسط يهيمن عليه الذوق الجرمانى الذي يروق  
بيوس الثانى عشر . جميع الغرف والردهات مدهونة بالزيت ،  
ولكل منها لون خاص به : للمبعد اخضر جلي ، ولغرفة النوم  
ابيض نقي . وتشتمل الدارة على حجر وغرف عديدة ولكنها  
صغيرة : غرفة النوم وما اليها ، والمائدة ، والمكتب ، ومخادع  
كثيرة اودعت فيها التقادم والهدايا التى ترد على  
الاب الاقدس من جميع الاقطار الكاثوليكية . وهناك

قاعة لآلات الراديو ، لا يلجأ اليها البابا الا ليصغي الى قطع الموسيقى المفضلة لديه من وضع شوبان او مندلسن ، او ليستمع الى جرائد الاخبار التي تذيعها محطات الراديو العالمية .

وللدارة سلّم داخلي يصلها بالطابق الذي تحتها ، حيث يقيم الابوان اليسوعيان ليبر وهندريك ، وكلاهما الماني . وفي احد طرفيها المطبخ الغازي ، ومائدة صغيرة ، ومنام للراهبات بسكوالينا ورفيقاتها الثلاث اللواتي يُعينن بتدبير الدارة وخدمتها .

البابا وحده ، بعد ان تناول طعام العشاء : قليلاً من لحم وبعض بقول ونقطة خمر وفنجاناً من مغلي الزهور . فيكب على مطالعة جريدة الكرسي الرسولي « الأسرافاتوري رومانو » ، ويُعلم بقلم رصاص ما يلفت نظره فيها ، بحيث تصبح صفحاتها الست مخططة ، مخربشة ، والبابا يقرأها بومتها في التفاصيل الدقيقة : من بيانات المقابلات الجبرية حتى اخبار الوفيات .

وفجأة يتناول البابا ساعد الهاتف ( والآلة بيضاء مذهبة اهدتها الى سلفه شركة اميركية للهاتف ) ، فينادي البروفسور لولتي Lolli ، وهو رجل جسيم هاش باش ، على شيء من المرح والسخرية ، يشغل وظيفة « المحرر الجبري » المسؤول بالدرجة الاولى عن كل ما يرد في الاسرافاتوري عن الجبر

الاعظم . فمرة ، حدث ان سقطت علامة وقف فاصلة من مكانها ، او اهملت في الطبع ، من خطاب القاه على هواة لدراجات ، فاضطرب معنى الجملة ، فنال البابا من ذلك صدمة عنيفة ، على ما قيل . ولهذا فكل مرة تنشر الجريدة خطاباً جبرياً - « كما استطعنا ان نتلقفه من على شفتي قداسته المبعجلتين » ، وفقاً لتعبير الجريدة التقليدي - يحتم بيوس الثاني عشر بان ترفع اليه مسودته ، ليصلحها ويبيّضها بيده . ان هذا التدقيق ، فيها يلامس العلامة الفاصلة واتقاف الانشاء ، مُنشئة يعرفها في بيوس الثاني عشر ، وكان اذ ذاك الكردينال باتشلي ، معاونوه ، ويحشونها . فلطالما كان ، وهو وزير الدولة ، يوجب عليهم ، مرتين ، وثلاثاً ، وستاً ، اعادة النظر في نص رسالة او برقية ، ومراجعة نسخها على الآلة الكاتبة . ان البابا يمقت الارتجال والمباغلة . فمرة كان يستقبل الكرادلة استقبالاً حافلاً ، فحسن لديهم ان يكلفوا احدهم القاء كلمة بين يدي قداسته ، تعبّر عن احترامهم اياه وخضوعهم له ، آمليين ان يطيب بها نفساً . فما كان منه ، وقد فاجأوه على هذا النحو ، إلا ان لزم الصمت فلم يُجب بشيء ، وعندما حان وقت الانصراف من الحفلة ، ابدى استياءه بما كان . ويقطع البابا مطالعة الجريدة اذ يدخل حاجبه الخاص ، الكومندتوري استيفانوري Stefanori ، فيعرض له عن وصول زائر ، لا ذكر لاسمه على جداول الاستقبالات الجبرية ،



وهو من الاشخاص القلائل جداً الذين ينعمون بزيارة الاب  
الاقديس بدون ان يستدعيهم اليه بصورة خاصة ، ذلك هو  
الكونت جاليا تزي Galeazzi ، المهندس والحير الضليع في القضايا  
المالية ، واخو طبيب البابا الخاص ، والسكرتير العام للجنة التي  
تسوس حاضرة الفاتيكان ، وهو الذي يعود اليه تسيير  
الاشغال العامة في الدولة الصغيرة .

وفوق ذلك ، فالكونت ، وقد انعمت عليه بهذا اللقب  
الحكومة الايطالية ، تلبيةً لرغبة الكرسي الرسولي ، محدثٌ  
ذليق اللسان ، مواضيعه متنوعة تدعو الى الانس واللهم  
والمرح . وقد اكثر من الاسفار وخاصة الى اميركا الشمالية ،  
فاصبح على معرفة عميقة ودقيقة بشؤونها . ولما كان من رواد  
الفاتيكان ، فقد التقى فيه سابقاً موظفاً شاباً في وزارة  
الدولة ، فربطته به صداقة حميمة ، هو الآن الكردينال  
اسبلمن . فرافق السعد كليهما معاً فارتقعا عالياً . ويدور  
الحديث بين البابا والكونت على مشاكل حاضرة الفاتيكان ،  
ثم يلم باهم قضايا الساعة ، ويشرد قليلاً الى السفارات وما  
يشاع عنها في رومية ، والى الوزارة وما يعترض بقاءها في  
الحكم من صعوبات ، ويلج الى الحياة الاجتماعية ، وهموم  
بعض الكرادلة ، ويعرض بامل احد الاساقفة .

واذا بالراهبة الرئيسة بسكوالينا تلج الغرفة بقدم خفيفة ،  
فتوسل الى الاب الاقدس نظرة سريعة ، كأنها استقصاء

يوازي سؤلاً ، نظرة تجيدها النساء تجاه اشخاص ضعفاء ،  
موكولة اليهن العناية بهم ، وتقطع الحديث ، متجهة نحو الكونت  
بلحظة باسمه وكلمة ناعمة : « ألا ترى ان التعب بادٍ على  
الاب الاقدس ؟ »

ليس على الاطلاق في استطاعة شخص آخر ، غير هذه  
الراهبة ، ان يستبج لنفسه مثل هذه الدالة . فانها وحدها  
مستثناة من مراعاة الاصول الرسمية الصارمة في آداب المعاطاة  
المفروضة في البلاط الرسولي . ذلك ان هذه الراهبة الباقارية  
بدأت تخدم البابا ، منذ ما يقرب من ثلاثين سنة ، وقت  
كان المنسيور باتشليسي سفيراً في المانيا . ومنذئذ لم تنقطع  
عن السهر عليه ، فلحقت به الى الوزارة البابوية ، ثم الى  
دارته الخيرية الخاصة . وهي ، والحق يقال ، امرأة قوية وتقية  
معاً ، وذكية فطنة ، تأنف الظهور ، وتعمل بدون ضجيج .  
وليس من يعرف البابا افضل منها ، فتفطن الى ابسط حاجاته  
واقبلها مثناً : الى اي حد ، مثلاً ، يمكنه ان يواصل العمل ،  
ومتى ينبغي له ان ينقطع عن الصوم . وتعهده بهذا المزيج  
من التفاني Gemutlichkeit الجرمانى ، فتضفي على الدارة الخيرية  
هذا القليل من الحياة العائلية الحمية التي بدونها لا يستطيع  
احد ان يعيش في هذا البلاط المرمرى المتراعى الاطراف .

## ٢- زوار البابا المقيمون.

ان زوار البابا في الدائرة التي تسيطر عليها الرئيسة بسكوالينا انما هم قلائل جداً : الامير كركلو باتشلي ، ابن شقيقه ، حاكم حاضرة القاتيكان ؛ والراهبان اليسوعيان ليبر وهندريك ، كاتباً سره اللذان يعاونانه في اعداد بعض خطبه ويلازمانه كل يوم . وقد غالى البعض في قدر الدور الذي يقومان به في البطانة الحربية ، ولكن من الراهن انها يشغلان وظيفة جد دقيقة ؛ فهما من جهة صلة هامة وقيمة بين الجماعة اليسوعية ورأس الكنيسة الاعلى ، ومن جهة اخرى سلك تصل به الى الخبر الاعظم معلومات كثيرة عن الحالة الدينية والسياسية في موطنها المانيا .

أضف الى هؤلاء الذين يعبرون عتبة دارة البابا الخاصة ، السنيور جدّه Gedda ، رئيس جمعية العمل الكاثوليكي في ايطاليا ، والكردينال اسلمن الذي ينعم بمقابلة الخبر الاعظم بعد المساء ، واخيراً الاب بيا Bea اليسوعي الذي يعترف بيوس الثاني عشر بخطايه الى الله على يده في منبر سر التوبة . فهذا يحضر في اوقات معينة ، فيصبح رأس الكنيسة امامه ، مدة بضع دقائق ، قائماً وضعاً شأن جميع المؤمنين اذ يجثون على ركبهم امام الكاهن الذي يقوم ، باسم الله ، بوظيفة القاضي .

## ٣- في كستلجندلفو Castelgandolfo .

ان هذه الطريقة المتسمة بالقناعة والبساطة التي يسلكها بيوس الثاني عشر في حياته الخاصة ضمن القاتيكان ، تزداد بساطة في قصر كستلجندلفو ، مصيفه القائم على احدى الروابي غير البعيدة عن رومية . فييوس الحادي عشر كان ينتقل اليه برجال بطانته كافة ؛ اما البابا الحالي فيكتفي من رجال الحرس السويسري بنفر قليل يرافقونه اليه مدة وجوده فيه ، ومن بطانته بالحاجب السري ليقوم بخدمته ابان استقبال الزائرين من الافراد والجماعات ، فيحضر من رومية صباحاً ويعود اليها بعد الظهر . فلا يبقى آتئذ في القصر الصيفي الفسيح ، ما عدا الراهبات ، الا مستخدمان اثنان : احدهما سائق السيارة وخادم المائدة ، والآخر من خدام القاتيكان للقيام بسائر الاعمال . إلا انها ينصرفان كلاهما عند هبوط الليل . فتصوّر انك جرأت يوماً فاستطعت المرور بين الحراس السويسريين ، فوصلت الى دارة البابا الشخصية ، فطرفت الباب بقرع جرسه ، فحينئذ يأتي الخبر الاعظم بذاته يفتحه لك . هذه هي الدنيا الضيقة التي يقضي فيها الخبر الاعظم بضع ساعات هنيئة . وعلى بعد منها ، خارج هذه الدائرة التي لا يتعداها احد ، يقيم ويعمل اقرب معاونيه اليه : المنسيور ترديني والمنسيور منتيني . وابعد فابعد الكرادلة والدواوين ، وعائلة البابا آل باتشلي .



لا مقاهٍ ، لا مطاعم ، لا تخشية لبيع الجرائد . والقوانين تحرم كل عمل تجاري . على ان هناك حانة ، تدعى حانة موهيف ( سكرمتيا ) مار بطرس ، يرتادها الكهنة قانونيو الكنيسة الباسيلية القاتيكانية ورجال الدرك ؛ وتقفل عند الظهر . ولكن العطشى لا يجرمون ، بعد ذلك ، مورداً اخيراً يروون منه عطشهم ، هو تعاونية الحرس السويسري الاعاشية . ولكن على قارعي بابها ان يولوا القائمين عليها ثقة تامة مضاعفة .

## ٢ - المنسنور منتيني Montini .

ومن يشاهد بين المارة ، طاهية بيدها قفة ، يعرفها جميع سكان القاتيكان ، وينظرون اليها بكل احترام . انها والجمال على طرفي نقيص . تطأ رخام القاتيكان بقدمين جد طويلتين تضيعاث في حذاء واسع من القماش . تلك هي خادمة المنسنور يوحنا المعدان 'منتيني' ، وكيل الوزارة البابوية في الشؤون العادية الذي يأنس به بيوس الثاني عشر ويخلد اليه اكثر من سائر معاونيه .

والمنسنور منتيني في الثامنة والخمسين من سنه ( ولست تظنه في اكثر من الاربعين ) ، مديد القامة ، ضعيف البنية ، اممر اللون ، اصلع الجبهة ، حاد النظر ، خدد وجهه غضبان عميقان عموديان ، يضيفان بعض المראה على محياه الباسم

## الفصل الثاني

### وزارة الدولة

#### ١ - يوم الاحد في حاضرة القاتيكان .

يوم الاحد اكثر الايام ضجراً في حاضرة القاتيكان الهادئة . الجنود قليلون ، وعلى شيء مفرط من الرفق والحلم في هذا اليوم . وقد تشدهك بزاتهم المتنوعة التي ترقى الى عصر النهضة وعصر الامبراطور نبوليون الثالث وما بينها . ازاء بناية طويلة مقفلة النوافذ ، يسير ببطء اكليوسي عجوز ، لا تزينه لحية البيضاء اكثر من ثوبه الخالي من كل اناقة ؛ انه احد الكرادلة ، حافظ المكتبة القاتيكانية ، كبرى مكتبات العالم طراً . اما سائر المارة ، فمستشار السفارة اليابانية ، ومدير الجريدة الرسمية الكونت دلا توره Della Torre ، واليسوعي معرف البابا ، وابن شقيقه ، والحلاق . في الشوارع كل الناس يعرفون بعضهم بعضاً ، ويتبادلون التحية بشيء من التكلف . ولا يخفى الغرباء عن رواد القاتيكان ، فكل شيء فيهم ينم عنهم . نظافة الشوارع على أتم ما يكون ، وبالاخرى الآداب والسلوك .

المتفتح ، يرثدي ثوبه الاكليزي الاسود بكل حشة كأني من كهنة رومية ، ولا يزينه زرّ بنفسجي إلا نادراً في الحفلات الكبيرة . انه ليس اسقفاً ، ولكنه مع زميله ترديني ، في نظام التشريفات ، احد الاشخاص الاقطاب في الكنيسة ؛ ومن حيث السلطة او الولاية الكنسية ، ادنى بكثير من الكرادلة والمطارنة والاساقفة الذين يوجّه اليهم ، باسم البابا ، الاوامر واللوم او الثناء . منذ عشرين سنة يلزم المنسيور منتيني القاتيكان بدون انقطاع ، وهو اتبع للبابا من ظله .

يبدأ المنسيور مُنتيني نهاره مع الفجر بقُدّاس سريّ طويل ، لا نهاية لما يليه من تأمل وصلوات . فتدب الحيرة في نفس طاهيته التي لا تستطيع ان تعرف ميعاد فطوره . لم يكن في حياته ما يدل على انه سيصل الى المقام العالي الذي يحتله ؛ فدعوته الكهنوتية جاءت متأخرة ؛ وقبل ان لبي نداء النعمة ، كان من المجاهدين في حقل المنظمات الكاثوليكية للطلاب الطليانين ، في الحقبة المضطربة التي عقت الحرب العالمية الاولى . وهذه المنظمات هي التي افضت الى تأسيس العمل الكاثوليكي في الحقل الاجتماعي ، والى انشاء الحزب الديمقراطي المسيحي في الحقل السياسي . وكان الفتى منتيني يدرس الحقوق في رومية ، فاستهواه العمل الكاثوليكي ومعالجة المعضلات الاجتماعية . وكان يلوح له ، في افق قريب ، مستقبل

سياسي باهر ، وقت كان الصراع على اشده بين الفاشية الطالعة والاحزاب القائمة . فترك العالم وتطوع لخدمة الله والنفوس . فدخل الكلية الحربية ، منشأ رجال الدبلوماسية القاتيكانية . ومنها انتقل تَوّاً الى وزارة الدولة حيث ارتقى مدارج السلك باطراد ثابت ، بدون ان يخرج من وزارة الدولة إلا للاقامة في بولندا ردحاً من الزمن .

ولما كان يضيق ذرعاً باروقة القاتيكان الرسمية وبمكاتبه الضيقة ، وببجمل هذه الدنيا المصطنعة التي تكاد تكون لاطبيعية ، دنيا وزارة الدولة ، كان يطيب له الافلات منها بضع ساعات ، فيذهب يلقي عظات رياضية روحية على طلبة الجامعات ، ويمارس اعمال الرسالة الدينية في ضواحي رومية . وكانت الفاشية قد ركزت قواعدها آنئذٍ ، واضطرت العمل الكاثوليكي الى قصر نشاطه على الشؤون الروحية البهجة . ولا يزال طلبة هذه الحقبة يحفظون صورة ذاك الكاهن الشاب بعظ ويحاضر ، وقد سدل الزهد على سحنه مسحة لا تحدد من توقد عينيه ، ويسمعون صوته الخافت الذي كان يهيج عواطفهم . على ان جو وزارة الدولة ، مع طول الوقت ، اخمد تلك الحدة ، على ما يظهر ، واسدل ستاراً من الدراية الدبلوماسية على نزق الاهواء .

ان من خطة المنسيور مُنتيني ان يكفّ عمداً عن ابداء رأيه الشخصي ، وعن بت القضايا ، الا في ظروف نادرة .



فهو لا يريد ان يكون سوى ظلّ - ظل البابا . وانما هو بذلك يحتذي مثال من كان معلمه في تسيير دفعة الكنيسة ، اي الكردينال باتشلي نفسه . فلما القيت الى هذا مقاليد وزارة الدولة البابوية ، آلى على نفسه ألا يقصد الاقتداء بأسلافه المشاهير ، من امثال كُنْسَلْفِي Consalvi وجسبرّي Gasparri . فالبابا ، في عرقه ، ليس بحاجة الى معاونين من هذه الطبقة ، بل الى رجل يعتنق فكرة رأس الكنيسة على وجه التام والكمال ، ويُعنى بتنفيذها على ادق ما يكون من الحرص والامانة . فالمنسيور منتيني ، على مثال الكردينال باتشلي مع بيوس الحادي عشر ، وربما بزيادة عليه ، اتبع هذه الحطة في علاقاته بالبابا بيوس الثاني عشر . وكان مزاج هذا يقتضي ذلك . فبيوس الثاني عشر متكم ، غامض ، بطيء في بت الامور ، يفضي به الامر سريعاً الى العناد ؛ سريع الغضب بالرغم من لطفه ، ينتظر من معاونيه ان يزودوه بالمعلومات ، لا ان ينصحوه ويشيروا عليه . وكل همه ان يعرف ردة الفعل العالمية وتقلبات الرأي العام الكاثوليكي . ولهذا بعد وفاة الكردينال ملبوني Maglione وزير دولته ، لم يعين خلفاً له . فتوضح حينئذ هذا التعاون المتواصل على مدى الايام والساعات بين بيوس الثاني عشر والمنسيور منتيني .

### ٣ - المنسيور توديني <sup>i</sup> Tardin .

والى جانب المنسيور منتيني ، يعمل ، في وزارة الدولة البابوية منذ سنين طويلة ، مسؤول آخر عن سياسة الفاتيكان في الشؤون الخارجية ، هو المنسيور توديني . وكلا الرجلين يسدّ احدهما نقص الآخر ، ويساند عمل البابا على افضل وجه . فغاية ما يتطلبه بيوس الثاني عشر ان يكون بقربه معاونون قليلون يعرفهم حق المعرفة . فهو الذي يوتّاح كل يوم الى استقبال جماهير الزائرين المجهولين ، كان لا يتحاشى شيئاً مثل تعرفه بأشخاص جدد .

والمنسيور توديني بشوش ، كجذيل ، يمتّ ، بمزاجه وخلقه ، الى سكان المناطق الجنوبية ، بقدر ما يمتّ المنسيور منتيني بها الى سكان المناطق الشمالية . فستان ما بين الزميلين الصديقين . وبالرغم مما يتحلى به الاول من صفات دبلوماسية ، فانه لا يلوّك كلامه ، ولا يخفّف من وطأة عباراته ، اذا ما استقبل مرة في مكتبه الواسع ، بصورة استثنائية ، احد الفضولين او غير ذوي المعرفة والالمام بالامور . وبينما المنسيور منتيني يطيل ساعات الاستقبال وجلسات العمل ، حتى تنسيه ميعاد طعامه ، نرى المنسيور توديني مثال الدقة التامة . فعندما تدق الساعة الثالثة عشرة ونصف الساعة ، يعرف حجاب الوزارة ان باب المصعد يجب ان يكون مفتوحاً والسيارة تنتظره عند

اسفله ، بصرف النظر عما قد يكون لديه من امور هامة ،  
ومهما بلغت اهمية هذه الامور . وهو لا يسكن بالقرب  
من البابا في البلاط الرسولي ، بل في جناح مستوفٍ  
مقتضيات الراحة والرفاهية ، من بناية عصرية قائمة بطرف  
حاضرة الفاتيكان ، كان يقطنه قبله احد الدبلوماسيين .

وما عدا المنصب الرفيع الذي يشغله المنسيور ترديني ،  
فانه يعنى بالميتيم الذي انشأه بحاله الخاص وبما يجمعه بدون ملل  
من الاشخاص الذين يؤثون مكتبه او يلتقيهم في بيوت  
الاشراف الرومانيين . وعليه كل يوم ان يمضي لزيارة ايتامه  
الصغار ، فينسى بالقرب منهم مسؤولياته الجسام ، ويصير  
طفلاً مع الاطفال ، ويعود كاهناً يستمع الى من يأتمنونه  
على متاعبهم ويبسطون امامه ما يقلق ضمائرهم .

#### ٤ - اما وزارة الدولة ...

ولسائل : لم هذه الادارة المزدوجة في وزارة الدولة  
البابوية ؟ ولم حرمت الوزارة رئيسها الطبيعي : الكردينال  
وزير الدولة ؟

منذ ما يقرب من خمسة عشر عاماً ، التأم مجمع الكرادلة  
لا انتخاب خلف لبيوس الحادي عشر المتوفى . وكان احد  
الكرادلة يفوق سائر المرشحين بما ينعم به من نفوذ مزيد واشعاع  
مديد : هو الكردينال اوجين باتشلي . على ان الكرادلة

الايطاليين ، وهم الاكثرية ، لم يكونوا مجمعين على انتخابه .  
ولكن فئة منهم ابدت غيرة فائقة على تأييده ، وأخصهم  
الكرادلة : كنالي ، مركتي سلقاجياني ، بيتزردو ، تيديسكيني .  
وانضم اليهم مليوني ، السفير البابوي في باريس . وبالنتيجة  
انتخب الكردينال باتشلي بابا . وقد شعر ، على ما يظهر ، ان  
عليه ، من باب اللياقة ، ان يعين ، لادارة الشؤون الخارجية ،  
دبلوماسياً خبيراً ، كانت له اليد الطولى في رفعه على عرش  
مار بطرس ، فكان الكردينال مليوني الوزير المختار .

كان الخبر الاعظم الجديد من السلك الدبلوماسي ،  
تمرس بالاعمال في وزارة الدولة وفي سفارات هامة ،  
في مونيخ سنة ١٩١٧ وبرلين سنة ١٩٢٠ . وكان وزير  
الدولة حين انتخابه مجمع الكرادلة بابا . على ان التقليد  
العريق يقضي بالأل يصح القائم على شؤون الكنيسة  
السياسية رئيسها الاعلى . فلما بلغ البابا الجديد ذروة  
السلطة في وقت جد عصب من التاريخ ( الحرب العالمية  
الثانية ) وكان بطبعه من اشيع المركزية والاستئثار  
بالسلطة ، لم يستطع ولم يشأ ان يتخلى عن ادارة سياسة  
الكرسي الرسولي العالية ادارة مباشرة . فكان ذلك ،  
فضلاً عن اختلاف في النظريات واحتكاكات شخصية عديدة ،  
سبباً كافياً جعل من الصعب ان يعمل البابا والكردينال  
وزير الدولة معاً .



فلما توفي الكردينال مليوني سنة ١٩٤٤ ، ترك بيوس الثاني عشر التقليد ، فلم يعين وزير دولة مكانه . فحكم وحده ، بملء سلطته ، بدون وسيط قد يضايقه في سياسة الكنيسة وتوجيه شؤونها الخارجية . فاذا استثنينا الوقت القصير الذي قضاه مليوني في الفاتيكان ، وجدنا ان بيوس الثاني عشر ما فتئ وزير الدولة منذ اليوم القوي الذي دعا فيه الى هذا المنصب سلفه على عرش مار بطرس .

ترى هل من خير ام خير ان 'تجمع' في يد رجل واحد ، الاسلاك العديدة التي تربط العالم بعاصمة الكتلكة ؟ لربما كان من الضروري آتئذ ان تقرض على الكنيسة وحدة الادارة ( وان ظهرت احياناً شديدة الحذر وكثيرة المداورة ) ، في وقت اصطدمت فيه قوى متضادة اصطداماً عنيفاً ، واتخذ الصراع اسكالاً تُذكر برؤى انتهاء العالم . فالحالة السياسية العامة ، وبالاخص الخوف من حرب مدممة ، كان مما استأثر باهتمام الجميع في الدرجة الاولى ، فحدا جميع الكرادلة الى الاتفاق السريع على ترشيح رجل سبر غور الشؤون الخارجية وتمرس في اساليب قيادتها .

على ان خلوا الكرسي الرسولي من كردينال وزير دولة ما فتئ موضوع انتقاد في رومية . فازدياد الاعمال الى حدٍ بالغ جداً كان له دوره في سير الامور على مهل وفي تأجيل مقررات هامة . فالحاجة الماسة الى حل

معضلات لا تقبل التأجيل حالت دون الاهتمام بمشاكل اخرى جوهرية لم يتسع الوقت ولا صحة البابا لدورها . وقد أحسن المنسيور مئتيي نفسه ، وهو الاداة الطيعة الوفيّة بيد البابا والمنفذ المفضل لمقرراته ، بأن عمله قد تضخم الى حدٍ بعيد . فدوائره قد اتسعت ، حتى استغزت الدواوين الرسولية الى التذمر والشكوى . ذلك ان وزارة الدولة ، في عهد بيوس الثاني عشر ، حصلت شيئاً فشيئاً على حق فرض رقابتها على ما يجري في المجامع (الوزارات) ، فاعتزمت ما بينها وبين المؤمنين من جهة ، وما بينها وبين البابا من جهة ثانية . فكانت النتيجة ان البابا اخذ يعفي الكرادلة رؤساء المجامع من مقابلته الشخصية ، ولكن بدون ان يزيد ذلك في استقلالهم بالعمل في دوائر مجامعهم . واخذ الدليل الصغير ، الذي كان يطبع كل سنة ، بأناقة تامة ، بأمر رئيس غرفة قداسته وفيه بيان هذه المقابلات ومواعيدها ، يتضاءل حتى فَقَدَ نصف ما كان عليه من الحجم في السنوات الاخيرة القريبة .

ان هذه المقابلات ، التي تدعى Audiences de tabella تجري في مواعيد معينة ، يحفظها البابا لرؤساء المجامع وكبار موظفيها ولرؤساء المحاكم الكنسية . وهذه المقابلات لم يرغب اصحابها قط في تقليلها ، بل طلبوا المزيد منها . ولكن البابا كان احياناً يرسل يقول لهم ، وهم يتأهبون للمجيء اليه ،

انه ليس لديه ما يسألهم عنه او يطلبه منهم . فليتوجهوا ،  
اذا شاؤوا ، الى وزارة الدولة .

وتلك كانت كذلك حالة البعثات الاجنبية لدى الكرسي  
الرسولي . فان السفراء والوزراء المفوضين والقائمين بالاعمال  
كانوا يلقون بعض العناء بسبب خلو الكرسي الرسولي من  
وزير دولة ، لان اصحاب المقامات العليا ، الذين كانوا  
يستقبلونهم ، لم يكونوا صالحين لبت القضايا العالقة ،  
فيكتفون بالاستماع اليهم ، واعدن بنقل رغباتهم الى قداسة  
الحبر الاعظم .

#### ٥ - دوائر وزارة الدولة .

سنة ١٩٥٣ قرر قداسة البابا رفع معاونيه الاقربين  
الى مقام الكردينالية ، وكان في مقدمة المرشحين له ، فاعتذر  
كلاهما عن القبول . فاذاع البابا ذلك بنفسه ( وهذا من  
النادر ) على العالم اجمع ، موضحاً انه ، بناءً على طلبها الملح ،  
عدل عن منحها القبة الكاردينالية . فعينهما عندئذٍ وكيل  
وزارة الدولة ، ما اولاهما المقام الاول في ما يعود الى  
التقدم في التشريعات .

وبما لا ريب فيه ان تواضعها العميق املى عليها هذا  
الرفض . على انه قد يكون هناك سبب آخر . فلربما  
ومي بيوس الثاني عشر ، برفع وكيلي وزارة الدولة

الى المقام الكردينالي ، الى تعيين احدهما وزير دولة .  
وفي هذه الحالة ، كان من المرجح جداً ان يسند هذا  
المنصب الى المنسيور منقيني . ولما كان زميله المنسيور  
ترديني لا يرغب في التنحي عن ادارة الامور الحارقة العادة  
وابدائها من وظيفة ارفع شرفاً ، فاعتبر ان بقاءه على رأس  
هذه الادارة ، ذات الاهمية الاساسية ، يوازي اتشاحه  
بالارجوان الكردينالي ، اذا كان هذا الارجوان سيجره الى  
تقاعدٍ موهٍ بشيء من المجد .

ولكن الراهن ان بيوس الثاني عشر كان جد مرتاح  
الى ازدواج الادارة في وزارة الدولة . ذلك ان معاونيه  
الاقربين اليه يختلف احدهما عن الآخر بقدر ما  
يتم احدهما ما ينقص الآخر . انها يختلفان مزاجاً ونزعات  
سياسية . فاحدهما ، المنسيور ترديني ، يعتبر من المحافظين  
المستقيمي العقيدة في الشؤون الاجتماعية ؛ والآخر ، المنسيور  
متيني ، يُعدّ من ابرز المحامين عن الحركة الكاثوليكية  
الاجتماعية التقدمية ؛ الاول يُبدي اراءه باندفاع وحماسة ؛  
والآخر يأبى الظهور ، وينفذ بكل امانة وغبات الاب  
الاقديس . ثم ان لكليها خبرة قديمة بنظام العمل  
في وزارة الدولة وبوسائل دفع العجلة الى الامام .  
وفضلاً عن ذلك فان الارجوان الكردينالي يضيف على لابسـه  
مسحة من المهابة قد تدعو البابا الى تعاطي شؤون وزارة



الدولة مع هذا او ذاك بشيء من الدراية والكلفة .  
اما وقد زهدا في الارجوان ، فكان للبابا سبيل  
الى ان يواصل تبليغها ارادته ومقرراته بدون اخذ  
وردة .

لوزارة الدولة دوائر ثلاث : الشؤون الحارقة العادة ،  
والشؤون العادية ، وديوان البراءات .

فالدائرة الاولى يرئسها المنسيور ترديني ، وهي اهم  
من الاخرين بقدمها وكثرة اعمالها ، يساعد فيها خمسة  
عشر كاهناً ايطالياً ، تأهبوا لعلهم على احسن وجه .  
وهذه الدائرة تتولى الاتصال بالسفارات البابوية ، واليهما  
يعود درس الامور السياسية مع رؤساء البعثات الاجنبية  
لدى القاتيكان ، والعناية بالمشاكل الدقيقة التي تلامس  
تعيين الاساقفة ، وادارة المفاوضات لعقد الاتفاقات  
مع الدول ، كالمعاهدات Concordats . ومن مآثر المنسيور  
ترديني انه توصل الى عقد كونكوردية مع اسبانية ،  
عقدها لا يخلو من الصعوبة . فمن سنين طويلة كان  
الجانبان يبحثان بنودها . ولكن تطلّبات القاتيكان  
كانت كثيرة وجسيمة ، فلم يقبل بها الجنرال فرنكو ،  
كما لم يقبل بها قسم كبير من الاساقفة الاسبانيين الذين  
كانوا يأنفون الارتباط المخرج بالسلطة القاتيكانية  
المركزية .

واذا قابلنا عدد الموظفين في وزارات دولة زمنية عصرية  
بعدد الكهنة العاملين في الوزارة البابوية على تحليل  
المعضلات العالمية الشائكة ، لاخذ منا العجب كل مأخذ .  
وقد جُهزت الدوائر القاتيكانية اخيراً باحدث الآلات  
الكاتبة واكملها . والبوقيات تصدر عنها بالارقام الرمزية  
بكل سرعة ، ومواصلاتها الراديوتلفونية جديدة بابة وزارة  
مدنية مجهزة بافضل الادوات .

ومع هذا ، فالطابق الثالث من البلاط الرسولي ، حيث  
يعمل معاونو المنسيور ترديني ، يسوده جو عائلي هادي .  
فلا ملاكات ضيقة كـ « المديريات » التي يمين عليها موظفون  
يفارون على امتيازاتهم ، والعمل فيها يوزع وفقاً لمقتضيات  
الساعة ولاختصاص كل موظف . وليس من النادر ان يلجأ  
الى موظف كبير انكليزي او اسباني ل يكتب رسالة  
بروتوكولية عادية بلغة بلاده .

اما الدائرة الثانية ، التي يرئسها المنسيور منتيني ،  
فموظفوها اكثر عدداً للأسباب التي اوردناها ، وقد زادوا  
اضعافاً في السنوات الاخيرة . وكان من المجدي تعيين بعض  
موظفين غير ايطاليين فيها ، بينهم افرنسيون واسبانيون  
والمانيون وايرلنديون واميوكيون . وهي تعنى بسير  
الادارة العادية ، والاتصال بالسفارات في القضايا التي  
لا تتطلب مقررات تمس الاصول والمبادئ ، كما تعنى

بالمراسلات ، وما اكثرها ، مع الاساقفة رؤساء الابشيات ، ومع رؤساء الرهبانيات ورجال العمل الكاثوليكي ، الخ ... ومع الوقت يزداد عملها اشتباكاً وتداخلاً مع عمل كتبة اسرار الحبر الاعظم . فالؤمنون يلجأون الى البابا في مسائل متنوعة جداً . فعلى الوزارة الجواب عنها دوماً .

امثال ذلك : ان راهبة ، في اطراف كندا ، تحتفل بذكرى السنة الحسين لاعتناقها الحياة الرهبانية ، فتتوسل الى الحبر الاعظم ان يتنازل فيهدي اليها بوكة خاصة ؛ - او ان غنياً من رجال الصناعة يرغب في ان يقدم الى الكرسي الرسولي هدية ذات قيمة ؛ - او ان كاهناً يضطره ضميره الى ان يبسط للبابا نفسه قضية هامة تتعلق بالرسالة التي يمارسها ؛ - او ان الكاثوليكين في فرنسا تبوعوا بشمن آلة تلفزة مذبعة يهدونها الى القاتيكان ؛ - الى غير ذلك من اسباب لا عديد لها . يتذرع بها المؤمنون ليرفعوا عرائض بشأنها الى الاب الاقدس .

ويعود الى المنسنيور منتيني ومعاونيه بعض مهام لا تتعلق رأساً بالسياسة الخارجية ، يكل البابا اليهم تعاطيها بصورة خاصة ، لانه يريد الاحتفاظ بالاشراف عليها ، كانشاء « مؤسسة بيوس الثاني عشر » وغايتها جمع المال في العالم باسره لتمويل « المنظمة العالمية لرسالة العلمانيين » .

فاذا كانت الدائرة الاولى في وزارة الدولة تعنى بالشؤون الاكثر اهمية ، فللدائرة الثانية عمل اوسع واوفر . ثم ان رئيسها المنسنيور منتيني يدعى تقريباً على الدوام ليضع صيغة مقررات الحبر الاعظم ، الا ما كان منها نصاً رسمياً يذيعه البابا نفسه .

وكان من خصائص وزير الدولة ان يرئس جلسات جمع الشؤون الحارقة العادة ، الذي يبحث قضايا سائكة ، تحولها اليه الدائرة الاولى ، قبل ان ترفعها الى الحبر الاعظم ليتخذ قراره النهائي بشأنها . على ان جلسات هذا المجمع غدت نادرة جداً .

وفي وزارة الدولة ، دائرة ثالثة هي « ديوان البراءات » ، لكن اهميتها اقل بكثير من اهمية الدائرتين السابقتين . موظفوها قلة تقوم بانشاء البراءات ، اعني الوثائق الرسمية التي تصدر ، باللغة اللاتينية الرسمية ، عن وزارة الدولة او توقعها هذه الوزارة بالاشتراك مع مسؤول آخر . ولا يخلو القاتيكان من اجبار مثقفين متضلعين من الآداب القديمة .

وفي وزارة الدولة مكتب يدعى « سكرتيرية البراءات الى الامراء » و « الرسائل اللاتينية » ، مهمته الحفاظ على اصول اللغة اللاتينية وجعلها تجاري ، بقدر المستطاع ، مقتضيات الازمنة الحاضرة . واليه يعود تحرير الوثائق التي

تنشر باللاتينية ، والرسائل الموجهة الى الامراء على رقوق  
وتحت « خاتم الصياد » ، والى اصحاب المقامات من كنسين  
وزميين على ورق عادي ، والى المؤمنين عامة . وقد  
وضع المنسيور بكشي Bacci ، رئيس هذه « السكرتيرية » ،  
معجباً طويلاً اخضع فيه اللغة اللاتينية الى التعبير عن  
مفردات عصرية . فجاء بكلمات من لغة شيشرون واطلقها على  
ما نسيه : « المصعد » ، والعادة ، والطائرة ، والمعكرونة ،  
والهاتف ، والطبحة » ، الخ ...

#### ٦ - العالم بأسره كما تراه من الفاتيكان .

يكشف المطل من الشرفات الفسيحة ، المتفتحة في  
الرواق المؤدي الى وزارة الدولة ، منظراً فريداً لا يوازيه  
منظر آخر في العالم .

فعند اقدامنا ، ساحة مار بطرس ، وأحد الحوضين  
الفوارين الذي يرش في الفضاء الازرق زبد مياهها كأنها  
الريش المتطاير ، واحدى ذراعي الرواق الرخامي المتد  
عن جانبي الساحة . وعلى البعد ، نهر التيبر ، والسطوح  
القرميدية ، والحجارة جففتها الشمس فعدت شبيهة بالكس .  
وابعد فابعد ، التلال تكتسي اكثر فاكثر لوناً بنفسجياً .  
اما المدينة فتُرسل الى القصر الرسولي ضواها المتوانية .  
وقبلتنا ، في الجهة الثانية من الساحة التي تُشرف عليها ،

دائرة البابا الخاصة بزجاجها المعنى المطموس ، حيث يسود  
الظل والظراوة ؛ بينما هنا تشق الشمس لها سبيلاً عبر  
الستارات التي نالت الايام من رونقها ؛ واحد رجال الدرك  
البابوي يغالب النعاس ، مُتَكِنّاً على سيفه ، جالساً الى  
الجدار الاقصى من الرواق حيث صُوّرت خرائط  
كبيرة على الجدران ، تزينها الرموز وتخللها اسماء  
لاتينية .

بعد الرواق ، قاعة استقبال اولى ، يُدخل اليها بياض  
زجاجي . فتخدش اذنك جلبة حجاب يرتدون السترات  
السوداء الطويلة ( ردنجوت ) ، ويتحدثون بصوت جهوري  
من وراء آلات الهاتف ، حيث جلسوا وكأنهم على عروش ،  
عابثين بالحُرمة الواجبة للاساقفة والسفراء المنتظرين في قاعات  
مجاورة ، ابوابها بين مفتوحة ومقفلة . ويعلو في القاعة نصب  
من الرخام الطيع نُحت فيه تمثال البابا المالك سعيداً بنصفه  
الاعلى .

وتسلل من هذه القاعة ممرات الى اماكن محجوبة ،  
ينساب فيها كهنة بلباسهم السوداء كأنهم اشباح .  
واذا تجرأ المرء فتقدم بضع خطوات ، وجد نفسه فجأة  
في رواق معقود ، رَسَم على سقفه تلامذة رافايل تصاوير  
متشابهة على شكل الكتابة العربية ، واكاليل ونقوشاً  
من الزهر والورق ، واجناساً من عصافير الجنة ؛ وباغته



من النوافذ قبة مار بطرس ، تحفة ميكال انجلو ، بمحاسنها الساحرة ؛ وشاهد في الاسفل ، تحت عقد من القرون المتوسطة ، واحداً من رجال الحرس السويسري ، قائماً وحده مع حربته ، وقد استولى عليه الضجر .

واذا دفعنا الفضول الى التوغل ابعد فابعد ، فلا نعود نرى صوراً على الجدران ولا مقاعد او اثاثاً مصقولاً ، بل غرفاً صغيرة ، مطووعة بالكس ، شبيهة بقلاليات الرهبان ، عامرة بكهنة في شرح الشباب ، يضربون على الآلة الكاتبة ، او يبحثون تقريراً وارداً من احد السفراء في بلاد نائية . وهؤلاء الكهنة تخرجوا في الجامعة الحبرية في رومية ، التي تعد رجال الدبلوماسية القاتيكانية ، على يد سفراء قدماء يلقون عليهم دروساً في التاريخ الدبلوماسي والتاريخ الكنسي واصول العلوم الاجتماعية والاقتصادية وآداب التعاطي والعلاقات بطبقات الناس على انواعها . وقد تم اختيار بعضهم باتفاقات شخصية بين القيمين على هذه الجامعة واقطاب الدواوين الرومانية والسفراء البابويين والاساقفة الاجانب المارين برومية .

وعلى الرابية القاتيكانية ، في الفضاء الضيق الذي ترشد اليه قبة مار بطرس والمعبد السيستي ، ترى : هنا رواقاً فسيحاً تغمره الشمس ، وهناك دهليزاً مشعاً ، وتم رواقاً من عصر النهضة ، وقلاليات بيضاء منحوتة في جدران

قديمة بدوت نظام ولا تصميم . فهذه كلها تكون لوالب دماغ العالم . فمن جنيع الآفاق والاقطار يرد عليها بدون انقطاع البريد والرسائل والبرقيات والموفدون الرسميون الزاهون بمواكبهم ، او المتنكرون الذين لا يستوعون اي انتباه .

وفجأة تبين لنا اوروباً اقليماً صغيراً يُحيط به بحر الشيوعية الهائج الخطر ، غائصاً في اوقيانس الشعوب التي تجهل اسم المسيح حتى الآن . وتتضاءل المشاكل التي نوليها عادة جل اهتمامنا حتى تصبح بغتة من الامور العرضية ، ويتضح لنا ان الشؤون الجوهرية هي غير ما نظن .

فتجاه هذا الواقع ، تفقد وجهة النظر الاوروبية اهميتها عندما يدور الحديث عن آسيا او افريقيا السوداء . فالصين هي احد الاقاليم التي دخلتها الكنيسة اخيراً على يده اساقفة وكهنة من اهلها الصفر ، كفاءاتهم متنوعة ، وامانتهم ثابتة بما غانوا من المحن وقاسوا من الشدائد ، حتى الاستشهاد ، منذ سنين عديدة . ان الكنيسة لا تنظر الى البلدان التي تتحرر نظرة الدول القلقة على نفوذها السياسي ومصالحها الاقتصادية ، بل ترى فيها بلداناً جديدة ، قد تكون اكثر اهلية لاقتبال الرسالة المسيحية من الاوروبيين المنهوكين والاميركيين الماديين .

اما روسيا فهي العدو الاكبر والامل الاكبر ، لان

فيها تعيش وتآلم ، بين الكنائس المنفصلة عن رومية ، أقواهن وأقربهن إلى التعاليم الكاثوليكية فيما يلامس العقائد الجوهرية والأسرار المقدسة . وما العدو إلا لد سوى الشيوعية ، فإنها في كل مكان الكنيسة الدجالة ، نقيضة رومية ، تصب عليها جام غضبها ، وتخصها بغضاء تتساوى فيها الضراوة والحجاة . والشيوعية تمون الكنيسة في إيمانها بالشهداء من الصين إلى بولندا ، ومن البانيا إلى غاليسيا ، وحتى في يوغوسلافيا ، على نخط موحد بكل دقة . وهدفها أن 'تعوي الكنائس المسيحية وتضلها وتذلها وتسحقها .

على ضوء الاضبارات التي تتراكم هنا ، 'تقدّر قوې الانسان وامكانياته بمقاييس جديدة غير معروفة من قبل . فالوقائع يُنظر إليها بعين الابد وفقاً لتقنية خاصة هي تقنية القداسة . وللسياسة مفهوم لا علاقة له بقيام وزارة أو سقوطها ، ولا ببقاء مجلس نيابي أو حله ، ولكن بما 'يخال انه سيكون تطور قرن كامل ، وحتى حقبة تاريخية مديدة . والأشخاص الذين جعلنا منهم أفذاذاً خياليين مجردين يبدون هنا أشخاصاً بشريين . فما قيمة القرن ونصف القرن يفصلان بين رئيس جمهورية فرنسا الحالي ونابوليون الاول ، في نظر من كان عمره الف سنة ؟ فامبراطور الفرنسيين ليس هنا شخصاً ينشده فيكتور هيجو في شعره ، أو يعرضه فلم امريكي على الشاشة ، ولكنه حاكم تجرأ على أن يقسو على واحد من

سلفاء البابا المالك ، ولا يزال اثره حياً في محفوظات الوزارة البابوية .

أما القداسة فننشق عيورها في التقارير المحرّبة غالباً على رسائل سرية تفيد عن كهنة حرقوا أحياء ، واساقفة أعدموا الرصاص أو هلكوا في المنفى ، ومؤمنين قضاوا في العذابات المتنوعة . ان الكنيسة تقاسي دائماً اضطهاداً عنيفاً ودموياً لا ينقطع . وتقضي اخبار هذا الاضطهاد إلى وزارة الدولة على نحو ما ينتهي إليها تقرير من سفيرها في مدريد عن حفلة استقبال اقامها اكراماً للجنرال فرنكو . وكلا الامرين يدون في السجلات بالعناية عينا . اما الاساقفة المستشهدون ، والشعوب المذبذبون لاجل المسيح ، فيحتلون المقام المعين لهم في الكتاب العظيم الذي يروي مصير الكنيسة الجامعة ، ويتم انشاؤه شيئاً فشيئاً بدون عجلة ولا غرض أو هوى .

#### ٧ - الفاتيكان والسياسة .

تري هل تعنى وزارة الدولة بمشاكل الكنيسة لا غير ؟ كلاً . فان العصر الذي نعيش فيه لا يسمح بتمييز ميادين العمل الواحد من الآخر ، ولا باقامة فواصل محكمة بينها . ان الفاتيكان مرتبط بالعالم اجمع ارتباطاً وثيقاً ، فلا يمكنه التملص من خوض غمار السياسة . ولا ننس ان ذكر السلطة الزمنية ، التي تمتع بها الباباوات قروناً طويلة ، لا يزال حياً في

الفاتيكان ، فيثير طموحاً الى تمثيل دور وبسط نفوذ . غير ان نقطة الانطلاق هنا مختلفة عنها في الدول الزمنية . فالهمم الأكبر - الاتجاه الوحيد في وزارة الدولة - انما هو الكنيسة . فحكم الوزارة على الامور الجارية والاحزاب ورجال السياسة انما يتعلق بطريقة مباشرة بالخير او بالخير الذي قد ينجم عنها بالنسبة الى حالة الكنيسة في العالم . وهذا قبل كل شيء ما يحرك فيها العطف او الحذر ، وما يدفعها الى عقد احلاف او اقتراح تبادل خدمات حيية ، او يحضها على الكفاح والنضال .

على ان ازمة هذه السلطة في يد حاكم مطلق السيادة ، فيبقى لميوله الشخصية ولسلالته الاجتماعية تأثيرهما . فالبابا من حيث انه رئيس الكنيسة يظل بموجب وظيفته فوق الاختلافات القومية والمنازعات السياسية . ولكنه ، من حيث انه رئيس الدبلوماسية الفاتيكانية او مرجعها الاخير ، لا بد له من الهبوط الى نطاق النسبيات . فهنا العقيدة الایمانية لا تفرض قواعد ثابتة للامال التي يقوم بها كل يوم ، ولا عصمة من الغلط تحمي . ووزير الدولة ، في تعاطيه الشؤون الزمنية ، يختلف عمله وفقاً لطبع البابا وميوله وصفات معاونيه والتعليمات التي عليه ان يتقيد بها . ان الفاتيكان يحاول ، من علو رايته ، ان يتنسم من اين تهب الارياح والى اين تتجه ، ويود لو يستبق معرفة التيارات

السياسية والاجتماعية . وقد يحالفه الحظ او يخونه وفقاً للظروف .

ولسائل عما اذا كان لعمله فاعليته ونفوذه . فهنا لا بد من ايضاح جوهرى . فالفاتيكان ، كمؤسسة سياسية ، شيء ، والاساقفة وسائر الاكليروس والمنظمات الكاثوليكية ، عبر العالم بأسره ، شيء آخر . ان لرجال الاكليروس الوطني تقاليدهم ونزعاتهم وميولهم وسياستهم على الاخص ، فقد يكونون من الموالين ، وقد يكونون من المعارضين ، بالنسبة الى السلطات العالية القائمة في بلادهم . فاليهم يعود ان يقرروا لمصلحتهم جدول اعمالهم ، مبتدئين بما يرونه منها اكثر اضطراراً ، وان يدروا الاخطار التي يشعرون بانها تهددهم اكثر من سواها . وعلى هذا ، فانهم يكونون في هذا البلد من انصار الجمهورية ، وفي البلد الآخر من انصار الملكية .

فليس من السهل على وزارة الدولة ، في هذه الظروف ، ان تفرض على الاساقفة والكهنة وجهة النظر التي تبدو لها سديدة . ان السفراء البابويين يضمنون مبدئياً الاتصال بينها وبين السلطات الكنسية الوطنية العليا ، وقد يستطيعون بنفوذهم الذي لا يستهان به التوفيق بين الجانبين . غير انهم ، على قدر كبير ، ضحايا الانحطاط الدبلوماسي الملحوظ في كل العالم . فالتيارات القوية تجري خارج نطاق عملهم ، وعلاقاتهم الشخصية تنشأ بسرعة كلية ، قبل ان يتمكنوا من معرفة



ما سيكون لها من وقع او نفع . والناس من المؤمنين وسوام اصبحوا لا يطيقون الصبر على ان تدس الكنيسة اصابعها في الحقلين السياسي والاقتصادي . ان كلمة « الاكليسسية » Cléricalisme لم تكن قط امواً وقعاً في النفوس مما هي عليه في ايامنا .

لا يتوصل القاتيكان دائماً الى ان يقتاد الجماهير الكاثوليكية ، بطريقة مباشرة ، الى العمل بتوصياته ، الا فيما يتصل بالقضايا الدينية البحتة . فالاحزاب الكاثوليكية عديدة ومتناقضة الاهداف والوسائل ، تقوم معاً بنشاطها في البلد الواحد ، فمن المحال تنسيق اعمالها على الصعيد السياسي او الاقتصادي ، بالاستناد الى توجهات دينية . فهل من ريب في ان القاتيكان ، في الحربين العالميتين الاخيرتين ، لم يتمكن من فرض وجهة نظره بصورة جازمة ؟ والآن ، لا اثر له محسوساً في المنظمات العالمية ، ولا في منظمة الامم المتحدة ، إلا بطريقة خفية ؛ ما عدا بعض فرص تتيح له التدخل على يد علاقته الوثيقة بالبلدان الكاثوليكية نظير الشعوب الكبرى في اميركا الجنوبية .

ولا بد من التصريح بان الاكليروس نفسه يختلف بمواقفه من الشؤون الزمنية ونظرياته فيها . فندر ان تنعم جمعيات رهبانية في حياتها الداخلية ، فيما يلامس المعضلات السياسية ، بمثل حرية اعضائها في الايام

الحاضرة . فبين اقطاب الرهبان الدومنيكين من نراهم في اقصى اليمين ، ومنهم في اقصى اليسار ؛ والى جانب المحافظين المتطرفين ، نجد فرقاً يسارية مناضلة . وعلى هذه الحال الرهبانية اليسوعية نفسها ، مها بدا ذلك غريباً ، لما هو معروف لدى العامة والخاصة عن صرامة قوانينها ونظامها الداخلي وتوحيد اهدافها وخططها .

وما عدا ذلك ، فالحالة العالمية ليست من البساطة والوحدة بحيث يستطيع القاتيكان ان يلتقط صورة واضحة عنها . وكثيراً ما يتعذر على الدواوين الرومانية استخلاص الواقع الراهن واستجلاء الجو السائد في بلد ما ، بالرغم من معرفتها لتفاصيل الامور بدقة .

هذا فيما يلامس الزمنيات . اما في شأن مصالح الكنيسة الكبرى ، فالامر على العكس ، لان هذه المصالح لا تتعرض الى اذى ، إلا اذا كانت وديعة الايمان التي تحرسها الكنيسة بكل حرص في حالة الخطر . وهذا يحصل كلما اقتوت الهجوم على الكنيسة بحرب فكرية عقائدية ، او بؤشر بديانة نقيضة الديانة المسيحية ، ونشأت كنيسة دجالة . فعندئذ ، لا ينشط الطابق الثالث وحده في القاتيكان للعمل والدفاع ، بل ينهري رأس الكنيسة نفسه ، ووراءه رجال حكومته باسره ، وفي المقدمة المشرفون على مجمع السنقيش المقدس . فيتجاوب عمل البابا في الضائر الكاثوليكية ،

كما حدث ، مثلاً ، على إثر الرسالة العامة التي اذاعها بيوس الحادي عشر وشجب فيها القومية الاشتراكية الوطنية التي نادى بها هتلر زعيم المانيا في حينه .

### الفصل الثالث

#### الكرادلة

##### ١ - من هم الكرادلة .

اسهنا في الحديث عن معاو في البابا في دارته ومكتبته وفي وزارة دولته . فالكرادلة كذلك اعوان البابا الطبيعيون ، امراء الكنيسة ، اصحاب المقامات العليا فيها ، وهم الذين ينتخبون البابا دون سواهم . وفي الشرع الحالي لا يكون المنتخب إلا واحداً منهم . فكل منهم ولي عهد ووريث عرش ، مرشح لان يخلف مار بطرس ومن بعده من الاحبار الاعظمين على كرسي رومية .

( والكرادلة فئتان : معاو البابا ورجال حكومته ورؤساء دواوينه ، يقيمون معه او بالقرب منه في حاضرة الفاتيكان او في القصور والبنابات الملحقة بها في رومية وجوارها ، وهم تقريباً الثلث ؛ ثم بعض بطاركة الكنائس الشرقية وبعض اساقفة العواصم والمدن الكبرى في العالم اجمع ؛ وهؤلاء ، مع احتفاظهم بكراسيهم في ابرشياتهم وقيامهم بالفعل بسياسة شعوبهم ، هم اعوان البابا الابخاء ، اصحاب الرأي

والكلمة لديه

ان عدد الكرادلة الاعلى سبعون حتى الآن ، على غرار الشيوخ السبعين الذين جعلهم موسى النبي ، بأمر الله ، من خاصته وبطانته كمستشاريه . وقد حدد البابا سيستس الخامس هذا العدد سنة ١٥٨٦ . ومن المنتظر زيادته ، لان حدود الكنيسة قد امتدت جداً منذ القرن السادس عشر . وكلما عيّن البابا كرادلة جدد ، قامت صعوبات جمة في وجهه . فالامم الكاثوليكية العريقة في القدم لا ترضى بتنقيص عدد كرادلتها ؛ والامم الاحداث عهداً والكنائس الجديدة تطالب بان يكون في مجمع الكرادلة اعضاء من بنيتها ، وبالاخص شعوب اميركا الجنوبية ، المتعطشة الى الارجوان الكردينالي . وهذه يناها الكثير من الحية والاستياء عقيب كل جمعية كردينالية يعيّن فيها البابا كرادلة جدد .

في الاصل كان الكرادلة يؤلفون اكليرس مدينة رومية وابرشتها ودائرتها المتروبوليتية ، بما يقتضيه ذلك من اساقفة وكهنة وشماسة . فيحيطون بالبابا بوصفه اسقف رومية ومطران ( متروبوليت ) منطقته ، يخدمون النفوس تحت امرته ويمدونه بالرأي . والى اليوم يُنصّب كل كردينال على كنيسة في رومية او ضواحيها بمثابة شماسها او كاهنها او اسقفها وفقاً لمرتبة الكردينالية . فالكرادلة ، من اي بلد كانوا ، يصبحون بذلك رومانين حتى في ايماننا . فذوو

المرتبة الاسقفية منهم سبعة فقط ، ابرشياتهم تحيط بالمدينة الحادثة ؛ ومن المحتوم بانهم يكونون قد قبلوا درجة الاسقفية . وما بقي فمعظمهم كرادلة ذوو مرتبة كهنوتية ، وان كانوا في الاغلب من ذوي الدرجة الاسقفية . اما ذوو المرتبة الشماسية فهم الاقلية ، وقد يكونون من اصحاب الدرجة الاسقفية او الكهنوتية ؛ وكان البعض منهم في الماضي البعيد من غير اهل الكهنوت ، كبعض وزراء ملوك فرنسا ( مازران Mazarin ) . فحتم الشرع الحالي بان يكونوا على الاقل من اصحاب الدرجة الكهنوتية اي القسوسية .

وبعد تعيين الكردينال واستيلائه بصورة حافلة على كنيسة مرتبته ، يصبح المحسن اليها وحاميها . فتقع على عاتقه ، من جراء ذلك ، تبعات مالية جسيمة ، قد ينوء تحت عبئها اذا كانت موارده ضئيلة . فالالقب الكردينالية معلقة غالباً بكنائس اثرية جميلة ؛ فيقتضي الحفاظ عليها ، وخاصة بعض الترميمات فيها ، مبالغ غير زهيدة . ولهذا يؤثر البابا ان يعين كرادلة اميركيين ، معروفة ابرشياتهم بغناها المالي ومؤمنوهم بسخاء اكفهم ، للكنائس الاكثر حاجة . فالكردينال اسلمن ، اسقف نيويورك ، مثلاً ، أُعطي كنيسة القديسين مار يوحنا ومار بولس ، وهي من اجمل كنائس رومية ؛ وكانت بحاجة الى ترميمات تتطلب مالاً جزيلاً . فاستحق الشناء والجزاء لانه قدم النفقة اللازمة لاعادتها الى رونقها .



يُطلق اسم « الجمعية الكردينالية » Consistoire على اجتماع يدعو البابا اليه جميع الكرادلة الموجودين في رومية ، أياً كانوا ومن اي بلد جاؤوا ، فيعقد الجمعية معهم ويرأسها ؛ وفي القديم كان يتداولوا وياهم في المشاكل الكبيرة العائدة الى سياسة الكنيسة جمعاء ؛ واما الآن ومن زمن بعيد ، وقد توطدت قضية السلطة البابوية المطلقة ، فلم يعد للجمعية الكرادلة حق بالتصويت على المقررات . فاصبحت فرصة فقط يوجه فيها البابا بنوع حافل ، ومراراً بصورة سرية ، رسالة الى اصحاب المقامات الاعلى شأنًا في الكنيسة . وفي هذه الجمعية ( وقد تكون « سرّية » او شبه سرّية ، او علنية ) ، يذيع البابا تسميته كرادلة جددًا .

#### ٢ - ما يقتضيه المقام الكودينالي من نفقات .

سنة ١٩٣٦ ، اصدر احد موظفي مجمع الاحتفالات الحبرية كتيباً أنيق التنضيد والطبع والجلد ، اودعه ما تنبغي معرفته لكردينال جديد فيما يعود الى وابل الاكرامات التي عليه ان يقدّمها ، عن اليمين وعن اليسار ، احتفاء باختياره عضواً في مجمع الكرادلة Sacré Collège des Cardinaux . وقد قيل لكردينال جديد في السنة الاخيرة : « يا صاحب النياقة » كان كنّاسو قداسه السريون يُعطون ، سنة ١٩٣٦ ، ٣٥ ليراً ( الليو الايطالي يعادل نصف قرش لبناني ) ، فلنيافتكم ان تجري ما

تراه ؛ ولكن الراهن ان المعيشة قد زادت مقتضياتها كثيراً وان الاسعار قد ارتفعت منذ ذاك الحين ... »

على الكردينال الجديد ، بادئ بدء ، ان يدفع سلفاً مبلغ مائة الف لير لاجل دفتته ، لان الادارة القاتيكانية شديدة الدراية ، فلا تشاء ان تفاجأ يوماً بدفع نفقات غير ملحوظة . وعليه تقديم مبالغ معينة الى العائلة الحبرية ، وهي جملة اصحاب المقامات في الدواوين والمجامع ووزارة الدولة ، الخ ... على ثلاث دفعات : وقت تعيينه ، وعند قبوله القبة الكردينالية ، وعند استيلائه على كنيسة مرتبه .

فعند تعيينه ، يقدم بضعة آلاف لير الى مجمع نشر الايمان المقدس ، فيهدي هذا اليه ، بقوة انعام قديم ، خاتمه الكردينالي ؛ - وكان المعين ، سنة ١٩٣٦ ، لكاهن المعبد البابوي ، ١٦٥ ليراً ، ولكل من شماسه ، ٦٠ ليراً ؛ - لسكرتير مجمع الكرادلة ، ٢٧٠ ل ؛ - لمقدم المباشرين الرسولين ، ٦٠ ل ؛ - لحاسب مجمع الكرادلة ، ٢٧٠ ل ؛ - لكنّاسي قداسه السريين ، ٣٥ ل ؛ - للحمالين المعيّنين لغرفة قداسه ، ٢٥ ل ؛ - لخدمة وحملّة العرش المنقول ، ١٦٢ ل ؛ لحافظ خزانة الكتب في المعبد الحبري ، ٣٠ ليراً .

وعند قبول القبة ، عليه ان يكرم حجاب قداسه الاخضاء ، وخدمة غرفته ، والذي يحمل القبة الى مقر نيافته ، والكاهن المعاوث في المعبد البابوي ورفقته ،

والكناسين السريين ( مرة ثانية ) ، وحوذي العائلة الحوية ،  
والحرس السويسري ، وبوآقي الحرس البلاطي وطباليه ،  
والاطفائية .

وعند وضع يده على كنيسة مرتبته ، يقوم بمثل ذلك نحو  
بعض الاشخاص ولاسيما « عائلات » المجامع المقدسة التي سيعين  
عضواً فيها .

وللكردينال المقام الاول في نظام التشريفات بعد الملوك  
ورؤساء الدول واولياء العهد . فعليه ان يبعث اليهم بوسائل  
يعلمهم بها رقبته الجديدة . ويُخصّ منهم بالذكر الملوك  
الكتوليكيون . على ان عدد هؤلاء قد اخذ بالتقلص ، فلم  
يبقَ منهم على الارجح سوى ملك بلجيكا .

وعليه ان يكتب الى البابا ، وفقاً للترجمة الرسمية التي  
تبدأ بها هذه الرسالة وتختتم ، ويكون مدير الاحتفالات قد  
سبق فبعث بها اليه ؛ وكذلك الى عميد مجمع الكرادلة .

اما العبد الذي يتقل عاتق الكردينال الجديد اكثر من  
سواه ، فهو ما ينفقه على حلته الرسمية ؛ إلا اذا اسعفه الحظ  
فوجد في خزائن سلفه ما تركه فيها من الملابس الكردينالية  
بما يوافق ، على التقريب ، قامته .

ان هذه الملابس باهظة الثمن ، بالرغم من القرار الذي  
اتخذته البابا بيوس الثاني عشر ، من زمن قريب ، وبه حوّر  
بعض ما يعود اليها ، عامداً الى جعلها اكثر بساطة وأقلّ

ثمناً ، من مثل تقصير ذيل « الغنباز » الاحمر والبنفسجي ،  
واستبقاء نصف ذيل الرداء Cappa ، وجعل الملابس البنفسجية  
في ايام الصوم والتوبة من الصوف عوض الحرير ، الخ ...

ومع ذلك فقد قدر افضل الحياطين الكنسين في رومية  
نفقات الملابس الكردينالية كما يلي : ١٢٠,٠٠٠ لير للغنباز  
الاحمر ؛ ١٠٠,٠٠٠ لير للغنباز الصوف ؛ ٩٠,٠٠٠ ل  
الرداء الكبير في الزيارات وهو من الصوف القرمزي ، مع  
ما يلزم له من مخمل وحرير ؛ - ٩٠,٠٠٠ ل مثله بنفسجياً ؛ -  
٦٠,٠٠٠ لبلرين حرير احمر متموج ؛ ٦٠,٠٠٠ ل مثله بنفسجياً ؛  
للوشاح الكبير Cappa Magna من القرمز المتموج مع ذيله ،  
٨٥,٠٠٠ ل ؛ - مثله بنفسجياً ٨٥,٠٠٠ ل ؛ - لفروة ارنب  
قلبس فوق رداء الزيارات ، ٢٥,٠٠٠ ل ؛ - لزنار القرمزي  
التموج مع شراريبه المذهبة ، ٢٣,٠٠٠ ل ؛ - لزنار مع شراريب  
حمراء من الحرير ، ٨,٠٠٠ ل ؛ - لبلرين من الصوف اسود  
بنصف كمّ مبطن بحرير احمر ٢,٥٠٠ ل .

اما القبعات فانه بحاجة الى ثلاث منها : حمراء من جلد  
قدس Castor للحفلات الحارقة ، ثمنها : ٢٥,٠٠٠ ل ؛  
- وسوداء من الجلد عينه بشريط مذهب للحفلات العادية ؛  
٢٠,٠٠٠ ل ؛ - وعادية بشريط مذهب : ٨,٠٠٠ ل . اما  
القبعة التي يسلّمها البابا الى امير الكنيسة الجديد ، بصورة  
حافلة ، فهي تقدمة من قداسته .

والعادة ان يُهدي الى الكردينال الجديد ذوه او  
اصداقؤه صليب الصدر والتاج والحاتم ، الخ ... الا اذا  
كانت لديه من قبل . وعلى كل ، فهذه ائمانها على وجه  
التقريب : صليب الصدر من ذهب وحجارة كريمة ،  
١٠٠,٠٠٠ ل ؛ - سلسلة ذهبية للصليب ، ١٣٠,٠٠٠ ل ؛ -  
خاتم من ذهب وفضة ، ٥٠,٠٠٠ ل ؛ - التاج ١٠٠,٠٠٠ ل ؛  
- العكاز ، ١٠٠,٠٠٠ ل ؛ ( المجموع : ١,٣٢١,٥٠٠ لير )

هذا في شأن ملابس الكردينال المدنية ، اذا صحَّ  
القول ؛ اما الحلل الحبرية الكنسية التي يحتاج اليها ، اذا  
كان اسقفًا ، فهي نفسها التي يرتديها الاساقفة للقيام بالحفلات  
الطقسية ، لان الكردينالية ليست سوى رتبة شرفية ، لا  
تولي صاحبها اي وسم مقدس .

### ٣ - امراء الكنيسة في دورهم .

ارسل الى الكردينال سيارته ، وهي طويلة سوداء  
مقفلة سيئة الحالة ، يسوقها الاخ الكسي . فصعدت  
اليها وانطلقنا سراعاً نحو دار صغيرة في احدى ضواحي  
رومية الانيقة ، وضعها تحت تصرف الكردينال ، للانتفاع  
بالسكنى فيها ، بعد ان صار كردينالاً ، احد الموسرين  
المحسنين الى رهبانيته ( لانه من رهبانية قانونية ) ، كما

انه تبرّع بما يقوم بنفقة الجهاز المقروض على امراء الكنيسة  
الجدد ، لان الكردينال كان لا يملك شروى نقيز  
شخصياً ، ورهبانيته من الفقر بحيث تعجز عن القيام بهذه  
النفقات .

وقد خصّت الرهبانية بعض الاخوة من الرهبان الشبان  
بخدمته في دار سكناه . فكان منهم الاخ السائق ،  
والاخ الطاهي ، والاخ السكرتير ، والاخ الخادم .  
وكان يقوم لديه بمنزلة مرافق شرف Gentilhomme ، وفقاً  
لما تقتضيه اصول التشريفات ، صديق انكليزي قديم ،  
يعيش في رومية من ريع ضئيل ؛ وفي الحفلات الرسمية ،  
كان يحمل رداؤه شاب استدعاه ، من الريف ، عمه الغني المقيم  
بالقرب من دار الكردينال .

ان الاخ الكسي سائق ماهر . فها نحن بحضرة شيخ  
ضعيف البنية ، كبير القامة ، حنت ظهره السنون . تتطلع  
من جانبه فتخال وجهه منحوتاً في قطعة من عاج . وكان  
امامه قصاصة ورق قديمة ، يضيق جفون عينيه ليستطيع  
قراءة خطوطها الدقيقة بنظره الحسير . فلما دخلنا ألقى عليّ  
نظرة ولد صافية عميقة ، وابتسم ، واخذ يفتش تحت  
الاوراق المتراكمة على مكتبه عن خاتمه الاسقفي ، فوجده  
وادخله في اصبعه ، ومدّ يمينه اليّ وقال : هيا هيا ،  
يا بُني ، قبل هذا الحاتم تريح بعض الغفرانات .



وبعد قليل 'قرع الباب بغاية الهدوء ، فانقطع الحديث الذي كان قد بدأ يدور بيننا : - الغداء حاضر .  
قمنا فاجتزنا ردهتين صغيرتين للاستقبال ، مقاعدهما حمراء .  
وفي غرفة الطعام خوان مستدير أعيد لحمة اشخاص :  
الكردينال ، والاخ السائق ، والاخ الخادم ، والاخ السكرتير ،  
وانا . فتلونا جميعاً صلاة تبريك الطعام ، وجلسنا . فاحضر  
الاخ الطاهي صحن المعكرونة من نوع الساجتي ، واتبعه  
بآخر من الكوسا بزيت ، ثم بقطعة لحم ، فالجبة ، فمررت  
الفاكهة . وكانت خمرة فراسكاقي تشع في دنتها الزجاجي  
الصافي . وعند نهاية الطعام ، كان فنجان من مغلي  
الزهور من حق الكردينال وضيفه فقط . وبعد  
الطعام تلونا معاً في المعبد الخاص بيتاً من مسبحة العذراء  
مريم . وعادنا الى ردهة الاستقبال . وهناك جلس  
الكردينال ، اكراماً لضيفه ، الى البيان ، فامعنا قطعتين  
موسيقيتين : « صلاة عذراء » و « الفتى هنري » ، شُف  
بهما آذاننا .

على ان سائر الكرادلة لا يعيشون بمثل هذا التقشف  
والنسك كالكردينال ليبسيه Lépicier . فكرادلة الدواوين  
في حالة مالية لا تدعو الى هدوء البال ، لان المتحدثين  
من اسر نبيلة ، عريقة وغنية ، اصبحوا نادرين . فيعيش  
الكردينال اليوم من الموارد التي تضمنها له الوظيفة التي

يشغلها . فمن كان منهم في الدواوين ، خُصّ براتب  
سنوي يراوح بين ثلاثة واربعة ملايين لير ، تقدمه اليه  
ادارة ارزاق الكرسي الرسولي . ويُقدّم الى الكردينال  
الذي يشرف على ادارة مجمع من الجامع المقدسة ، علاوة  
على ذلك ، راتب شهري قدره نحو ١٥٠,٠٠٠ لير ،  
يضاف اليه مبلغ آخر زهيد اذا كان عضواً في مجامع  
اخرى . على ان كل هذا قد لا يسد نفقة بيت يفرض  
عليه نظام التشريفات مقتضيات عديدة .

وفقاً لمقررات مجمع الاحتفالات ، يجب ان يتسيز منزل  
الكردينال بالخصائص التالية : سلّم خارجية جميلة المنظر ،  
لا علاقة لها بسلّم الخدمة ، غرف السكنى الخاصة ، رواق  
صغير ، قاعة انتظار ، قاعة اجتماع ، ردهة العرش ، ردهة  
استقبال ، ومعبّد خاص . ويجب ان يعلو باب الرواق  
مظلة او قبة مبطنة بالجوخ الاحمر ، وان يوضع الى  
جانب منه ، تحت قبة كالسابقة ، تدلى منها اهداب من  
حرير اصفر ، مقعد ووسادته مغطيان بقماش من  
صوف احمر ، يتوسط الوسادة شعار الكردينال .  
ويجب ان يزين هذا الشعار ابواب قاعة الانتظار ، حيث  
لا بدّ من قطعة أثاث توضع عليها قلنسوة الكردينال  
المثلثة القرون Barrette . اما قاعة العرش فتفرش باقمشة  
ارجوانية ، وعلى الجدار الاقصى منها قبة حمراء باهدابها

المذهبة تمتد فوق صورة الجبر الاعظم .

ولكل كردينال « عائلته » اي بلاطه . وبالرغم من الظروف الحاضرة ، فهي ما زالت تتألف ، على الاقل ، من كاهن رئيس غرفة ، ومرافق من الاشراف ، وكاهن يحمل الذيل ، ورئيس خدم . ولكل من هؤلاء بزة رسمية يحتم بها نظام الاحتفالات . فالشريف يرتدي بنطلوناً من حرير اسود وسترة متموجة ، ويلبس جوارب حريرية وحذاء ذا بزم فضي ، ويحمل سيفاً قصيراً ، وعلى رأسه قبة بقرنين وریش نعامة سود .

ولا بد للكردينال من سيارة وسائقها . فالمفروض مبدئياً ألا يمشي الكرادلة في شوارع رومية . ولكنهم قد يخالفون هذه القاعدة . على انهم نُبّهوا الى تجنب الشوارع المطروقة .

ان القيام بنفقات بيت على هذا الشكل ليس بالامر الهين . ولهذا يقيم معظم كرادلة الدواوين في دارات رسمية بالقرب من القاتيكان ، إما في الجامع التي يديرونها ، وإما في القصور الرسولية العديدة خارج حاضرة القاتيكان . فقصر مجمع الستيفش وحده يتسع لسكنى خمسة كرادلة .

واكثر امراء الكنيسة المعوزين يعولون على بعض موارد اضافية . فكرادلة الدواوين جميعاً يعينهم البابا

« حماة » للعديد من الرهبانيات وجميعات الراهبات ليدافعوا عن مصالحها في رومية . ويتم التعين وفقاً لحالة الكردينال المالية . فمن كان في سعة يعين لحماية رهبانيات فقيرة محتاجة ، بخلاف من كان في حاجة فيجعل حامياً لبعض اديرة ميسورة يمكنها ان تتوفر على مدّة بشيء من المساعدة ، او على الاقل ان تدعوه الى قضاء عطلة الصيفية ضيفاً كريماً عليها .

وهناك طريقة نادرة ، ولكن جد فعالة ، لزيادة دخل الكرادلة ، هي تمثيل البابا . فاذا اقيمت اعياد حافلة في بلد ما ، وأوفد البابا كردينالاً من قبله ، يمثل شخصه بالذات ، فيستقبل بمظاهر الحفاوة والتكريم التي تحق للحبر الاعظم نفسه . وكان لبعض هذه « القصادات » ، في تاريخ الكنيسة الحديث ، شأن يذكر بسبب نتائجها الموفقة . منها مثلاً ايفاد الكردينال باتشلي الى لورد والى ليزيو في فرنسا ، احتفاءً بالاعیاد التي اقيمت في الاولى للعدراء مريم ، وفي الاخرى للقديسة تريزيا الطفل يسوع . وبلدان اميركا الجنوبية ، العريقة في الكتلكة والحساسة بمظاهر البهرج الخارجي ، تعدّ لمثل البابا استقبال الظافرين . وبهذه المناسبة تقدم اليه هدايا ثمينة . وقد اخبر الكردينال روفيني Ruffini ، مطران رافنا ، انه كان يمثل البابا مرة ، فدعته اسرة غنية لتناول الطعام . فما كان اشد دهشته ،

اذ جاءه الغلمان ، في آخر الوليمة ، بقرص كبير من الحلوى ، فقطعه فوجد فيه الماسة ثمينة : تقدمه احترام من رب البيت الى ممثل البابا .

#### ٤- بساطة كرادلة الدواوين في معيشتهم .

انقضى و زال الى الابد ، على ما يظهر ، عهد كرادلة عصور النهضة . فلم يعد في الكنيسة الآن امثال اولئك الكرادلة ، مناصري العلوم والفنون ، وحفظة الفنانين والعلماء والادباء ، المحنكين في مدد الموائد ، المعنين بالخيال والصيد ومواكبها ، الذين يوقهم عزف الموسيقى وتمثيل الروايات ؛ وقد يزجون بانفسهم في دسائس سياسية ، ومكائد ومغامرات اخرى . فالكتبة القصصيون : بورجه و دنتزيو وزولا ، شاهدوا بعضاً من امراء الكنيسة متجلبين بالارجوان ، يقومون بنزهتهم بكل ابهة ، على الطريق الأبية Via Appia على مدخل رومية . وكانت الشمس تلقي اشعتها المحترقة على قناطر الماء الحمراء والمدافن الوردية اللون ؛ وعجلة الكردينال تمر بمحذاتها وخادم نيافته ببزته الرسمية ، متأثرة خطوات شيخ يرتدي الارجوان المتسوج . فالكرادلة في تلك الازمنة كانوا يحافظون على التقليد الذي يحظر عليهم ان يدوسوا ارض المدينة الحادة ، فكانت لهم مواكبهم ولم يكونوا

يتورعون عن الظهور بالملابس الباهرة التي كانت تفرضها عليهم دوائر القاتيكان .

اما اليوم ، فانك غالباً ما تصادف في وسط المدينة ، اميراً من امراء الكنيسة يسير على قدميه ، متكرراً برداء اسود طويل ، كاحد الاكليزيين العاديين .

غير ان كرادلة رومانيين لا يزالون يملكون حتى اليوم قصوراً في جبال الابروز Abruzzes او في فراسكاتي Frascati بالقرب من رومية ، حيث يعنوث بالكرمة ، ويجلسون الى موائد لا ينقصها شيء من الوان الطعام والشراب . وهم لا يخرجون على طريقة المعيشة الصارمة الدارجة في رومية العصرية ، فيكون مثل زملائهم على العمل الشاق ، و قليلاً ما يشتركون في موائد العشاء لدى السفراء ، او في السهرات التي تحييها الارستقراطية « السوداء » ( الاكليزية ) ؛ وقد تلمحهم احياناً في سياراتهم السود الطويلة من وراء ستاراتها ، وكأن الاحتفالات الطقسية الفخمة و اريج البخور قد عودتهم رفع الرأس عالياً مشغراً ، ومشية مهيبة مسطرة .

ولكنهم يستعيدون ، في دائرة اقطاعهم ، مظاهر السادة العظام . فالقرية برومتها تعرف ، بكل سهولة ، بوصول صاحب النياقة ، فتزحف الى لقياءه . ويبدأ عميد



الكهنة او كاهن الرعية ، فيقدم اليه هدايا شبه طقسية ، ويتبعه الوجوه والاعوان . ثم توفد الافران لاعداد الطعام للاصدقاء المدعوين من رومية . ويغتم السكان كل فرصة لينصبوا على شرف كرديناهم اقواس النصر ، ويستقروا جدران منازلهم من الخارج باعلانات كتبت بسرعة لاکرام « المحسن الكبير » و « الحامي القدير » الذي « يأتي باسم الرب » . وحتى في داخل الكنيسة ، تشيد صحائف الرخام بعبارات منمقة بسخاء الكردينال . وليس في القرية من لا يتمنى ، حتى لو كان شيعياً ، ان يرى يوماً « كرديناله » جالساً على عرش مار بطرس .

على ان الكردينال العصري ليس من هذا الطراز . فهناك من يجوب العالم بالطيارة ، مثل اسباني ؛ ومن يقتحم المصانع فيخطف في العملة الشيوعيين ، مثل لوكارو مطران بولونية ؛ او يتنقل بين الهند والولايات المتحدة الاميركية ، مثل تيسران ، عميد مجمع الكرادلة . انه لدهش حقاً اختلاف الاجواء التي يعيش فيها ، من جهة ، الكرادلة رؤساء الابرشيات ، المتأهبون دائماً للقتال ، والمضطرون الى مجازاة الحياة العصرية في سيرها الجامع ؛ ومن الجهة الثانية ، كرادلة الدواوين الرومانية الذين يقتبسون ، في حاضرة القاتيكان الصغيرة ، دروساً في الفطنة والدراية كأنها مقتبسة من اهل الريف .

ان عدد كرادلة الدواوين ينقص شيئاً فشيئاً ، فانهم حالياً تسعة عشر كردينالاً ، وكلهم ايطاليون ، ما عدا واحداً فقط ، هو عميدهم ، المولود سنة ١٨٨٤ . فهو بسنّه احد اصاغر الكرادلة المقيمين في رومية ، ولكنه اقدمهم في الكردينالية . ان معدل عمر كرادلة الدواوين مرتفع جداً ، فكأن جمع الكرادلة يطيل العمر . فبينهم اليوم اثنا عشر كردينالاً تجاوزوا الثمانين ، وسبعة وعشرون فوق السبعين .

ليس كرادلة الدواوين في الغالب من الرجال اللامعين . فقد كانت الكردينالية في رومية مكافأة لموظفين دنا اجلهم او قضوا حياتهم عاملين باهلية وصدق وتجرد في خدمة القاتيكان . ثم إن بعضهم مدين بهذا المقام الرفيع للصدف والطوارئ .

ويحدث احياناً ان الكرادلة ، القيمين على الجامع المقدسة ، يشيخون في مناصبهم ، فينجم من ذلك مشاكل عويصة ، لانه ليس اصعب من استبدال الشيوخ ، في القاتيكان ، بآخرين اقل منهم هرماء . فيلجأ البابا آتئذ الى استعمال ملء سلطته ، والى شيء من القساوة ، ليوجب ، بقوة سلطانه المطلق ، على احد امراء الكنيسة اخلاء المنصب الذي ما عاد يقوى على القيام بمقتضياته . وبين هؤلاء نفرٌ يقومون برئاسة الجامع ، ولا يصرون بعناد على

مواصلة العمل فوق طاقتهم فحسب ، بل يشغلون احياناً  
اكثر من منصب واحد . فينشأ عن ذلك تأجيل تعيينات  
جديدة في ميقاتها ، وعراقيل اخرى لا يستطيع البابا الحالي  
ازاحتها بالنسبة الى طبعه ومزاجه ، فيؤثر تجنب الاصطدام  
بها على اتخاذ قرارٍ عنيف بشأنها .

وبين كرادلة الدواوين ، واحد لا غير لا يذهب الى  
الفاتيكان ، هو الكردينال جوريو Jorio ، المولود سنة  
١٨٦٧ . وليس ذلك بسبب تقدمه في السن فحسب ، بل  
لانه يتعمد التبيان ، بهذه الطريقة ، عن معارضته للخطّة  
التي يسلكها البابا الحالي في سياسة الكنيسة . فالكردينال  
جوريو كان من الاقلية التي قالت ، سنة ١٩٣٩ ، بوجوب انتخاب  
رئيس الكنيسة من الرعاة الذين غرسوا في خدمة النفوس ،  
ويولون الروحانيات الاولى والافضلية .

### القسم الثالث

#### الدواوين الرومانية

## الفصل الاول

### موظفو الدواوين الرومانية

#### ١ - الموظفون ودرجاتهم.

هوذا الساعة الكبرى ، في ساحة القديس داماز في قلب  
الفاتيكان ، تدق الواحدة والنصف ظهراً . فيركز الدركي  
البابوي قلبه الضخم ، وتصرف مصاعد وزارة الدولة  
صريفها ، وان هي الا طرفة عين حتى تقص الساحة والاروقة  
والسلام المرمرية باسراب من الغنايز السود ، تتخللها هنا  
وهناك جيب بنفسجية مهيبة ، يسرع لابسوها الى حيث تنتظرهم  
قصعة من المعكرونة الساخنة الفائرة ، تليها القيلولة التي تطيب  
لسكان شواطئ البحر المتوسط .

وفي هذه الساعة ، ترى المشهد عينه في قصر القديس  
كالست الفسيح الارزاء الذي يضم عدة مجامع مقدسة ؛  
وفي ممرات مجمع الكنيسة الشرقية ، حيث تتجاوب  
الوشوشات ؛ ووراء ابواب مجمع السنتفيس ، حيث « الدخول  
ممنوع » ؛ وفي مجمع نشر الايمان ، المقر العام للرسالات ؛ وفي  
محكمة الروتا ، وديوان الحتم الرسولي ؛ وجمع التوبة ،



وسائر القصور التي يملكها الكرسي الرسولي في رومية خارج  
حاضرة القاتيكان .

الساعة الواحدة والنصف هي ميعاد خروج الاكليوسيين  
موظفي الدواوين الرومانيين من مكاتبهم .

بين هذا الجمهور الفقير من كهنة يجتاحون فجأة شوارع  
القاتيكان وقصور الكرسي الرسولي ، نجد كهنة عادين ،  
ومنسورية ورهباناً خصّهم رؤساؤهم بخدمة ادارة الكنيسة  
المركزية . واذا استثنينا قلّة تؤثر دوماً التواضع والدعة  
على شرف المراتب ، يُصبح الموظف القاتيكاني ، بعد  
بضع سنين ، بطريقة آلية ، منسبوراً ، شرط ان يكون  
اميناً في خدمته ، ومن الاكليوس العلماني ، لان الرهبان ،  
وهم من اهل الزهد والنسك ، يعزبون على مدى الحياة عن  
قبول المراتب الشرفية .

على ان للقب منسيور درجات متفاوتة عديدة ، وفقاً  
لأهمية الوظيفة التي يشغلها حامل اللقب في الدواوين . وتقاس  
هذه الدرجات بفروق دقيقة في اللون البنفسجي البادي على  
الجوارب وازرار الملابس وعلى الشرائط والاردية التي يحق  
لبسها سواء في الحفلات الكنسية الطقسية او في الاستقبالات  
المدنية الرسمية . فالارجوان علامة الدرجة العليا ، اي  
الكردينالية ، اذ ان الابيض محفوظ للجبر الاعظم . وكما  
علت درجة الموظف ، تبدل فروق اللون البنفسجي من الزاهي

الى الحمري فالقرمزي .

ان عدد الموظفين الاكليوسيين في الدواوين الرومانية  
يناهز الالف ، ما عدا اصحاب المقامات العالية : الكرادلة  
والمطارنة والاساقفة الذين يديرون المجامع . وليس بين الموظفين  
من العلمانيين سوى بعض خبراء ومستشارين او صغار  
الموظفين . وانه ، والحق يقال ، لعدد ضئيل جداً بالنسبة الى  
حكومة تُجعل العالم بأسره دائرتها الاقليمية ، فضلاً عن  
ولايتها على النفوس .

## ٢ - نظام الموظفين الداخلي .

سنة ١٩٥١ ، اذاع البابا بيوس الثاني عشر نظاماً دقيقاً ،  
حدّد فيه شروط انتقاء الموظفين وموجبات سلوكهم .  
والجبر الاعظم يعيّن بذاته اصحاب المقامات والمراتب  
العليا ، وتبلغهم وزارة الدولة تعيينهم ببطاقة منها . ومن  
دونهم من الموظفين ، فيعيّنون عادة باتفاق خاص بين رئيس  
المجمع والاسقف او الرئيس العام ، صاحب الولاية على المرشح  
للوظيفة ، ومن المقرر ان لا يقل عمره عن اربع وعشرين  
سنة ، ولا يزيد على خمس وثلاثين ، ومن عائلة معروفة  
بحسن الاخلاق والتدين ، ومشهود له بحسن السلوك الديني  
والادبي والوطني ، وان يكون في حلٍّ من الخدمة  
العسكرية . ويشترط في الاكليوسي ان يكون حائزاً ،

مبدئياً ، مآذونية في اللاهوت ، واخرى في الحق القانوني ، على الأقل ، وان يُتقن لغتين عصريتين ، ويعرف بسهولة اللغة اللاتينية .

وبصرح البند الثاني عشر من النظام الداخلي بان على كل موظف في الدواوين ان يُقسم اليمين التالية : « باسم الرب ، انا فلان الفلاني اعلن واعد واقسم اني اكون مطيعاً على الدوام للطوباوي مار بطرس ولسيدنا البابا فلان ولخلفائه الشرعيين ، واني اقوم بكل اجتهاد بالمهام التي توكل اليّ في هذا المجمع ، واحفظ بكل دقة سر المهنة ، وأعد ايضاً اني لا اقبل اية عطية ، ولو كانت على سبيل الهدية . وعلى هذا فليكن الله في عوني ، وهذه الانجيل المقدسة التي المسها » .

ويقضي البند الثالث عشر على الاكليسيين ان يبرزوا صك الايمان والقسم المفروض ضد مذهب « العصرية » .

ويستدرك النظام ، وواضعه هو الكردينال كنالي المشهور بدقته ، كل ما يتوقع حدوثه للموظفين ، ويحرص على حفظ سلطة الرؤساء قبل كل شيء . من ذلك ، مثلاً ، انه في الحالات القليلة جداً التي فيها يتم اختيار الموظفين بطريقة المباراة ، لا يقبل احد في المباراة إلا بقرار أعلى من الكردينال رئيس المجمع . واذا تعيّب احد الموظفين ، فعلى رفاقه في المجمع ان يكونوا دوماً تحت تصرف الرؤساء ليقوموا مقامه ، بدون ان يحق لهم تعويض

ما بسبب ذلك .

ويورد البند الاربعون سلسلة طويلة مما يُحظر على الموظفين : لا يؤذن لهم ، في ساعات العمل ، ان يتعادثوا ، او يستقبلوا ، او يتغيّبوا ، ولو وقتاً قصيراً جداً ، بدون رخصة من الرؤساء . ويحرم عليهم قبول تقادم مالية او عينية ، والانخراط في احزاب سياسية ، والاستراك في جمعيات او منظمات لا تتلاءم تعاليمها وانظمتها وتعليم الكنيسة ونظامها . ومن حصل من الموظفين على انعام السكني داخل حاضرة الفاتيكان ، فيتوجب عليه ان يقيّض للرؤساء الاتصال به بسرعة ، عند الحاجة ، في اية ساعة كانت من النهار او الليل . وعليه ان يقوم بما ينتدّب له من عمل عند الضرورة ، حتى لو كان ذلك علاوة على عمله القانوني . ومن لا يتم هذه الشروط ، يتعرض لخسرات منزله الفاتيكاني ، بقوة السلطة المطلقة المعطاة للرؤساء .

ولا يحمل النظام الداخلي تعيين اسباب العزل . فمنها افشاء السر ، والوقوع تحت عبء الديون ، وارثكاب ما من شأنه ان يضر سمعة المجمع او ينال من كرامة الكرسي الرسولي ، واقامة دعاوى على موظف حتى لو انتهت بتبرئته ، الخ ...

اما المعاشات فبجد زهيدة . فالموظف لا يعطى في البدء اكثر من ٤,٠٠٠ لير ايطالي شهرياً ( ٢٠,٠٠٠ قرش

لبناني ) ؛ والموظف العادي نحو ٨٠,٠٠٠ لير ؛ ومن وصل الى الذروة في ملاك وظيفته فلا يزيد مرتبه على ١٥٠,٠٠٠ لير شهرياً ، وهو مرتب كردينال رئيس مجمع . وقد جعل معاش الاكليوسيين اعلى قليلاً من معاش اندادهم العلمانيين ، لان الكهنة عادة لا يقبضون تعويضات عائلية ، حتى لو كان على عاتقهم اعادة والديهم ، ولانهم الموظفون الاصليون في الدواوين ، في حين ان العلمانيين ليسوا موظفين فيها الا بطريقة التساهل والتسامح .

ليس للموظفين اية منظمة نقابية ، وليس في استطاعتهم تقديم مطالب جماعية . ومن المعروف ان للرؤساء قمع كل محاولة من هذا النوع على وجه السرعة ، بقوة سلطتهم غير المحدودة . على ان موظفي الدواوين قد انشأوا سنة ١٩٥٣ جمعية اسعاف متبادل .

وبعد ان يخدم الموظف خمسة وثلاثين عاماً ، يحق له التقاعد ، وقيمته توازي المعاش النهائي تقريباً ما عدا التعويضات .

هذا وقد خصّ فريق من الموظفين ببعض الانعامات ، وهم العاملون في المصرف القاتيكاني الذي يدعى : « مؤسسة الاعمال الدينية » . فان بين عماله نحو خمسة عشر اختصاصياً من الاكليوسيين والعلمانيين ، وهم ينعمون بنظام خاص وبعاشات تفوق بكثير معاشات زملائهم في سائر الدوائر الرومانية .

### ٣ - الموظفون وطريقة معيشتهم .

ليس من غرابة ، والحالة هذه ، ان يضطر موظفو الدواوين الى الاكتفاء بعيشة وضيفة جداً . فانهم يسكنون اديرة ، ويتمنون من مخازن حاضرة القاتيكان ، حيث الحاجيات ارخص سعراً منها في رومية ، بسبب اعفائها من رسوم الجمر . وقد يلجأون احياناً الى تجاوز نظامهم ، فيقومون ببعض اعمال خارج المجمع ، ليتسكنوا من تسديد نفقات حاجاتهم آخر الشهر .

على ان في استطاعتهم جميعاً الاستعانة بمحسنيات القداديس التي قد لا يستغني عنها الكثيرون منهم . ومعلوم ان المؤمنين يرسلون الى القاتيكان من الاقطار الاربعة حسانات لاقامة قداديس في كنيسة مار بطرس الباسيلية او سواها من كنائس رومية ، كما ان الاساقفة والزوار الوافدين الى رومية يقدمون حسانات للغاية نفسها . فتجمع هذه الحسانات في مكتب رئيس غرفة قداسته ، وتوزع بعدل على الموظفين بحسب حاجة كل منهم ، لقاء تعهدهم باقامة القداديس المطلوبة على نية المحسنين .

ولكن حالة بعض الموظفين في الدواوين وفي البلاط الرسولي لا تبعد كثيراً في الغالب عن الفاقة . فان منسنيوراً جليلاً ، تحاشياً للتورط في العوز ، قد اضطر الى العمل كدليل في متاحف القاتيكان ؛ ولكنه



لا يؤدي هذه الخدمة الا الى اصدقاء اصدقائه حرمة  
لمنصبه ومقامه . ومن المشتهرات الموسيقي الكبير ،  
لورنزو برونزي Perosi ، المدير الدائم لجوقة المبد السبسي ،  
لم يتغلب على صعاب المعيشة الا بفضل حملة صحفية قامت  
صدفة في ايطاليا ، فاسترعت انتباه الرؤساء الى احد ايجاد  
القائكان في ايامنا . هذا وليس لبعض الكرادلة مندوحة  
عن قبول الضيافة في دير راهبات ، او في بيت صديق  
من الالمانين .

على ان موظفي القاتكان خليقون ، وائم الحق ،  
بخط افضل . فهم يعنون بتسيير الاعمال في دوائر الكنيسة  
المركزية على احسن وجه . فاليهم ينتهي بريد ضخم ، يرد  
من كل بلدان العالم . وعليهم ان يرتبوا المحفوظات ،  
ويصنّفوها ، ويضعوا لها العناوين ، ويعلّقوا عليها الحواشي .  
فلا شيء يضيع ، ولا شيء ينسى ، في الكنيسة ، منذ  
الفي سنة . فاذا اقتصرنا على محفوظات دائرة الحتم الرسولي  
وحدها ، فانها تحوي وثائق السنوات الالف الاخيرة في  
اكثر من خمسة آلاف مجلد ضخم ، فضلاً عن انها تحفظ  
مجموعات يعود تاريخها الى سنة ٢٣٨ م . ومن موظفي  
الدوائر في المحاكم من يحققون الدعاوي ويصدرون  
الاحكام .

فهذا الجيش من الموظفين الرومانيين يضع يده على ادارة

الكنيسة برمتها ، فان في ملفاته وثائق اعلان القديسين الى  
جانب مراسيم الحرم الصادرة بحق المارقين والمذنبين ؛ وقيود  
تعين الاساقفة حذاء تثبت قانون رهبانية جديدة ؛ وتسجيل  
مشتوى اراضٍ للكرسي الرسولي بجوار اضبارات العلاقات  
الدقيقة بسائر الكنائس المسيحية . ان حياة الكنيسة  
اليومية في العالم اجمع تمر بين ايدي هؤلاء المنسبورية  
العاملين في الدواوين . وهم ، وان حرموا حق التصويت ،  
فليست قوتهم بسبب ذلك غير ذات شأن . فهم الذين  
يخلقون في رومية جوّها العسير اكتناهم ، ويُعدّون بصبر وافاة  
الرأي العام في العاصمة . وقد يجهدون ، على غير علم منهم  
احياناً ، في الهيمنة بسطوتهم على كبار الرؤساء ،  
كالكرادلة وسائر اصحاب المقامات العليا ، فيصبحون إما  
خصوصاً فيُخشّون ، وإما شركاء فيُرجون .  
وفوق ذلك ، فان الشيخ ، القابع منعزلاً في ذروة  
البناء ، قد لا يُفلت من الضغط الهائل الذي يُجرونه  
عليه .

#### ٤ - تدويل الدواوين . جنسية البابا .

من وقت الى آخر ، يخطر على بال بعض الباباوات  
ان يجري اصلاحات في الدواوين ، فيبذل الجهود في هذا  
السبيل . فالبابا القديس بيوس العاشر اعاد تنظيم دوائرها

فجعلها مطابقة لمقتضيات الازمنة الحاضرة . ويعزى الى البابا بيوس الثاني عشر انه كان عازماً على تطويرها بنوع ثوري ، لو لم تطفُ عليه الاشتغال ، ويتول بنفسه وزارة الدولة ؛ فضلاً عن انه انصرف الى مهام اخرى حالت دون تمكنه من معالجة مشاكل الدواوين .

وحاول البابا تدويل الموظفين الاداريين ، فبدأ ذلك في بعض الدوائر ، ولاسيما وزارة الدولة ، ولكن الاكثرية الساحقة من الموظفين المركزيين هم بنوع عام ايطاليون . والعاملون في الدواوين من اكليسيين اجانب انما هم ، في الغالب ، من خريجي الاكليسيات والمعاهد الرومانية ، حيث قضوا سنين عديدة في الدرس والتأديب ، فلا يلجون ابواب المناصب الخطيرة الا بعد ان يكونوا قد اصبحوا نوعاً ما رومانيين .

ان تغلب العنصر الايطالي في الوظائف على غيره لا يبدل شيئاً على الاطلاق في خصائص الكنيسة الجوهريّة ؛ كما ان جنسية البابا لا تبدل شيئاً في المقام السامي الذي يشغله . فقد نشأ تقليد في هذا الشأن ، ( وقد تعبت به مفاجآت انتخابية مستطاعة كل حين ) ، ولكنه تقليد منطقي ، على ما يظهر ، لان البابا امقف رومية ، ورومية مدينة ايطالية ؛ كما انه تقليد حكيم كذلك ، اذ لولاه لبلغت المزاحمة القومية ذروتها ، واقيم

شأن قومي لانتخابه كلما عرض انتخاب بابا جديد . على ان البابا ، كل بابا ، بدافع شمول المشاكل التي تتقاطر ، كل دقيقة ، نحو الفاتيكان من كل الآفاق ، لا يعود يختص ببلد ، اي بلد ، عندما تطرح على بساط البحث المعضلات الكبرى التي تواجهها الكنيسة جمعاء . فيصبح البابا حينئذٍ ، اية كانت جنسيته ، حامي العقيدة ، والعقيدة هي نفسها تحميه من كل انحراف قومي فيما يلامس شؤون الايمان .

لكن الامر ليس كذلك بين الموظفين الثانويين الذين يملأون الوزارات والمكاتب الرومانية . فهنا الاحقاد القومية ، والتعصب الوطني ، والضغائن السياسية ، تلعب دورها الحفيّر . فتعاني الحجة المسيحية ، وخاصة في هذه الحقبة المضطربة من تاريخ العالم ، صعوبة حمة في اخماد النزعات المستعصية وتخفيف الصدمات .

ان النواة الايطالية في الدواوين ، وقد تحدّرت من اكليرس ايطالي متمسك بمجملته بروح المحافظين وبالاراء القويّة ، تضطرب بسرعة كلما وصلتها اخبار من وراء الارياف الرومانية . فان الثورات ، اياً كان مصدرها ، ترهبها ، وانقلاب الانظمة الحكومية يقلقها . انها تحترم الالقب التي لا يفوقها احد في ممارستها ، ويلدّها لها ان تؤدى التمجيد الى التيجان الملكية حيث لا تزال بعد على الرؤوس . وكل نزعة الى التجديد

والاصلاح والمبادعات الجريئة في حياة الكثلثة اليومية ،  
تستفزا الى مقاومة لا اعنف منها ولا اضرى .

على ان بين هؤلاء الموظفين ، الذين كيقتهم قرون من  
الانضباط والتمرس والخبرة ، افراداً لا يخفون عن الاعين  
البصيرة ، قد اتصفوا بالهمة الوثابة ، والتواضع العميق ، والتقوى  
الحلوص . فهؤلاء الكهنة لا ينظرون الى الدواوين نظرتهم  
الى الادارات الاخرى ، ومشاكلها الناشئة عن عدد  
ساعات العمل وعن استحقاق الترقى . انهم يذهبون الى  
مكاتبهم ، متيقنين انهم يتتّون مهام مقدسة ، مهما كانت  
وضيعة . انهم يفكرون في ان الملكوت الذي يهتّون  
ويبنون انما هو ، في النتيجة ، ملكوت النفوس ، وليس من  
هذا العالم . انهم لا يعملون الا في قشرة خارجية هي  
ضرورية وناقصة معاً ، ولكنها تستبدل باللب الحلي الذي  
تلتفت عليه ، ويتغذى هو بالاسرار المقدسة . انهم  
يذهبون الى مكاتبهم كما الى كنيسة للقيام بفرض ديني . على  
انهم يخفون ما في نفوسهم من نشوة واندفاع تحت مسالك  
الفوها كاجارٍ مديرين على الرزانة والوقار .

ثم ان كثيرين من هؤلاء الكهنة والرهبان يحزّ في انفسهم  
ما في الحياة وراء المكاتب من جفاف ، لان  
دعوتهم تدفعهم في اتجاه مختلف . لهذا يحاولون احياناً التماس  
من الحياة الراتبة في المكاتب ليقوموا « بخدمة النفوس » .

فيجوبون ضواحي رومية كمرشدين روحيين متطوعين في  
المؤسسات التي تحنو على الاطفال المهملين ، وتحمي الطلبة  
الصغار من الاخطار المحدقة بهم ، وتثني بهداية العمال الى  
السبل القويمية ؛ ويزورون المرضى في اكواخهم القذرة ،  
ويسعفونهم بارشاداتهم ، ويشددونهم في تعاليم الايمان ، ويحيون  
فيهم الرجاء بالله ، اذ يشركونهم في اسرار الكنيسة ، ويزودون  
المشرفين منهم على الموت القربان الاقدس ، ويمسحونهم  
بالزيت المبارك .

ان هؤلاء الكهنة والرهبان تضيق نفوسهم الوثابة بما في  
الدواوين من فتور هادئ ناعم ، فيفرون منها الى حيث تجد  
حياتهم الروحية الحارة حقلاً تمتد فيه فتنيه وتحية .



## الفصل الثاني

### المجامع المقدسة

#### ١ - عوميات .

يقوم اليوم بإدارة الكنيسة احد عشر مجعاً Congrégations نذكرها بحسب اقدميتها : ١ - السنتفيس ؛ المجامع المقدسة : ٢ - للاساقفة la Consistoriale ؛ ٣ - للاسرار ؛ ٤ - للاكليروس العلماني وللشعب المسيحي Concile ؛ ٥ - للرهبان ؛ ٦ - لنشر الايمان ؛ ٧ - للطقوس Rites ؛ ٨ - للاحتفالات Cérémonial ؛ ٩ - للشؤون الحارقة العادة ؛ ١٠ - للمدارس الاكليوسية والجامعات ؛ ١١ - للكنيسة الشرقية .

ولكل مجمع كردينال يرئسه ، يدعى مقدم المجمع اي رئيسه Préfet ، باستثناء ثلاثة مجامع يرئسها البابا بذاته ، هي : السنتفيس ، ومجمع الاساقفة ، ومجمع الكنيسة الشرقية . وبلي الرئيس في المجمع اسقف او حبر يدعى المعاون Assesseur . اما المجمع الذي يرئسه البابا فالكردينال المولج بادارته يدعى سكرتير المجمع ، وهو بالفعل رئيسه ، ويليه المعاون .

يراد بكلمة مجمع بحصر المعنى فريقت من الكرادلة يعيّنهم الخبر الاعظم ، ويعود اليه وحده مبدئياً ان يتخذ القرارات النهائية . على ان هؤلاء الكرادلة قد لا يتسنى لهم دائماً التدقيق المقتضى في المسائل التي يدرسونها ، فلا يفي تداولهم بالغرض المقصود ، مما يجعل رؤساء الدوائر المختصين يرتكبون في تسيير الاعمال . ويخصّ بالذكر من هذه الناحية مجمع الشؤون الحارقة العادة الذي يدعى الى ابداء الرأي في معضلات سياسية دقيقة ، فيسبب في الغالب الى دُبلماسي وزارة الدولة الكثير من العناء وارتباك البال .

تلتئم جمعيات الكرادلة العامة Plénières في الفاتيكان بطريقة حافلة . وقبل الالتئام بعشرة ايام ، يرسل الى كل كردينال ملف القضايا المطروحة للبحث ، مرفقاً بملخص البراهين المثبتة والناقضة للقضية من وضع احد موظفي المجمع ، وبخلاصة الوثائق الهامة ، وبالاسئلة التي يجب الرد عليها ، وبتقرير المستشار ، وكلها مطبوعة في المطبعة الفاتيكانية التي يُقسّم عملها انهم يحفظون السر . ويكلف احد كرادلة الجمعية درس القضية بنوع خاصّ ويدعى المقرر Ponent . فييدي رأيه في اثناء التئام الجمعية العامة ، ويناقشه اياه سائر الكرادلة ، ويؤخذ القرار بأكثرية الاصوات . على ان هذا القرار لا يُصبح نافذاً إلا بعد ان يصدّقه الخبر الاعظم ، إلا اذا كانت القضية غير ذات شأن ، من تلك التي يفوض البابا الى

الكردينال رئيس المجمع المختص ان يبتها .

ويقصد كذلك بكلمة مجمع بالمعنى الواسع المكاتب التي تدرس فيها القضايا العائدة الى المجمع . وهنا يمثل الدور الاساسي الشخص الثاني في المجمع ( السكرتير في بعضها ، والمعاون في بعضها الآخر ) . وهو شبيه بدور المديرين العامين في الوزارات المدنية ، أعني ان عمله هام جداً ، ولو كان خفياً عن العموم . فهو العنصر الثابت الذي يهيء الجمعيات العامة ويعين المستشارين ويقرر الامور الجارية ؛ وهو يحظى ، في ايام معينة ، بمقابلة البابا اكثر من الكردينال نفسه احياناً .

وتعقد الدوائر القائمة في كل مجمع اجتماعات دورية مرة او مرتين في الاسبوع ، فيلتئم جمع كبار الموظفين بحضور الكردينال . وبقوة السلطة المفوضة اليهم ، يقررون ما يرونه بدون رفع الامر الى الجمعية الكردينالية العامة . وهذا ما يدعى المجلس Congressso . وعلى السكرتير او معاون ان يستشير في الامور الدقيقة .

وبين موظفي كل مجمع من يدعون المحررين Minutanti ، ومهمتهم تحرير المسودات ، يعاونهم النساخ والخطاطون والضاربون على الآلة الكاتبة ؛ وهم الذين يحرون معظم الوثائق بالاسلوب الروماني المألوف . وبينهم حفظة الخزانة الذين يصنفون الاضبارات ؛ والمحاسبون الذين يدونون على المراسم الصادرة عن المجمع قيمة الرسم الواجب اداؤه الى

الكرسي الرسولي ، وهو جد زهيد ؛ والموظفون الذين يقبضون هذه الرسوم ويوصلون الوثائق الى اصحابها . اما الحجاب والمباشرون فيُدعون بالاسماء اللاتينية Janitores و Cursores . بقي المستشارون . فهؤلاء ليسوا موظفين بخصر المعنى ، إلا انهم يمثلون دوراً خطيراً ، ومعظمهم من الرهبان ذوي الاختصاص . وغالباً ما يلجأ معاون الى كثيرين منهم ، فيدرس كل على انفراد ، بدون علم الآخرين ، القضية المطروحة للبحث . واذا صعب الوصول ، حتى بهذه الطريقة ، الى حل مرض في بعض قضايا شائكة ، فيدعى حينئذ جماعة من مشاهير اللاهوتيين والقانونيين الى عقد اجتماع للتداول واعطاء الرأي . اما اللغة الرسمية في الكنيسة فهي اللاتينية . على ان اللغة الدارجة في مكاتب الدواوين هي الايطالية .

## ٢ - مالية الكرسي الرسولي .

ليس للدواوين موازنة مالية ذاتية ، فمال الكرسي الرسولي يديره اكثر من منظمة ؛ ولسكان القاتيكان المتعددي الجنسيات مصرف يجرون فيه ما يحتاجون اليه من معاملات . اما قيمة الكنوز الثابتة التي تكون ثروة القاتيكان الفنية ، سواء في الكنائس الباسيلية او في القصور ، فليس في استطاعة احد ان يقدرها .

١ - لاموال الكرسي الرسولي دائرتان : الاولى هي

« الدائرة العادية لاملاك الكرسي الرسولي » ، وتمتع بسلطة مطلقة تقريباً ، ويشرف على اعمالها لجنة كردينية يرئسها الكردينال كنالي Canali ؛ والاخرى هي « الادارة الخاصة » التي تدير المال الذي دفعته ايطاليا سنة ١٩٢٩ الى الكرسي الرسولي لقاء وضع حد نهائي للقضية الرومانية المزمنة ، بتنازل البابا عن اراضي ملكه الزماني للدولة الايطالية . ويبلغ هذا المال ملياراً من السندات Titres ، و ٧٥٠ مليون لير من عملة الورق الايطالية .

والبابا بيوس الحادي عشر كان يدير بذاته هذه الثروة الطائلة ، لانه حتم على نفسه بان يحفظها خلفه كاملة بدون نقص . فلم يتصرف الا بربعها لانشاء بعض اشغال هامة في حاضرة الفاتيكان . فكان رأس المال عند وفاته سالماً غير ممسوس . ومنذئذ حدثت ارتجاجات في هذه المبالغ نتيجة لكل ازمة اقتصادية كان لصداها تجاوب في هذه الدائرة ، ولكن الكرسي الرسولي لا ينوي تحويل رأس ماله الى عملة نقدية ، فباستطاعته ان ينتظر بصبر انقراج الازمات ، ومن دأبه ان يجمع حوله مستشارين من ذوي الخبرة .

اما بيوس الثاني عشر فرفض الاهتمام بذاته بالادارة المالية . فانشأ « الادارة الخاصة » للمبالغ التي تسلمها الفاتيكان من الحكومة الايطالية ، ووضع على رأسها احد رجال المال

الايطاليين ، المهندس برنوردينو نوجارا Nogara ، الذي يقوم بعمله ، بمعاونة بعض الماليين الدوليين Petit Brain-Trust ، بدقة تبلغ حدّ الوسواس ، وبمهارة فريدة ، وبسر عميق . والوضعية التي ينعم بها السنيور نوجارا وحيدة في العالم يحسده عليها مديرو المصارف ووزراء المالية . فانه يتمتع بحرية مطلقة في عمله ، فلا يناقشه الحساب مجلس نواب ، ولا مجلس وزراء ، ولا جمعية حاملي الاسهم ؛ ولا يدفع ضرائب ؛ ويستطيع ان يجري عقوداً الى آمام بعيدة جداً ، وفي اي بلد كان ، بفضل الامتيازات الدبلوماسية المعترف بها للكرسي الرسولي . فضلاً عن ان السفراء والاساقفة والزوار الوافدين الى رومية من كل العالم يقيضون له فرصة ثمينة للاطلاع بواسطتهم ، في استمرار ، على مجرى الاحوال التي قد تحدث تطوراً في الشؤون المالية والاقتصادية . فليس لاحد سواه مثل هذه الحرية الكاملة في العمل ، ولا مثل هذه الوسائل للاستطلاع . لهذا تزداد يوماً فيوماً اهمية « الادارة الخاصة » . فهي الآن تدير كل مقتنيات الكرسي الرسولي في ايطاليا وفي الخارج . والسنيور نوجارا يؤثر الليرة الاسترلينية والدولار الاميركي والفرنك السويسري على اي نقد آخر . ومعظم مستودعاته المالية في مصرف همبروس Hambross's Bank في لندن ، ومصرف مورغن في نيويورك ، وفي المصرف السويسري Crédit . ولهذا



« الادارة الخاصة » سكرتير ، هو المسيو دو ميّاردوز M. de Maillardoz الذي يقطن في رومية وان يكن احد كبار الموظفين في المصرف السويسري المذكور .

وقد وضع القاتيكان ما لديه من الذهب الاحتياطي في « المصرف الاحتياطي » Reserve Bank ، وجعله تحت تصرف بنك مورغن ، شأن بلدان اخرى عديدة تضع احتياطيها في الخارج . وبواسطة هذا المال المودع في اميركا ، تجري « الادارة الخاصة » عمليات مالية لتزيد رأس المال الاساسي .

ويحطىء من يظن ان الروابط الوثيقة ، التي تشد « الادارة الخاصة » الى الولايات المتحدة ، ناشئة عن ميول سياسية . فان لتلك الروابط ، بقطع النظر عن هذه الميول ، اسباباً تقنية ، اولها ان القاتيكان ، حين انشأ رأس المال الذي يبد « الادارة الخاصة » الآن ، قد اشترى معظم ذهبه في اميركا .

٢- اما المصرف القاتيكاني ، فيدعى « المؤسسة لاجل الاعمال الدينية » . فهو يقبل الودائع ، ويقوم بجميع العمليات المالية ، كتوظيف المال وتحويله ، الخ ... مما تستطيع اجراءه الرهبانيات العديدة المنتشرة في العالم والمثلة في رومية . وتشرف على هذا المصرف لجنة كردينالية . غير ان مديره في الواقع هو سكرتيره المنسنيور دي جوريو Mgr di Jorio . والموظفون فيه قليلون ، بعضهم اكليريكيون ، وبعضهم علمانيون . ولا يقبل

المصرف التعامل الا مع مواطني القاتيكان والاكليروس الروماني والرهبانيات . اما اعماله فيجد متسعة ، تشمل عدداً من البلدان وافراً بسبب ما للرهبانيات الكبيرة من صلات ونقاط ارتكاز في كل مكان . ويرخص لبعض الايطاليين فتح اعتماد فيه . وبذلك فائدة جليّة لهم ، لانهم يستطيعون بواسطته ان يحسّلوا اموالهم بدون تقيد بالاجراءات المفروضة في ايطاليا ، وبدون خضوع للمراقبة الايطالية .

٣- على ان مذكرات « الادارة الخاصة » ومهارة القيمين عليها لا تكفي لسد حاجات الكنيسة الكاثوليكية . فلهذا نراها تلجأ بدون انقطاع الى المؤمنين ليدثوها بصدقاتهم . وتلبية لهذا الطلب ، يجمع في العالم باسره ( ما عدا البلدان المشرقية ) ، شبه ضريبة اختيارية ، تدعى « دينار مار بطرس » Denier de St Pierre . وقد قال فيها السنيور نوجارا انها « من الوجهة المالية مؤسسة لا مثيل لها من حيث صعوبة تحديدها وضبطها » .

وليس من المفروض دوماً ان يرسل الى رومية المال المجموع لاجل « دينار مار بطرس » . فانه ، في بلدان كثيرة ، يصرف لسدّ قسم من حاجات الكنائس المحلية . فيدفع في فرنسا ، مثلاً ، الى الكهنة خدمة الرعايا الذين لم تعد الحكومة ، بعد فصل الدولة عن الكنيسة ، ملازمة بدفع المعاشات التي كانت مخصصة بهم من قبل . ثم ان بلداناً كثيرة

كانت في السابق تقدم الصدقات عن يد سخية الى رومية ،  
فاضحت الآن لا تستطيع شيئاً من ذلك ، إما بسبب احوالها  
السياسية ، او بسبب الحاجات المحلية . اما الهبات المرسلة  
الى الكرسي الرسولي باسم دينار مار بطرس ، ولاسيا  
البالغة منها قيمة كبيرة ، فتوجه في الغالب الى الحبر الاعظم .  
ولما كان لكل مجمع كيان اداري ذاتي ، يضع الكردينال  
رئيسه موازنته المالية ، فان بعض المجامع يضطر ان يلتجئ  
الى مصادر خارج القاتيكان للحصول على المال اللازم لمسير  
اموره . فان مجمع نشر الايمان ، مثلاً ، ينوء تحت عبء  
مالي جسيم بسبب الاسعافات التي يمد بها المرسلين والمرسلات  
المنتشرين في اربعة اقطار العالم ، ولا يمكنه ان يحمله لو لم  
ينشئ او يثبت مؤسسات خيرية تجمع عبر العالم حسنات  
المؤمنين لاعانة الرسالات الكاثوليكية . وكانت فرنسا اول  
من انشأ عملاً من هذا النوع ، يدعى عمل « نشر الايمان » ،  
فاصبح الآن مؤسسة بابوية ، ونقل مركزه من ليون في  
فرنسا الى رومية .

### ٣ - الستيفيش .

ذكرنا ، فيما سبق ، بطريقة عارضة ، شيئاً عن المجامع  
الخاصة بالاساقفة والشؤون الحارقة العادة والرهبان ونشر  
الايمان .

والآن نتحدث ببعض توسع عن اهم المجامع الباقية :  
الستيفيش ، وجمع الطقوس ، وجمع الكنيسة الشرقية .  
١ - في الماضي والحاضر . حضرت في فلورنسا حفلة غربية  
جداً . فقد تقدم على التوالي ، امام الاعيان المجتمعين ،  
حاكم المدينة ، السنيور لابيرو La Pira ، وحاكم الولاية ،  
والجنرال قائد الجيش ، وتلامذة المدارس ، فوضعوا اكاليل  
او باقات من الزهر على صفحة نحاسية 'منزلة في' بلاط الساحة  
المدعوة بالسيديّة Seigneuriale . وهذه الصفحة تعيد الى الازهار  
ذكرى حادث وقع منذ خمسين سنة . ففي هذا المحل حرق  
آتندجسم الراهب الدومنيكي ، سفنرول Savonarol ، بموجب  
حكم اصدره مجمع الستيفيش الاعلى ونفذته حكومة فلورنسا .  
واليوم نرى الى جانب حاكم المدينة ، وهو من حزب المسيحيين  
الدمقراطيين ، امرأة شابة من الحزب الشيوعي هي حاكمة مدينة  
فراري Ferrare ، مسقط رأس سفنرول ، وازاءهما حبر يمثل  
الكردينال مطران فلورنسا .

ان سفنرول الذي يكرمه هؤلاء الاشخاص المتباينون  
النزعات والحالات ، بحضور الشعب الفلورنسي ، كان مفكراً  
متوقفاً الذهن ، ومؤمناً مندفعاً حتى التعصب ، يحلم باصلاح  
الآداب في العالمين المدني والديني . فلم يتورع عن ان يسيطر  
الحبر الاعظم القائم آنذاك ، اسكندر السادس من آل بورجيا ،  
ذلك الرجل الخوف المفسود (١٤٩٢-١٥٠٣) ، وابلاً من الملام

اللاذع والتوبيخ القارص . فاصدر البابا مرسوماً مجرمه به ، فشنته حاكم المدينة وحرق جسمه . وهوذا الشعب والحكومة والكنيسة في فلورنسا وسائر ايطاليا يقومون جميعاً بالتعويض عما كان من قدامهم . والمقول ان بين صفوف الرهبان الدومنيكين الايطاليين فكرة ترمي الى تقديم دعوى بتطويب سفنرول . ولا غرو فالكنيسة ، بواسطة الكردينال مطران فلورنسا ، تحيي اليوم ذاك الذي تركته هي نفسها في السابق يموت تلك الميتة الشنيعة .

٢ - جوّ المجمع . ان مجمع التفتيش بدّل اسمه من زمن بعيد ، فهو يدعى الآن السنتش Saint - Office . ولم يعد يحرق احداً ، حتى على يد الحكومة المدنية . غير ان هذا المجمع لا ينفك الاول والاقدم بين المجمع الرومانية ، وحامي العقيدة الذي لا يمارى ولا يحايى . وعمله لا يجري الا على العقول . فمهمته اكتشاف الانحراف العقائدي ، مهما كانت طفيفاً ، وانزال العقوبات بمستحققيها بدون شفقة . والعقوبة القصوى التي يوهبها المؤمنون انما هي الحرم ، اي قطع المذنب من الجماعة المسيحية .

تحت عتبة الباب الكبير ، الذي هو مدخل السنتش ، جالس شرطي فاتيكا في بثوبه المدني يعالج مربعاً من كلمات متقطعة . وبدا البواب قاسي القسما بالرغم من بزه وشرائطه ، وكان يُعنى باحدى يديه بتربية طير الكنار ، ويصد بالاخري المستعطيات

الكثيرات اللواتي ياتين الى المجمع استدرارا لمعونة منه . اما الشخص الذي يُهاب في المجمع اكثر من سواه فهو المفوض ، ويحتل ، مع مرافقيه ، احد اجنحة الدور الاول الذي تحاله قطعة من دير دومنيكي نقلت واتزلت في البلاط الرسولي : بحجراتها الوضيعة ، واثاثها القديم ، وصلبانها المعلقة هنا وهناك ، وبيعض تصاوير تقوية على جدرانها قد لا يستسيغها الذوق السليم .

والامر على العكس في الدور الاعلى ، حيث القاعات الفخمة ، والمباشرون بيزاتهم الرائعة ، وردة الاجتماع بطاولاتها الطويلة من خشب السنديان القاتم اللون ، وبكراسيها من عهد الانبعاث Renaissance ، كأنها قاعة مجلس ادارة احدى الشركات . اما المحفوظات السرية الشهيرة ، فانها تتوارى في خزائن قائمة في منعطفات المجمع ومنعرجاته ، ولا يحق لاحد ان يصل اليها ، ما خلا اعضاء المجمع الذين يقسمون ايماناً على حفظ السر اكثر تصريحاً وتوضيحاً من القسم المفروض على اعضاء سائر الدواوين .

اما السر في دوائر السنتش فانه اشدّ واوجب ما تعرفه الكنيسة . وعلى غرار سرّ الاعتراف ، لا يجوز افشاؤه . ومن تجاسر على انتهاكه ، ولو بطريقة غير مباشرة ، ولو باشارة ، يقع من ذات فعله في الحرم الكبير الذي لا يحل منه إلا الحبر الاعظم . فالكردينال القيم على المجمع لا يقوى



بذاته على الحل منه . ان السر في هذا الجو لحرمة تستولي على العقول وقتلها ، وتشيع فيه الخوف الشديد من تطرق شيء منه الى الخارج . وهنا لا احصآت بالقضايا المدروسة . ومن المحذور معرفة الاصول المتبعة في التحقيق والتقرير . فان السرّ جدار ترتطم به حتى القضايا البريئة جداً .

٣ - الصلاحية . السنتفيس محكمة وجمع . فالمحكمة تجري القضاء على الناس وعلى الآراء . ولها جميع صلاحيات محكمة جزائية . في الماضي كانت الاحكام في قضايا الهرطقة تصدر عن هذا المجمع . اما في ايامنا فاصبح ذلك من النادر جداً . فهو ينظر في الجرائم التي يقترفها رجال الاكليوس في الدرجة الثانية كمحكمة استئنافية بالنسبة الى المحاكم الاسقفية ، وكذلك في الدرجة الاولى ، فيما اذا كانت هذه الجرائم مستثناة بسبب فظاعتها من ولاية الاساقفة العادية ، كما في حوادث انتهاك حرمة الاسرار ، مثلاً ، ولا سيما سرّ التوبة . وقد يضطر احياناً الى اجراء تحريات ، اذا بلغه ان سمعة احد الرؤساء الكنسيين قد اصبحت مشبوهة بنوع فاضح . فيجري ، عند الاقتضاء ، ما يخوله القانون من تأديبات اي عقوبات متنوعة تراوح بين فرض تلاوة بعض صلوات وممارسة بعض تقشفات ، وبين اقامة جبرية في احد الاديرة وحتى اعادة المذنب الى الحالة العالمية . وهذه العقوبة هي اشد ما يمكن الكنيسة انزله في كاهن . على انه لا يفقد اسمه الكهنوتي ، اذ انه

يظل موسوماً به على مدى الحياة وحتى الى الابد ، بل ينتزع منه حقه بممارسة اية خدمة كهنوتية ( وبنوع جد استثنائي ، قد يعاد الكاهن الى الحالة العالمية ، بدون ان يكون لهذه الاعادة طابع العقوبة ؛ ولكن ذلك نادر جداً ) . ان الدعاوى في السنتفيس يجري بحثها دائماً بطريقة سرية . وقد يُستدعى المتهم امام القضاة . ولكنه غالباً لا يستطيع تقديم دفاعه الا بواسطة محام يعينه برضى المجمع .

والسنتفيس يوضح العقيدة ويشرحها ، لان مهمته الاساسية هي الحفاظ على سلامتها بكل حرص ، واكتشاف الهرطقات والانحرافات ولو كانت غير ذات شأن . فحرمة العقيدة من كل مساس شيء مقدس في الكنيسة فوق كل شيء آخر . وبذلك قوتها الحقيقية . ولهذا كان المجمع الموكل اليه السهر على الوديعة المقدسة اقدم المجامع واعلاها درجة .

في هذه الحال يصبح السنتفيس شبيهاً بالشرطة السرية . فهمته تعقب العدو واكتشافه وتحريتي اجراءاته داخل الكنيسة . وله رجال يثق بهم في كل مكان من العالم يدونه بالمعلومات ، ويواصلون المراقبة المنوطة بهم . ومحيط السر العميق مهمتهم التي تقوم باطلاع المجمع على حالة كل ابرشية من الجهتين العقائدية والادبية . وفوق ذلك يستفيد المجمع من نظام تسلسل السلطات الكنسية الذي يربط بتفرعاته كلاً من

المؤمنين ، اكليرساً وشعباً ، بالدواوين الرومانية وبالخبز الاعظم .

فكل رعية يسوسها كاهن يدعى خوري الرعية او خادمها ، يعاونه كاهن او اكثر . ويعود امر هؤلاء جميعاً الى كاهن ارفع منهم مرتبة يدعى مقدم الكهنة او رئيسهم . وفي الغالب تتألف الابرشية من عدة مناطق او وكالات ، تضم كل منها عدة مراجع . اما مرجعها الاعلى فهو اسقف الابرشية ، وفوق الاساقفة المطارنة ( والبطاركة ) ، باستثناء الاكليرس القانوني ( الرهبان على تعدد جمعياتهم وتنوعها ) الذي يندمج كل عضو منه في نظام جد مضبوط ، تحت رقابة الرؤساء .

هذا ، ولا يخلو الامر من ان بعض الانفس التقيّة وبعض التائبين يرون من الواجب عليهم إعلام المجمع بضلال عقائدي او بفساد ادبي يظنون انهم اكتشفوه في محيطهم . فالكاهن مغرّض لمراقبة رعيته بكل انتباه ، فيصعب ان تخفى دقائق سلوكه عن عيونهم الساهرة . على ان هذه التقارير ، في الغالب ، غير موقّعة بامضات صحيحة ، وكثير عددها . ويظن بعض الاوساط الاكليرسية ان المجمع يوليها من الاهتمام اكثر مما تستحق .

فحالما يبلغ المجمع خبر قضية يعتبرها ذات بال ، يكتب الى اسقف الابرشية المعنية ، ولدى كل اسقف في ابرشيته

« لجنة رقابة » يعين اعضاءها من الاكليرسين المحليين ، ومهمتها السهر على ايمان الكهنة وعلى آدابهم . وفي استطاعة المجمع ان يرسل ، في حالات خطيرة ، مندوباً من قبله يزوده سلطة واسعة . فيتجول ويعمل تحت ستار الخفية . ويستدعي اليه من يشاء استنطاقهم . ويطلب اليهم الجواب عن الاسئلة المطروحة عليهم ، بعد ان يقيّد ، بواسطة القسم ، بواجب الحفاظ الكلي على السر .

ومن المعلوم ان الادارة المركزية في رومية تطلع على كل ما يجري في الابشيات بواسطة مجمع الاساقفة ، وفي الرهبانيات بواسطة مجمع الرهبان . فلا يغرب في النتيجة شيء عن الستيفش الذي يمثله بعض اعضاءه في المجمعين المشار اليهما .

ووفقاً للتعايير الدارجة في هذا المجمع ، تلتزم « هيئة » مستشاريه ، و « يصفوا » المذاهب المعروضة عليه او الواردة اليه من معاونيه عبر العالم ، فينتقوها باحد هذه « الاصناف » : آراء او مذاهب « خالية من الروية Imprudentes ؛ خطرة ؛ مخدشة الاذان التقيّة ، او هرطوقية » .

٤ - مهام اخرى . لا يقصر الستيفش اهتمامه على النظريات . فاليه يعود النظر في كل ما يلامس الحياة الفارقة للطبيعة ، ولا سيما الانحرافات التصوفية ، ومناجاة الارواح ، والسحر

والرقيّات وما الى ذلك . على ان التقسيم الذي تحارب به الكنيسة استيلاء الشري على نفسٍ ما ، يتعلق بجميع الاسرار . ولو تسنى لنا ان نفحص عن قرب ما يعتور ايامنا الحاضرة من ضلال وفساد في حقل التصوف ، وان نطلع على عددهما وانواعها ومداهما ، لآخذ منا العجب كل مأخذ . فايطاليا الجنوبية ارض خصبة تثبت فيها شيع من هذا النوع ، تعيش على هامش الشريعتين المدنية والكنسية معاً . ولم ينس المعاصرون بعد دعاوى كثيرة كشفت عن مدى الاعمال السحرية التي لا تزال شائعة في فرنسا . وسويسرا لا تزال تتذوّق بنهم مثل هذه الاعمال ، كما ان المانيا لا تخلو منها ( وما اكثرها في بلداننا الشرقية ! )

ان الستيفش يغربل التمرسات الصوفية على انواعها . فالكنيسة جد حذرة من هذه الظاهرات ، فلا تبدي رأياً ولا تُصدر حكماً في صحة الوقائع الفائقة الطبيعة او الرؤى ، ما زال اصحابها على قيد الحياة . فمن يجهل ان تريزبانو من تعيش منذ سنين طويلة حياة عجيبة في المانيا ، وهي تحمل في جسدها سمات جروح السيد المسيح الفادي ، كما يحمل هذه السمات منذ ثلاثين سنة الاب يـِـو Pío الكبوشي الذي يعيش في قرية من ايطاليا الجنوبية ، ويتهاق اليه جماهير الاتقياء ليعترفوا بخطاياهم لديه . وفي باريس تبدو سمات جروح المسيح في احدي المؤمنين . فالستيفش لا

يجهل حالة هؤلاء الرجال والنساء . ولكنه لا يأتي عملاً قد يثير اهتمام المؤمنين وفضولهم .

وعلى هذا المجمع ان يُعنى باصدار جداول المؤلفات المحرّمة قراءتها . وتضع هذا الجدول لجنة خاصة تتحرى المعلومات التي ترد من العالم بأسره ، لان كل المطبوعات خاضعة ، مبدئياً ، لحكم الستيفش . ولكنه ، في الواقع ، يهتم بالمطبوعات الفلسفية واللاهوتية والادبية والاجتماعية التي يؤلفها الكليسيون ، لانها قد تُخرج موقف الكنيسة اكثر من سواها . على ان كل ما ينشره احد رجال الكنيسة يجب ان يخضع حتماً لمراقبة مزدوجة في ابرشية محل النشر . وقد يحدث ان يكون الستيفش اقصى من الاساقفة الذين يحرون هذه المراقبة . ولكنه لا يسارع في اصدار احكامه . وغالباً ما يصب جام سخطه على مؤلفات او مؤلفين يكون نفوذهم قد بدأ يميل الى الزوال . وسببه حذر المستشارين قبل كل شيء ، ناهيك بان المجمع قائم في رومية ، فلا يسهل عليه التغلب على الاجواء الايطالية . ثم ان من المنشورات الادبية الاجنبية ما لا يصل اليه الا بطريقة تقله الى اللغة الايطالية . من ذلك ان مؤلفات اندره جيد ، الاديب الفرنسي المعاصر ، لم تحرّم إلا بعد وفاة صاحبها . وقد جاء هذا التحريم في فترة كانت فيها الاوساط الادبية في ايطاليا مولعة بجيد وكتبه ، بعد ان كانت الفاشية قد حالت دون



تسرب هذه الكتب إليها زمنًا طويلاً .

ان السنتفیش حامی العقيدة وحارسها . ويقوم بالمهمة الخاصة بالشرطة . وتلك حدوده . وبها تفسير ما يُمنى به من اللاشعوية . على ان مهمته هذه لا بد منها . فالعقيدة الكاثوليكية لا تزال هدفاً لغارات وحملات تشنّ عليها من كل الجهات . اما القيام بعمل حي واجباي على العقول فلا نتظرته من السنتفیش . فهذا يعود الى المعلم الاكبر والاعلى الذي يعي مفهوم العقيدة ويعبر عنها ، ليس كحقيقة نظرية فحسب ، بل كحقيقة نحياها بممارسات شخصية روحية . فان حامی العقيدة ، بالمعنى التام والاجباي ، انما هو رأس الكنيسة ، وليس جمعية موظفين في الدواوين يطبقون نصوص الشريعة .

#### ٤ - مجمع الطقوس .

١ - حفلة تطويب او اعلان قداسة . في المعهد السبستي ، يتراقص لهيب الشموع على مشهد الدينونة العامة الذي رسمه ميكال انجلو على الجدار القائم في صدر المعبد . ويضج المكان المقدس بهينة الكرادلة والبطاركة والاساقفة . فليس هو اليوم ذلك المتحف الذي يزدهم فيه السياح مشدوهين . انه عابق بطيب البخور . فالقديسون والهالكون الذين خلقتهم ريشة ميكال انجلو يستيقظون على الحياة تدب في اجسادهم . من المعبد ، يسير الموكب البابوي ، متجهاً الى باسيلية

مار بطرس ، يختلط فيه شيوخ من ذوي اللحى الكثّة برجال في عنفوان العمر ، والجميع يعتمون تيجاناً عالية بيضاء ، يصحبهم خدام يحملون شموعاً تداعب وجوههم المرد الضئيل ، وآخرون يساعدون الاحبار في لبس التيجان وتزعها ، ويمسكون اذيال اربيتهم ويرفعونها عند الجثو .

ان الكنيسة جمعاء هنا ، يمثلها البطاركة الوافدون من الشرق بتيجانهم المرصعة بالحجارة الكريمة ، او بقبعاتهم التي تحتفي تحت اغشية سوداء ؛ وكذلك الكرادلة والمطارنة والاساقفة ، ومنهم الابيض والاسود والاصفر ؛ ثم الرؤساء العامون للرهبانيات بملابسهم الحشنة واقدامهم الحافية ، مما يبدو نابياً بين ملابس الخمل والحرير القرمزي التي تتوافق كأنغام سمفونيا عذبة .

ويحسّ المؤمنون المزدحمون على ابواب مار بطرس بمقدم البابا ، ثم لا يلبثون ان يشاهدوه . فاذا العرش المرفوع على اكتاف الاثني عشر حملاً يتوجج فوق الرؤوس ، وعلى العرش تمثال حيّ تحتفي جسمه تحت الملابس الحريرية المطرزة ذهباً وفضة ، وفي اصبعه فوق القفاز المنسوج من ذهب ، يلمع الخاتم الثمين ، وفي قدميه الحذاء الاحمر ، وعيناه وحدهما ، بسوادهما المتوقّد ، تشعان حياة ، افضل من الحجارة الثمينة ، في وجه جليّ كالعاج وصاف كالشمع . وللوقت تدوي الهتافات وتصفق الاكف كهدير الامواج ، وتتجاوب

من جانب آخر في الكنيسة حتى تضع تحت القبة السامقة .  
وتعزف الموسيقى ، من حيث قامت مختبئة في احدى الشرفات  
العالية فوق المدخل ، النشيد الحبري ، فتذري الابواق الفضية  
فوق الجماهير رنائها الجزلة الفضة . وعندئذ تعمر الانوار كل  
الكنيسة الباسيلية ، وتبدأ جوقة المعبد السيستي بتوتيل  
الانشودة الطقسية : « انت صخرة وعلى هذه الصخرة  
ابني بيعتي » . ان دخول البابا الى كنيسة لآية من الانتصار  
الباهر ، والعبادة الحميمة ، والتواضع العميق .

ويقف هذا الموكب الباهر امام معبد القربان الاقدس .  
فينزل البابا عن العرش ، وينزع التاج المثلث الطبقات عن  
رأسه ، ويلبس عوضه آخر ابيض ، رمز سلطته الروحية ،  
ويجثو على الركبتين ساجداً للاوخرستيا . ثم يجلس على  
عرش ويتلو صلوات الساعة الثالثة ، بينما يؤدي اليه الطاعة  
اصحاب المناصب العالية من مرافقيه : الكرادلة بلثم يده ،  
والبطاركة والاساقفة بقبلة ركبتيه ، ورؤساء الاديرة  
والكهنة المعرّفون بتقبيل قدميه .

وبعدئذ تُقرغ عليه الحلل الحبرية ، وهي تشل الحلل  
الطقسية الخاصة بكل من ذوي الدرجات المقدسة ، لانه رمز  
الكنيسة جمعاء . فيرتدي منها ما يعود لذوي الدرجات  
الصغيرة ، ولاسقف رومية ، وبطريك الغرب . ثم يشده  
حقويه بزناو من ذهب شارة رتبته العليا .

ويبدأ القداس الالهى تحت القبة الرائعة الفن من صنع  
لويبرن Le Bernin . ويجلس البابا على عرش آخر في صدر  
الكنيسة ، يحيط به الكرادلة الذين يشتركون معه في اقامة  
الذبيحة . ويقف الى جانبه من النبلاء مقدّمهم ، وهو الامير مساند  
العرش . ويجلس على درجات العرش قضاة محكمة الروتا .  
وفي الشرفات ، من هنا وهنا ، اقارب البابا ، والامراء  
المالكون ، ورؤساء الدول ، واعضاء السلك الدبلوماسي ، بيزات  
ايام الاعياد والمهرجانات الكبرى . وفي اثناء القداس ، يصعد  
البابا الى المذبح ثلاث مرات ، يتبعه الكرادلة وخمسة عشر  
اسقفاً بتيجانهم ، ورجال الكهنوت من كل الدرجات بعدد  
غفير .

عند صلاة التقديم ، قبيل تقديس القربان ، يتقدم  
الكرادلة وملتمسو التطويب او اعلان القداسة ، فيرفعون الى  
الحبر الاعظم التقدّمات : شمعتين تزن كل منهما ستين ليبره  
( ٥٥٠ غرام ) ، ورغيفين من الخبز مغلفين الواحد  
بالذهب والآخر بالفضة ، وقد نقش على كليهما شارة الحبر  
الاعظم ، وبرميلين صغيرين من الخمر ، وثلاثة اقفاص متقنة  
الصنعة ، فيها حمامتان وبامتان وعصافير اخرى صغيرة .

بهذه الابهة الطقسية تحيط الكنيسة حفلة تطويب احد  
بنينا او اعلان قداسه . وشتان ما بين هذه الابهة المبذولة  
اليوم وتلك الحياة الوضيعة القشقة ، المترعة آلاماً واضطهاداً ،

من جانب آخر في الكنيسة حتى تضع تحت القبة السامقة .  
وتعزف الموسيقى ، من حيث قامت محتبة في احدى الشرفات  
العالية فوق المدخل ، النشيد الجبوي ، فتذري الابواق الفضية  
فوق الجماهير رئاتها الجزلة الفضة . وعندئذ تغمر الانوار كل  
الكنيسة الباسيلية ، وتبدأ جوقة المعبد السبتي بتوتيل  
الانشودة الطقسية : « انت صخرة وعلى هذه الصخرة  
ابني بيعتي » . ان دخول البابا الى كنيسة لآية من الانتصار  
الباهر ، والعبادة الحميمية ، والتواضع العميق .

ويقف هذا الموكب الباهر امام معبد القربان الاقدس .  
فينزل البابا عن العرش ، وينزع التاج المثلث الطبقات عن  
رأسه ، ويلبس عوضه آخر ابيض ، رمز سلطته الروحية ،  
ويجثو على الركبتين ساجداً للاوخرستيا . ثم يجلس على  
عرش ويتلو صلوات الساعة الثالثة ، بينا يؤدي اليه الطاعة  
اصحاب المناصب العالية من مرافقيه : الكرادلة بلثم يده ،  
والبطاركة والاساقفة بقبلة ركبتيه ، ورؤساء الاديرة  
والكهنة المعروفون بتقيل قدميه .

وبعدئذ تفرغ عليه الحلل الجبوية ، وهي تشمل الحلل  
الطقسية الخاصة بكل من ذوي الدرجات المقدسة ، لانه رمز  
الكنيسة جمعاء . فيرتدي منها ما يعود لذوي الدرجات  
الصغيرة ، ولاسقف رومية ، وبطربوك الغرب . ثم يشده  
حقويه بزئار من ذهب شارة رتبته العليا .

ويبدأ القداس الالهي تحت القبة الرائعة الفن من صنع  
لورن Le Bernin . ويجلس البابا على عرش آخر في صدر  
الكنيسة ، يحيط به الكرادلة الذين يشتركون معه في اقامة  
الذبيحة . ويقف الى جانبه من النبلاء مقدّمهم ، وهو الامير مساند  
العرش . ويجلس على درجات العرش قضاة محكمة الروتا .  
وفي الشرفات ، من هنا وهنا ، اقارب البابا ، والامراء  
المالكون ، ورؤساء الدول ، واعضاء السلك الدبلوماسي ، بيزات  
ايام الاعياد والمهرجانات الكبرى . وفي اثناء القداس ، يصعد  
البابا الى المذبح ثلاث مرات ، يتبعه الكرادلة وخمسة عشر  
اسقفاً بتيجانهم ، ورجال الكهنوت من كل الدرجات بعدد  
غفير .

عند صلاة التقديم ، قبيل تقديس القربان ، يتقدم  
الكرادلة وملتسمو التطويب او اعلان القداسة ، فيرفعون الى  
الحبر الاعظم التقديمات : شمعتين تزن كل منها ستين ليبره  
( ٥٥٠ غرام ) ، ورغيفين من الحبز مغلفين الواحد  
بالذهب والآخر بالفضة ، وقد نقش على كليهما شارة الحبر  
الاعظم ، وبرميلين صغيرين من الحمر ، وثلاثة اقفاص متقنة  
الصنعة ، فيها حمامتان ويمامتان وعصافير اخرى صغيرة .

بهذه الابهة الطقسية تحيط الكنيسة حفلة تطويب احد  
بنينا او اعلان قداسه . وشتان ما بين هذه الابهة المبذولة  
اليوم وتلك الحياة الوضيعة القشقة ، المترعة آلاماً واضطهاداً ،



التي كانت نصيب من ترفعهم الكنيسة ، بعد وفاتهم ، الى أوج المجد .

٢ - دعوى التطويب او اعلان القداسة . في الدعوى التي يُبحث فيها طلب تطويب احد المؤمنين اي اعلانه طوباوياً ( سعيداً مغبوطاً في الفردوس ) ، يعيّن احد مشاهير المحامين وكيلاً ، يدعى « محامي الايمان » ، وقد غلب عليه لقب « محامي الشيطان » Avocat du Diable ، مهمته الحؤول بكل الوسائل دون نجاح الدعوى ، اي دون اعلان المرشح طوباوياً او قديساً بصورة رسمية . ويعود الى مجمع الطقوس تعيين محكمة شرعية - من مدعى عامّ ومحام وشهود وقضاة - لتبحث بجنّة دقيقاً صارماً مفصلاً حياة من يطلب شرف استحقاق العبادة العلنية : حياته على الارض ، وما حدث بعد وفاته مما يتصل به . فالقديسون والطوباويون ، في عرف اللاهوت الكاثوليكي ، من اعضاء « الكنيسة المنتصرة » يتوسطون في السماء بين الناس والله ، بين الخليفة وخالفها .

ويمكن القول ان القداسة تجتاز ازمة تضخم . فالمرشحون لها يزدهمون على ابواب مجمع الطقوس . وعلى « جدول الدعاوي » في هذا المجمع ، ٣٢٨ دعوى ، يرجع بعضها بتاريخه الى القرن الخامس عشر . وهناك ، نحو من ٧٤١ دعوى تنتظر ان تدق ساعتها . وبين الدعاوي ، اربع وستون موضوعها تطويب افراد او جماعات قضا شهداء في سبيل

الدين المسيحي . والتحقيق في هذه الدعاوي يجري بدقة بالغة . ومن الملحوظ ان عدد الذين يُعلنون طوباويين وقديسين هو بين الرهبان اكثر منه بين العلمانيين . فهل يعني ذلك ان الابرار من هؤلاء قليلون ، وان القداسة من نصيب الذين ينضون الى الرهبانيات ؟ لا . فان لهذا التفاوت سبباً بسيطاً جداً هو ان دعوى التطويب والقداسة طويلة جداً ، وتقتضي نفقات باهظة ، تقدّر - للمحكمة وتنقّلات الشهود وطبع الوثائق ، الخ ... - بنحو عشرين مليون فرنك . فمن الصعب جداً ان يُقدّم شخص او عائلة او فريق من الناس على تحمّل عبء هذه النفقات الجسيمة ، في دعوى قديس علماني قد تدوم عشرات السنين وربما قروناً . بينا الرهبانيات - وهي تنعم بالديمومة - تستطيع بدون عناء ان تضمن حسن سير دعوى من هذا النوع . وهكذا نجد بين المرشحين للقداسة من يظنون صابرين في قاعة الانتظار يحول فقرهم دون ولوجهم بابها ، حتى بعد وفاتهم ، ريثما يجيء يوم يصبح فيه النظر في دعاوهم بفضل الحماسة الشعبية والحوارق التي تتكاثر بغتة بشفاعتهم ، امراً لا مناص منه ، فيعبرون بقفزة واحدة جميع الحواجز التي نصبها الحق القانوني في سبيلهم بدافع الحذر المفرط .

في بادئ الامر ، تقام الدعوى المحكى عنها امام اسقف الابرشية ، حيث « توفي برائحة القداسة » المؤمن المطلوب

تطويه . ويكون الحافز الى اقامتها حياته المثلى بالتقوى والفضيلة، وحدث بعض الخوارق التي لا يجوز تسميتها معجزات قبل صدور حكم الكنيسة بشأنها . ولوقت يقوم اساقفة الابريشيات ، التي « مر فيها خادم الله » ، بنصيبتهم من الدعوى ، فينقبون عن ابسط اثر تركه مدة وجوده ضمن حدود ولايتهم . ويعين في رومية طالب Postulateur يدير اعمال الدعوى . ثم يُضم اليه « محامي الشيطان » . اما اذا كان مدار البحث عن رجل عاش في ايامنا ، فتُرسل المحكمة نداء الى جميع من عرفوا بذاتهم شيئاً عن حياته وعمله ليؤدوا شهادتهم ، واحياناً كثيرة يراوح عدد الاسئلة الموجهة اليهم بين ٢٠٠ و ٣٠٠ سؤال .

ومتى اتمت المحكمة الاسقفية اعمالها ، تُرسل الاضبارات الى مجمع الطقوس في رومية فيقرر ما اذا كان في الامكان فتح « دعوى رسولية » . ولأجل هذه الغاية ، يعين احد المحامين المقبولين لدى المجمع ليعدّ « كتابة » ملخص الاضبارات . فيرد عليه محامي الايمان بتقديم اعتراضاته كتابة ، فيجيبه المحامي واضع الملخص . وهكذا دواليك ... فيتألف من مجمل هذه الوثائق مجلد يقع في اكثر من ١٠٠٠ صفحة مطبوعة على ورق مجسم الشن . وهكذا يجري الفحص ، بدون شفقة ، على رجل في جميع مراحل وجوده ، وفي ادق طبقات حياته الطبيعية والعاطفية والروحية ، وفي اسرارها الحميمة الخفية .

فاذا قبلت الدعوى ، يجري تحقيق جديد فيما اذا كان المرشح للقداسة قد مارس الفضائل المسيحية حتى درجة البطولة . فاذا كانت النتائج ايجابية ، يُعلق اعلام على جدران رومية ، به يعلن البابا « بطولة فضائل خادم الله » . وهذا الاعلان هو خطوة حاسمة في طريق التطويب والقداسة . فيبقى ان تقوم لجنة مؤلفة من احبار واطباء بالتحقيق في طبيعة الخوارق والاسقفية المنسوبة الى « خادم الله » ، على اشد ما يكون من الدقة والصرامة ، لان الكنيسة لا تكتفي ، في مثل هذه الدعاوي ، بالشهادات البشرية الصرف ، القابلة دوماً للضغط والمعرضة للضعف ، بل تتطلب بوادر فائقة الطبيعة . فيقتضي التطويب حدوث معجزتين ، واعلان القداسة حدوث اثنتين اخريين بعدهما . وعندئذ يُحتفل ، بابهة بالغة ، باعلان القديس الجديد او القديسة الجديدة ، في باسيلية مار بطرس ، أو أمامها في الساحة الفسيحة الارجاء الواسعة الاطراف .

##### ٥ - المجمع المقدس للكنيسة الشرقية ورئيسه الكاردينال تيسران .

١ - للكاردينال اوجين تيسران ، عميد مجمع الكرادلة ، مهابته وخيلاؤه ، حين يدخل ردهات قصر روماني ، ورداؤه الارجواني ملقى على كتفيه المتينتين ، وصليبه يشع

على صدره العريض ، ولحيته السوداء البيضاء كأنها من ريشة رافايل او لوتتيان Le Titien ، ويتقدمه غلامان يحمل كل منهما مصباحاً مضيئاً .

ان هذين المصباحين يفرضهما البروتوكول . فاذا شرفك احد امراء الكنيسة بزيارته فايالك ان تسهر عن استحضار خادمين يحملان مشعلين عند مطلع السلم . ولا تنس كذلك ان الكردينال يضاوي اميراً من امراء عائلة مالكة . واخيراً ، اذا مثلت بحضرة الكردينال تيسران ، ففكر انك امام الشخص الاول في الدواوين الرومانية .

وللكردينال تيسران ، ما عدا مقامه السامي في مجمع الكرادلة ، مهمة اخرى في الدواوين الرومانية ، ترفعه الى الارجح في ادارة الكنيسة ، وقوليه سلطة شبيهة ، نوعاً ما ، بسلطة البابا نفسه . فانه سكرتير المجمع المقدس للكنيسة الشرقية الذي يرثه البابا بذاته .

من المؤمنين من يظنون ان الكنيسة الكاثوليكية ليست سوى الكنيسة اللاتينية او الغربية . ان هؤلاء لمخطوئ . فالكنوليكيون ذوو الطقس اللاتيني هم القسم الاكبر عدداً من الكنيسة ، بينا الكنائس المسيحية الشرقية هي القسم الآخر منها ، وان تكن قد خرجت على ولاية الحبر الروماني . وللتقليد الشرقي شأنه في الكنيسة الرومانية ، لان اعظم آباء

الكنيسة من الشرقيين .

ثم ان عدداً كبيراً من ذوي الطقوس الشرقية اصبحوا مواليين بأمانة لرومية : فالكلدان والملكيون والسرمان والملابار والاقباط والحبشة والارمن والرومان والروتان يؤلفون كنائس او طوائف كاثوليكية الى جانب اخوتهم الذين لا يزالون بعيدين عن رومية . ومن المعلوم ان الموازنة برمتهم متحدون برومية منذ نشأتهم . وهذه المجموعة من الطوائف الشرقية الكاثوليكية تعدّ نحواً من تسعة ملايين مؤمناً ومؤمنة منتشرين في جميع بلدان العالم ، ولاسيما الشرق الادنى واوروبا الشرقية . وهم كاثوليكيون بدون ان يكون طقسهم لاتينياً ، ويخضعون لولاية المجمع المقدس للكنيسة الشرقية . والسلطات المعطاة للكردينال الذي يشرف على ادارة هذا المجمع اوسع من سلطات اي كاردينال من رؤساء المجامع الرومانية الاخرى . ان البابا بالذات هو رئيس هذا المجمع . إلا ان الكردينال سكرتيره هو الذي يقوم بادارته الفعلية ، وهو في وضع من الاستقلال الذاتي يفوق اوضاع سائر رؤساء الدواوين .

ومن الراهن ان الكردينال تيسران هو احد ادرى الناس بما يجري وراء الستار الحديدي ، واكثرهم سكوتاً عما يعرف ، بالرغم من انه ، بطبعه ، طليق اللسان ،



يطيب له الخوض في الحديث ، وتصله اسلاك خفيفة بالمؤمنين المتعلقين به في البلدان الشيوعية : كهنة وعلمانيين متخفين ، مطاردين او محبوسين في المعازل . ومن استطاع منهم خرق الستار الحديدي ، فتضمه مدارس ومعاهد عديدة في رومية وسواها . والاتصالات قائمة وثيقة بالمهاجرين الذين لا يزالون يفرون الى الغرب منذ الحرب ، وقد بلغ عددهم الملايين ، ولهم في اماكن هجرتهم مئات الصحف ، ومحطات اذاعة ، وجامعات ، ورؤساء كنسيون .

ان الكردينال تيسران هو الحامي لمصالح الكنيسة الشرقية الموكولة الى عنايته . فيجمع ، بالاشتراك مع معاونيه ، التعليلات التي ترددهم ، ويواصل عملاً سوف يعرف مداه متى عادت الحرية الدينية وحرية الكلام الى بلدان ما وراء الستار الحديدي . ومما يشتمل عليه هذا العمل مفاوضات خفية وبطيئة وطويلة ، تتوقف ثم تستأنف ، في سبيل اتحاد الكنيسة الشرقية بالكنيسة الرومانية .

٢ - لمجمع الكنيسة الشرقية المقدس مقره في بناية حديثة بالقرب من مار بطرس . فاذا دخلت قاعة الانتظار ، وجدت ردهة قديمة اشبه شئ بردهة الكاتب العدل في الملحقات ؛ ترين جدرانها صورة القيم الحالي على شؤون المجمع ، وسط صور الكرادلة اسلافه . والى بضع سنوات خلت ، كان في هذه الردهة كرسى صغير ، مسانده مطرزة ،

يحمله من ان يجلس عليه احد الزائرين شريط ممتد امامه ؛ انه كرسى البابا بيوس العاشر .

في هذه الردهة ، ينتظر اخبار تزايد لحام في جماعهم ، وعلى رؤوسهم قلانس غريبة ، وتتبدل شعور بعضهم على اكتافهم ، ويلبسون غناييز فضفاضة كأنها برانس . وبيناهم في وشوشاتهم ، اذا بالبواب يفتح ، ويظهر فيه الكردينال تيسران ، فيد اليهم يمينه ، فيخرون امامه ويقبلون خاتمه المشع في اصبعه ، ويبدأ كل بلغته تحيات مفخمة لا نهاية لها . في هذا الديوان الروماني ، حيث الحجاب يغالبون النعاس ، يسر الانسان ان يستنشق فجأة نسيماً شرقياً ، نفحة من « الف ليلة وليلة » . ذلك بان للكردينال تيسران حق الاشراف على العالم العربي ، وخاصة على الكاثوليكين في الشرق الادنى . وربما كان هذا الامر من جملة ما اوصله الى منصبه العالي الخاص .

وُلد اوجين تيسران سنة ١٨٨٤ في نسي Nancy من مقاطعة اللورين في فرنسا . ومنذ صباه احس بالدعوة الى الكهنوت والى درس الكتاب المقدس . فتلقن في باريس اصول العبرية والسريانية والاشورية والعربية والحبشية ، وأخيراً الارمنية والروسية . وما مضى زمن يسير حتى دُعي الى تدريس الاشورية في رومية ، وعُيِّن حافظاً للمخطوطات الشرقية في المكتبة

## القائكانية .

وكان اشرف الاب تيسران على المكتبة وسيلة لسير بعيداً في طريق التوسع والتعمق في الدروس الشرقية ، وهو طريق شاق . فألف بضعة كتب في مواضيع كتابية ، ونشر مخطوطات حبشية ، فُعدّ بحق احد مشاهير المستشرقين في العالم . وتزوجاً للنفس من عناء الدرس ، زار الشرق متنقلاً ، على ظهر جواد ، بين القدس وبغداد . ثم تسنى له ان يعود الى فلسطين بسيارة هذه المرة ، في اواخر الحرب العالمية الاولى ، رئيساً للمكتب الاول في قيادة الفيلق الافرنسي الذي ضمته حملة الحلفاء على الشرق الادنى .

وبعد الحرب ، رجع الاب تيسران الى المكتبة القائكانية . واجرى فيها تحسينات واسعة وفق المقتضيات العصرية عقيب رحلة قام بها الى اميركا . وكان يقاسمه هذا الشغف بالشؤون المكتبية رجل آخر كان آتئذ على رأس المكتبة القائكانية ، فاصبح بعدئذ البابا بيوس الحادي عشر .

وشاء البابا الجديد ان يستعين به في ادارة الكنيسة العليا ، فقطع عليه بغتة سيره الهادئ في طريق الدرس والتنقيب ، وسمّاه كردينالاً على رأس المجمع المقدس للكنيسة الشرقية قبل ان يرفعه الى درجة الاسقفية ، ثم امر بتسقيفه على يد وزير دولته الكردينال باتشلي ( البابا بيوس

الثاني عشر ) . وبين ليلة وضحاها ، ارتفع المستشرق العلامة من مكتبته ومخطوطاته الى منصب يُعدّ بحق من اعلى المناصب في ادارة الكنيسة .

ان لعמיד مجمع الكراولة شعبية في الدواوين الرومانية ، قلّ من ضاهاه فيها من زملائه رؤساء المجمع ، بالرغم من انه ليس ايطالياً ولا من الموالين . ينهض صاحب النيافة صباحاً عند الساعة الخامسة ، فيقيم الذبيحة الالهية في دار سكناه ، حيث يعنى بشؤون المنزل شقيق له مع زوجته . ويقصد الكردينال الى المجمع ، ماشياً على قدميه عبر رومية . فيدخل مكتبه الواسع ، ويظل يدير دفعة الاشغال حتى الساعة الرابعة عشرة . فتأتي عندئذ سيارته فيذهب بها الى منزله . وبعد الغداء ، يسجل على دكتافون تقارير ورسائل ومناشير رعوية ، بلغات مختلفة ، تنقلها في الحال احدي الضاربات على الآلة الكاتبة .

واحياناً كثيرة ، بعد الغروب ، ينزل الكردينال الى منزل ابنة شقيقه القائم تحت منزله ، فيحيط به صغارها الكثيرون ، فيأنس بهم وقتاً ، متمماً بالفعل كلمة السيد المسيح : « دعوا الاطفال يأتون اليّ » ، الا ان يكون قد قبل الدعوة الى وليمة عشاء تقام على شرفه في احدي السفارات ؛ او ان يذهب ، بعض الاحيان ، الى احدي الباسيليات الرومانيات الكبرى ليؤس حفلة دينية فيها ، فيدخل حينئذ

بشوبه الارجواني ، يحيط به مرافقه النبيل وسكرتيه وحامل  
الذيل ؛ وعلى مدخل الكنيسة يستقبله الاكلوس بالترانيم  
والبخور .

### الفصل الثالث

### المحاكم والدوائر

#### ١ - محكمة الروتا .

ان الدعوى ، التي بها يُطلب اعلان بطلان زواج ، تكلف  
في رومية على اقل تقدير ٣٠٠,٠٠٠ لير ايطالي ( ١٥٠,٠٠٠  
قرش لبناني ) ؛ منها ١٧٠,٠٠٠ لير على الاكثر للمحامي  
المقبول لدى محكمة الروتا ؛ ومن ٤٠,٠٠٠ الى ٥٠,٠٠٠ لير  
لطبع اعمال الدعوى ؛ وما تبقى فنفقات المحكمة . ولا بد  
من اضافة نفقة رحلة او رحلتين الى رومية ، وبدل تنقل  
الشهود وتعطيل اشغالهم ، الخ ... على ان العاجز عن الدفع ،  
لقلة ذات يده ، تقبل دعواه مجاناً ، وان اربعين بالمئة من  
مجمل الدعاوى الزوجية في رومية هي مجانية .

لا يمكن كاثوليكياً الحصول على حل واثاق زواجه  
الا بطريقة اعلان بطلانه . فالكنيسة ، كما هو معلوم ، لا  
تقبل ابداً بالطلاق بمعناه المدني ، لانها تعلم ان واثاق الزواج  
غير قابل الحل بقوة كلمة السيد المسيح في الانجيل بحسب



مار متى ١ : « فما جمعه الله فلا يفرقه الانسان » (٦: ١٩).  
فالزواج اذاً سر يدوم طوال الحياة . ولا تحكم الكنيسة  
الا بالهجر الشرعي بين الزوجين في بعض حالات يصعب  
فيها تعايشهما . وليس لاحد الزوجين ، لاستعادة حريته ،  
سوى ان يستطيع اقامة البرهان على انه فقد هذه الحرية  
عند عقد زواجه ، او ان زواجه لم يعقد بالصورة  
المفروضة شرعاً . ففي حالات عديدة قد لا تتم جميع  
الشروط الواجبة لصحة الزواج في نظر الكنيسة ، فاذا شك  
احد في ان زواجه مشوب بنقص ما ، فعليه ان يعرض الامر  
لمحكمة ابرشيته .

وبحسب طبيعة الدعوى المطلوب نقض الزواج فيها  
او اثباته ، تقرر المحكمة الاسقفية صلاحيتها ، او عند الاقتضاء  
تحوّل الاوراق الى رومية . وبعد صدور الحكم الاسقفي ،  
( ببطلان الزواج ) يجب ان تنظر فيه محكمة ابرشية اخرى  
( وفي الشرق المحكمة البطريكية الاستئنافية ) . فاذا انقضت  
المحكمتان في قرارهما للاسباب عينها ، تم الحكم بشأن القضية.  
وعندئذ يجب على « المحامي عن الوثاق » ، المكلف بقوة  
وظيفته الدفاع عن ثبوت الزواج ، ان يستأنف القضية الى

١ في معرض الكلام على الزواج .

محكمة ثالثة ١ . فاذا اثبتت هذه المحكمة الحكيم السابقين ،  
يعلن بطلان الزواج .

على ان الاحكام في هذه المادة ليست مبدئياً من نوع  
« القضايا المحكمة » ، فيظل المجال مفتوحاً لاعادة النظر فيها  
( وهذا النظام القاضي بفحص قضية واحدة وبتبثها في محكمتين  
مختلفتين ، هو جد مألوف في اصول المحاكمة الكنسية ) .

ان الزواج ، في عرف الكنيسة ، سرّ لا يوليه الكاهن  
الذي يبارك الزواج ، بل يتمه الزوجان بالذات ، حين  
يتبادلان الرضى بالزواج ، بقولهما : نعم . والكاهن ليس سوى  
شاهد رسمي على ذلك ، يمثل السيد المسيح الذي باسمه يُعقد  
الزواج .

ويورد الحق القانوني الاسباب التي تجعل الزواج باطلاً  
وعدها ثلاثة عشر ، وهي ما تدعى الموانع المبطلّة للزواج :  
صغر السن - العجز الطبيعي - قيام وثاق زواجي سابق -  
اختلاف المذهب - درجات الكهنوت الكبيرة - النذر  
الرهباني الاحتفالي - خطف العروس - الذنب - القرابة  
الدموية - القرابة الاهلية - القرابة الروحية - الادب

١ الصواب : ليس على المحامي عن الوثاق ان يستأنف حتماً في هذه الحالة ،  
الا اذا رأى من واجبه بدافع من ضميره ان يلجأ الى الاستئناف لعدم اقتناعه  
بصواب الحكمين المتطابقين . ثم ليس ثمة ما يمنع احد المتداعيين او كليهما من  
الاستئناف الى محكمة ثالثة . - المترجم .

العمومي - التبني .

وعلاوة على هذه الموانع الواقعية ، يكون الزواج باطلاً لنقص في الرضى . فقد رأينا ان الرضى هو العنصر الجوهري في تكوين وثاق الزواج . فلا زواج صحيحاً إلا ما كان كلا الزوجين قد ابرز رضاه به بحرية واستقلال تامين ، وعن معرفة دقيقة بما يرتبط به . وعلى هذا الصعيد يمكن القضاة الكنسيين ان يكونوا اقل او اكثر تساهلاً وتساهلاً ، او تشدداً وتصباً . والشعور السائد الآن ان للتساهل ، بالاجمال ، التغلب . فتجاه المآسي التي تمزق العائلات غير المتألفة ولا المتجانسة ، تميل المحاكم الكنسية الى تفسير مقتضيات الشريعة باكثر حرية مما كانت تفعل في الماضي . فيبحث اذا كان احد الزوجين قد ابرز رضاه في حالة جهل ، او تحت ضغط ذويه ، او اذا كان قيّد رضاه بتحفظ عقلي فيما يعود الى جوهر الزواج ، او بعزم سابق على عدم احترام احدى غايات الزواج ، وهي انجاب البنين ، وغير ذلك من الاسباب التي قد تقصد الزواج في اصله واساسه او تضعفه ، اعني الرضى الاختياري عن معرفة كاملة .

ومن مدة قريبة ، هال محكمة الروتا ، المكلفة الحكم في دعاوى الزواج في الدورتين البدائية والاستثنائية وما بعدهما ، هالها ما لحظته من تساهل زائد لدى بعض المحاكم الاسقفية في اعلان بطلان الزواج . فاصدورت تعميماً بهذا الشأن .

وبالرغم من ذلك ، فلا يزال عدد الاحكام المعلنة بطلان الزواج في ازدياد على ما يظهر .

وقد يكون الزواج باطلاً كذلك لنقص في صورة عقده اي صيغته . ان عقد الزواج الذي يتم بواسطة الزوجين ، على ما رأينا ، بقوة رضاهما ، يجب ابرامه بابراز الرضى امام شاهد رسمي تعيينه الكنيسة ، وليس امام اي كاهن . فالشاهد الشرعي هو خوري الرعية واسقف الابرشية ، او الكاهن الذي يفوض احدهما ذلك اليه . ومن الراهن ان العتب ببعض قوانين اخرى ، تفرضها الكنيسة في صورة عقد الزواج ، يعتبر نقصاً فيه ، ومنه ما يبطل الزواج ومنه ما يجعله ممنوعاً ، غير جائز ، ولكن صحيحاً .

ويحسن بنا ، في هذا المجال ، ان ننظر في حادث زواج صحيح شرعاً ولكنه غير مكتمل فعلاً . ان هذا الزواج ، مبدئياً ، غير قابل الحل شأن الزواج الصحيح الشرعي ، اذ ان رضى الزوجين هو ما يوليها السر . غير ان الخبر الاعظم ، بحسب الحق القانوني ، يستطيع ان يفسح في هذا الزواج غير المكتمل . وعلماء اللاهوت والقانون في جدل لا ينتهي ليعرفوا كيف يمكنهم تصويب هذا المس ببدلاً امتناع حل الزواج . ولكنهم بالاجماع لا يشكّون في سلطة البابا على التفسير منه .

فعند حدوث شيء من هذا ، يجب تقديم عريضة الى

الاسقف المكاني ، توضح فيها الاسباب التي لاجلها لم يكتمل الزواج ، وما هي البواهي على ذلك ؛ وتورد المسوّغات للتفسيح . والاسقف بدوره يرفع الامر الى الدوائر المختصة في رومية ، فتقوّض اليه عادة التحقيق في الامر بذاته او بواسطة كاهن ينتدبه . على ان كل زواج مطعون فيه على هذا الشكل ، يعتبر مكتملاً ؛ وعلى المدعي اثبات العكس . اما الفحص الطبي فليس دائماً في الامكان ، اذا كانت الزوجة ارملة مثلاً . فعندئذ يكتفي المحقق بالاستماع الى الشهود وبوثائق مكتوبة . وبعد التدقيق في نتيجة التحقيق ، وثبوت الادعاء ، يقدم مجمع الاسرار ( او المجمع الشرقي فيما خص الشرقيين ) تقريراً بذلك الى الجبر الاعظم الذي يستطيع ، شخصياً وحده ، ان يعيد الى العروسين حريتها . وقد يحدث احياناً ، اذا كان في التحقيق ما يدع سبيلاً الى الخوف من ان زواجاً جديداً قد يتعرض للصعوبة عينها ، ان يحظر عقد زواج جديد ولو بطريقة مؤقتة ، على من لم يكتمل الزواج بسببه .

وتبحث القضايا الزوجية في رومية في ثلاث دوائر مختلفة ، بحسب طبيعة هذه القضايا : مجمع الاسرار ، ومحكمة الروتا ، والسنتفيس الذي يحتفظ لنفسه بالحوادث الناجمة عن الزواج المختلط : بين كاثوليكي ولا كاثوليكي . اما الروتا فهي اقدم المحاكم الكنسية ، اذ انها أنشئت منذ ٧٥٠ سنة . ومقرها

القصر الرائع المخصص بدائرة الحُتم الرسولي Chancellerie ، ورئيسها الحالي جبر افرنسي ، هو المنسنور جوليان Jullien ، من كهنة جمعية سان سلبس ( رفع الى مقام الكردينالية سنة ١٩٥٨ ) . وفيها تثار قضايا هي اشبه بالمآسي منها بالدعاوى . ولكنها تجري بسكون وهدوء ، لان جميع اعمالها تقريباً تتم كتابةً . فيقدم محامي المدعي عليه دفاعه مطبوعاً في عشرين صفحة من حجم تحدده المحكمة . وبعد عشرين يوماً يردّ عليه محامي المدعي بمطالعة مطبوعة في عشر صفحات . وغالباً ما تتتالى المرافعات والمطالعات . وقد تدوم هذه الحرب بالنشرات اشهرأ واعواماً . ولا ترخص الروتا للخصمين او محاميها بالمتول امامها إلا في حوادث جد نادرة ، لكي يجلوا شفويّاً بعض نقاط تفصيلية امام القضاة . ومن عادة محكمة الروتا ان تنشر كل سنة احصاءً مجملًا للدعاوى التي انجزت في اثناء السنة القضائية . وهوذا احصاؤها لسنة ١٩٥٣ : ١٧١ حكماً في قضايا زوجية ، ٧٧ منها باعلان بطلان الزواج ، و٩٤ باثبات صحته . وكانت ٢٥ دعوى من الفئة الاولى ، و٤٣ من الفئة الثانية ، مجانية ، لم تكلف المتداعين شيئاً ، وقامت المحكمة بدفع جميع نفقاتها ، ومنها بدل اتعاب المحامين .



## ٢ - محكمة التمييز العليا .

في القاتيكان ، محكمة اخرى ، غير الروتا ، هي محكمة التمييز العليا *Suprême Tribunal de la Signature Apostolique* ، مؤلفة من عشرة كرادلة ، مهمتها عادة القيام بدور محكمة التمييز بالنسبة الى المحاكم الكنسية . وفي حوادث جد نادرة ، قد تكسر هذه المحكمة احكام الروتا وتقبل الشكاوى ضد قضاة هذه المحكمة .

## ٣ - محكمة التوبة .

تجري اعمال هذه المحكمة في الحفية . فقضائهم لا يعرفون على الاطلاق هوية المتهمين . والوقائع تعرض امامها دائماً تحت ستار كتمان الاسماء الصحيحة . ومن اغرب ما لا يصدق ان الكردينال كنالي ، المشترك في ادارة الكرسي الرسولي الزمنية ، هو هو القيم على هذه المحكمة ، محكمة الضمائر .

ان محكمة التوبة تحل من الخطايا « المحفوظة » أعني الخطايا الثقيلة جداً التي لا يحق للمعرف العادي ان يحل منها ، فيحيل امرها الى هذه المحكمة ، او الى الجبر الاعظم بالذات . ولهذا المحكمة ان ترفع العقوبات او التأديبات المنزلة باحد المؤمنين لمجرد اقترافه بعض ذنوب ثقيلة ، معينة في الحق القانوني على درجات : اربع منها « محفوظة بنوع خاص جداً » ، واثنتا عشرة « محفوظة بنوع خاص » ، الخ ...

فالمحكمة تدرس الذنوب التي ادت الى انزال هذه العقوبات ، وترفع التأديبات المفروضة عليها . وقد يضطر المرفع احياناً ، في ظروف استثنائية ، كما في حالة خطر الموت ، ان يحل من الخطايا المفروضة عليها تأديبات ، ثم يعرض ما حدث لمحكمة التوبة ، فتصدر حكماً لاحقاً ، به تثبت ما اجراه المرفع . على ان هذه الخطايا وعقوباتها هي دائماً من الحوادث الاستثنائية . ومن النادر ان تتجاوز الخطايا ، التي يقترفها النائب « العادي » ، السلطات الواسعة التي تمنح لكل معرف .

والى محكمة التوبة يعود كل ما يلامس « منبر الضمير » ، اعني كل ما يلحق بضمير المؤمن ، بدون ان يشيع في الخارج ، او يبدل الحياة الاجتماعية . فمحكمة التوبة لا تعنى إلا بالخطايا الداخلية ، بعلاقات النفس بالله . من ذلك اذا نذر احد نذراً في قرارة ضميره ، ولا قدرة له على ايفائه ، فمحكمة التوبة تعفيه منه . وكذلك « اذا قبل احد الناس ارثاً مرهقاً بشروط شقوية وخفية ، فرأى ذاته غير قادر على اتمام هذه الشروط التي ارتضاها بضميره ، بدون الحاق اضرار جسيمة بنفسه وبذويه » . فمحكمة التوبة ، بعد درس ظروف الحال ، تستطيع ان تبرئ ذمته ، وتعيد الطمأنينة الى نفسه .

كل كاثوليكي يستطيع الاتصال مباشرة بمحكمة التوبة ، فيكتب الى نيافة الكردينال رئيسها . على ان المرفع نفسه يكتب اليه عادة ، مورداً ، في عرضه الحوادث ،

اسماء مستعارة ، فيرد اليه الجواب في غلاف باسمه ، وطيه  
 غلاف مختوم مع شارة محكمة التوبة ، وعليه هذه العبارة :  
 « الى المعرف الذي يختاره التائب بين الكهنة الذين نالوا  
 الولاية من الاسقف المكاني » . فالؤمن التائب يختار معرفه  
 الشخصي او كاهناً آخر ذا ولاية ، فيحدثه من وراء شبكة  
 كرسي الاعتراف ، ويدفع اليه الغلاف المختوم الصادر عن  
 محكمة التوبة ، فيفضه المعرف ويقرأه عليه ، وهكذا تحفظ  
 الى النهاية حرية الضمير وسر الاعتراف .  
 ان الالتجاء الى محكمة التوبة لا يكلف شيئاً ؛ فاعمالها  
 مجانية وتقوم بها بكل سرعة بخلاف سائر المجامع الرومانية ،  
 « لان التوبة الصادقة لا شك فيها ، ومن المهم الاسراع في  
 العمل لكي تعود الى التائب طمأنينة القلب » .

### القسم الرابع

#### نظرات الى المستقبل

## الفصل الاول الشرق والغرب

### ١ - نظرة اجمالية .

للمسيحيين الشرقيين اهمية عظيمة في نظر الكنيسة الكاثوليكية ، بالرغم من قلة عدد المتحدين منهم برومية . فالكنيسة الجامعة ليست على الاطلاق محصورة في الكنيسة الغربية . فبينما تعلن هذه ان في حوزتها وديعة العقيدة الموحى بها ، تحسّ في قرارة ضميرها وفي عمق نفسها انها قد اصبحت ببتري في جسبها ، حين انفصلت عنها اقسام ضخمة من الجماعة المسيحية .

إلا ان الكنيسة الشرقية لم تنفصل عن رومية الا بسبب خلافات على السلطة والولاية ، لا على العقيدة . وهي تواصل ، الى جانب الكنيسة الرومانية ، حياة غنية بثمار الاسرار المقدسة ، ومتصلة رأساً بالمسيحية في اصلها الرسولي . ولكنها رفضت الاعتراف للبابا بسلطة الرئيس الاعلى المطلق ، على اثر سلسلة طويلة من المجادلات اللاهوتية والمشاحنات السياسية ، فاصبحت منشقة في نظر رومية .



ولكن ليس من ينكر عليها انها ، على شاكلة الكنيسة الرومانية ، تتمم بمحاذاة ملء الكهنوت المتصل بها بوضع اليد من جيل الى جيل ، وغارس الاسرار صحيحة وتوزعها على المؤمنين مفيدة ذات فاعلية تامة . ولهذا كان الجرح الذي ينزوي في جنب الكنيسة ، بانفصال الارثوذكسيين عنها ، مما يولها فقراً بالدرجة الاولى .

قال البابا بندكتس الخامس عشر : « ان كنيسة يسوع المسيح هي كاثوليكية اي جامعة : لا لاتينية ، ولا يونانية ، ولا صقلية . وليس ثمة فرق بين الواحد والآخر من بينها » . لهذا السبب ، كانت الاقليات الموالية للبابا ، من غير الطقس اللاتيني ، تمثل ، في نظر الكنيسة ، قيمة تفوق اهميتها عددها ، بما لا حد له .

وليس تفوق الطقس اللاتيني في الكنيسة الكاثوليكية ، في الزمن الحاضر ، سوى ظاهرة عرضية ، تستمر منذ تسعمائة سنة تقريباً . ولكن الكنيسة لا تقيس الزمان بحياة الانسان . فاي شأن لقرن ما في وجودها ؟ كتب الاب ديفريس De Vries احد المعلمين في المعهد الحبري الشرقي برومية : « على الكنيسة الكاثوليكية في المستقبل ان تضم الكنائس الشرقية اليها كاعضاء فيها ، وعلى مبدأ المساواة في الحقوق ، كما كان الامر قبل الانفصال ، وان تتخذ بكليتها شكلاً روحياً ، كنسياً ، يختلف عن شكلها الحاضر الذي هو لاتيني قبل كل

شيء آخر .

## ٢ - نظرة في الحاضر .

لا شك في ان الشقاق نتج ، في الاصل ، عن قسمة الامبراطورية الرومانية الى غربية وشرقية ، عاصمة الاولى رومية ، وعاصمة الاخرى القسطنطينية اي بيزنطة . فاساسه اذاً قائم على واقع سياسي . ثم اشتدت المنافسة بين اللاتينيين واليونانيين . ورغب الاباطرة البيزنطيون ان يجمعوا في قبضتهم ، وفقاً للتقاليد الوثنية القديمة ، السلطين الزمنية والروحية ، فانبرى بطريوك القسطنطينية يقاوم اسقف رومية الذي كان يطالب لنفسه بخلافة بطرس رئيس الرسل . فكانت النتيجة ان وقع البطريوك تحت ولاية الامبراطور . ومنذ تسعة قرون ، سنة ١٠٥٤ ، اصدر البابا مرسوماً به يحرم مخايل كيرولاريس Cérulaire بطريوك القسطنطينية ، فتم بذلك انشقاق الشرق . وفيما بعد سارت المملكة الروسية الشاسعة الاطراف ، التي كانت القسطنطينية قد هدتها الى الدين المسيحي ، في اعقاب اليونانيين وتبعتهم في الخروج على رومية .

ولكن بين الكنيستين اكثر من نزاع سياسي . فان لكل منهما تقليداً خاصاً ، وروحانية ذاتية ، وتفسيراً متبايناً للرسالة المسيحية الواحدة .

ففي الشرق ، كلما زاد رؤساء الكنيسة خضوعاً مباشراً للسلطة الزمنية ( ولما ينته ذلك بعد ! ) كان المؤمنون ينضمّون جسماً واحداً في كنيسة باطنية منصرفة الى التأمل . على ان هذه الشقة بين الرؤساء الكنسيين السياسيين والمسيحيين الروحانيين لم تنل بشيء حيوية الايمان وعمقه . ولكن هؤلاء المسيحيين كانوا يبعدون عن العالم ليصلّوا ، وكانت عبادتهم مركزة على شعورهم بان الحياة الروحية لا تتفق وحياة العالم .

اما في الغرب فولّت الكنيسة وجهها شيئاً فشيئاً شطر الامور العملية الواقعية ، واختصرت الطقوس ، ووضعت لها نصوصاً لاتينية ، وجنّدت من بنيتها جيشاً دفعته الى مختلف الاقطار ليهدي البشر الى المسيحية ؛ وكانت تعمل ، بموجب خطط ومناهج اصولية ، على تركيز شؤونها وتنظيم السلطات الدينية في تسلسلها ، وفقاً لما ورثته من تقاليد الحق الروماني ، بينما كانت الكنيسة الشرقية تعرق في اللامبالاة بمجازفات رؤسائها السياسية .

على ان الافراط في تحديد هذه الخصائص الفارقة بين الكنيستين ، ليس دائماً واقعياً ، بل نتيجة نظريات شخصية . ففي الغرب حياة روحية متعمقة في التأمل على مثال ما في الشرق . فنحن امام اتجاهين حالت الحواجز المفتعلة دون تلاقيهما ؛ ولولا ذلك لكان احدهما يتم الآخر ،

فينشأ كيان واحد متلائم . فاذا حصل الآن هذا الاتحاد ، كانت المسيحية الجسر بين الغرب والشرق .

### ٣ - نظرة الى المستقبل .

لتتصور المدى الذي تبلغه الكنيسة ، اذا عاد مسيحيو روسيا وسائر المشرق عن جديد فأووا تحت كنف السلطة المركزية الرومانية . ان المسيحيين الخارجين على ولاية البابا يعدون اليوم نحواً من مائة وخمسين مليوناً ، ومنهم طوائف كثيرة تسام الاضطهاد في الاراضي الخاضعة للحكومات الشيوعية ، ومنهم طوائف اخرى مشتتة بين شعوب مختلفة الاديان في الشرقين الادنى والاقصى . وهكذا من روسيا الى مصر ، ومن بلغاريا الى فلسطين ، ومن رومانيا الى لبنان وسوريا ، ومن ايران الى الحبشة ، تملك الكنيسة بعض رقبات جسر وبعض فرق استطلاعية قلائل ، مفصولة الواحدة عن الاخرى ، صامدة منذ قرون طويلة .

ولا ينبغي لنا اهمال ناحية اخرى من الدور الذي يستطيع الارثوذكسيون ان يمثلوه في معضلة اتحاد الكنائس . فالكنائس الشرقية صلة بين الكنائس البروتستانتية والكثلكة على الصعيد السيكولوجي اكثر منها على الصعيد اللاهوتي . ومن الراهن ان الارثوذكسيين والبروتستانتين يشتركون

معاً في حذرهم من البابا . إلا ان الارثوذكسين قد استبقوا ما فقدته البروتستانتيون ولا يزال بعضهم وخاصة في انكلترا يحن اليه حنين الغريب الى وطنه ، اعني التقليد الرسولي في ايلاء الكهنوت ومنح الاسرار بصورة صحيحة .

في الازمنة المتأخرة اقيمت ، بين حين وآخر ، اجتماعات 'سبتهت' «بجامع عامة» ضمت معاً البروتستانتين والشرقيين . ولكن الكنيسة الكاثوليكية لم تشترك فيها بالفعل كمفاوضة ، بل ارسلت اليها مراقبين من قبلها . على انها تشجع حركة تدعى «الاتحاد» Unitas قام بها منذ سنين الاب شارل بوييه Boyer احد الرهبان اليسوعيين في رومية ، ولا يزال يتعهدا بكل دراية وفطنة .

ومن زمان بعيد ما عادت الكنيسة الكاثوليكية دعت الى عقد مجمع عام . فالبابا هو وحده حالياً مصدر التعليم بكليته . وقد يكون في ظروف الزمان الحالي ما يلائم عقد جمعية من اساقفة الكنيسة العامة ومعلمي اللاهوت فيها . والسبب في ذلك ليس فقط الخطر الذي يهدد العالم كل ساعة بكوارث سياسية واجتماعية ، ولكنه كذلك شعور الكنيسة بانها خسرت كثيراً بسبب الانشقاقات ، فلم يعد في وسعها ان تعقد مجمعات عامة بما يليق من السناء والفائدة . ثم ان علم اللاهوت ، على ما يظهر ، يجتاز اليوم ازمة . فالمعلمون في الجامعات والمدارس الاكليرسية يقصرون مهمهم

على ترويض تعابير قديمة مستقاة من تعاليم مار توما الاكوييني ، ما خلا نفرأ قليلاً تطوعوا لمحاولة تطبيق الفلسفة العصرية على تعليم الكنيسة التقليدي .

ويخال لنا انه لا بد من ارتقاب يوم ، ربما كان حدساً ، او هو بدون شك بعيد جداً ، يلتئم فيه مجمع عظيم يضم اهم الكنائس المسيحية التي احتفظت ، على درجات متفاوتة ، بمعظم معطيات الوديعة المسيحية في الغرب والشرق .



## الفصل الثاني

### الكنيسة والشيوعية

#### ١ - نظرة اجمالية .

سنة ١٩٥٣ ، ما كنت ترى في رومية سوى ابتسامات ولا تسع إلا تهاىء لمناسبة انعقاد مجمع الكرادلة الذي دعا اليه البابا ورأسه ، وهو احد اهم المجامع في زماننا ، وفيه سمي عدداً كبيراً من الكرادلة الجدد. على ان جريدة الاوسرفاتوري رومانو ، لسان حال الفاتيكان شبه الرسمي ، نشرت ، وسط هذه الغمرة من السرور ، النص الكامل للرسائل التي تبادلها الكرسي الرسولي ويوغوسلافيا ، قبل قطع العلاقات الدبلوماسية بينها . ومنها رسالة من وزارة الدولة الى حكومة المارشال تيتو Tito ، تبسط باختصار ووضوح خطة البلدان الشيوعية في محاربة الكنيسة الكاثوليكية

فما ان اطلع عليها الاحبار والزوار والسيّاح في رومية ، حتى انتقلوا من جو الاعياد البهجة الى حضيض الحقيقة الراهنة ، وعاد الى مجمع الكرادلة طابعه الحق ، اي كونه مجلساً حربياً بقدر ما هو عيد عائلي .

ولا يزال ذكر الغائبين من الكرادلة يقلق البال ، وهم : الكردينال ميندزنتي Mindszenty الهنغاري المستقر في الحبس ، بعد ان عذب في جسده وفي نفسه ؛ والكردينال ويزنسكي Wisnesky البولوني المسجون ؛ والكردينال استبيناك Stepinac اليوغوسلافي المحكوم عليه بالاقامة الجبرية .

وتقوم حول رومية منطقة تدعى الزنار او السور الاحمر Ceinture Rouge ، لا تبعد عن الفاتيكان سوى بضع مئات من الامتار ، هي هم البابا المقعد المقيم . فهناك مدينة من اكواخ خشبية ، قامت في اثناء الحرب ، تعيش فيها بفقر مدقع عائلات عديدة من الشعب الكادح ، مكرهة على البطالة ، قانطة من وجود عمل . وفي بقايا القنوات الرومانية الحربة ، تقيم على الحضيض عائلات اخرى تفوق تلك بشقاءها . وهؤلاء واولئك قطعان مهيأة لان تسلم قيادها لاقلية من الشيوعيين المجاهدين المدربين المتعطشين الى الهجوم والقتال .

وقد اسفرت الانتخابات البلدية الاخيرة ، في رومية ، عن فوز الشيوعيين برئاسة المجلس البلدي ، واحتفاظ الحزب الديمقراطي المسيحي لانصاره بوظائفهم الادارية فيه .

هذا في اوروبا . اما في الصين فكم من المطاردة والاساقفة والكهنة والرهبان والراهبات ، يفدون الى رومية ، فيسقطون المأساة الكاثوليكية في بلاد ماو تسي تونغ Maw Tsé Tong ؛ كما

يصف الكردينال الهندي الجديد في بومباي فالريو جرائياس Valerio Gratias الخطر الشيوعي المتفاقم الذي يهدد وطنه . وفي كوريا الشمالية ، قوّضت الحرب جهود الكاثوليكين ، وقتل الكثير من الكهنة والمرسلين والمؤمنين . وفي الجملة ، تتعالى الاصوات ، من كل الجهات ، وخصوصاً من اعماق آسيا ، داعية رومية الى الاحتراز والحذر .

### ٢ - في الصين .

كان شهر كانون الثاني ١٩٥٣ ، كثير المطر في رومية . فاستقبلني المطران روميه Romier في غرفته الباردة ضمن بيت الرسالات الدولي Maison Internationale des Missions ؛ وكان قد قضى اربعين سنة في الصين ؛ ومن سنة ١٩١٢ الى سنة ١٩٥٣ ، لم يرجع الى موطنه فرنسا الا مرتين فقط لمشاهدة ذويه . فتوى وجهه قد استعار قسما الصينيين ، وعينه قد استطالت مآقيهما وضافت ، ولحيته الطويلة الضئيلة كاطار تبرز منه وجنتاه النابتتان ، ولهجته تذكري بلهجة اهل بوردو في فرنسا ، وروسيا ، وانكلترا ، والصين ، وكلامه قد اضحى مزيجاً من الفرنسية والانكليزية ، ومنه ما هو دائر ، ومنه ما هو سوقي .

ان هذا الحبر مطران في الصين ، فطرده حكومة ماو تسي تونغ ، بعد ان سامته اصناف الجور واسرته زماناً

طويلاً . وهذا المطران واحد من الالف والثلاثة والخمسين حبراً ومرسلاً وراهباً وراهبة الذين ابعدهم السلطات الصينية عن بلادها في السنة الاخيرة ، وفق خطة منظمة .

شاهدت عدداً وفيراً من هؤلاء المرسلين الذين اكرهوا على مغادرة الصين ، بعد ان قضوا فيها حياتهم كلها في خدمة المسيحيين . والتقيت الاب إنلدي Enaldi الايطالي الذي كان قد قطع لسانه بنصل موساه ليمتنع عليه افشاء اسماء الكاثوليكين الصينيين الذين كانت الحكومة تجهد في الحصول منه على معرفتها ، باستجابات لا نهاية لها ، منظمة وفقاً لآخر ما وصل اليه علم التعذيب والاجهاد السيكولوجي من الاساليب الجهنمية .

ان هؤلاء المرسلين ينشرون في احاديثهم ويبسطون في تقارير يرفعونها الى مجمع نشر الايمان ، ما يتيح لنا الاطلاع على الخطط التي يلجأ اليها ماو تسي تونغ على الجبهة الصينية من الحرب الطاحنة القائمة بين الشيوعية والكنيسة الكاثوليكية . وان لهذه الجبهة اهمية جلي في نظر الفاتيكان ، ليس من حيث عدد الكاثوليكين الذين يخوضونها ، بل من حيث ان الكنائس الصينية ، وفيها الكنائس قديمة جداً ، ضمنت ولا تزال تضمن استمرار الوجود المسيحي في آسيا .

من زمن قديم ، انشأ الكرسي الرسولي في الصين سلطات كنسية متسلسلة من ابناء البلاد . فالساقفة الاول ، الذين

اختارهم البابا بيوس الحادي عشر، كانوا صينيين ؛ وكان صينياً اول كردينال من غير اللون الابيض ؛ والكنيسة الصينية الجديدة يسوسها عددٌ من الاساقفة والكهنة الصينيين . وهكذا استوطنت الكنيسة الكاثوليكية الصين ، بما اثار ردة فعل عنيفة في دوائر الحكومة الشيوعية .

ان خطة هذه الحكومة تشتمل على ثلاث مراحل :

١ - انها تعتمد قبل كل شيء الى الحؤول دون اتصال الكنيسة الصينية برومية . فتقوم لهذه الغاية بحملة في الاوساط الشعبية ؛ ثم تطرد ممثل البابا السيد ريبوي Riberi ؛ فيصبح الاساقفة « معزولين » في الصين .

٢ - انها تطرد الاساقفة والمرسلين الاوروبيين والاميركيين بحجة انهم يقومون « بالتجسس لمصلحة الرجعية الراسمالية » .

٣ - بعد حرمان منطقة ما الاتصال برومية ، وابعاد رؤسائها الكنسيين غير الصينيين عنها ، تضغط ضغطاً عنيفاً على الاكليروس الصيني في سبيل جعل الكنيسة الكاثوليكية ذات استقلال ذاتي ، وطنية مستقلة ، عن الفاتيكان ، وتقفل المدارس الاكليروسية او تضعها تحت اشرافها المباشر .

فهذه المراحل الثلاث : الانفصال عن رومية ، وتنحية الاساقفة ، وانشاء كنيسة وطنية يسهل ازديادها لقيمة سائغة ، تتبعها جميع البلدان التي تشن الشيوعية فيها الحرب على

الكنيسة الكاثوليكية .

وليس من لا يذكر تلك الحملة الشعواء التي شنتها السلطات في بلغراد على المنسيور اودي Oddi ، القائم باعمال السفارة البابوية في يوغوسلافيا ، حتى اضطرته الى مغادرة البلاد بعد قطع علاقاتها الدبلوماسية بالفاتيكان .

وفي يوغوسلافيا كما في هنغاريا ورومانيا ، تشجع الحكومة ، بطريقة شبه رسمية ، قيام طوائف اي كنائس كاثوليكية « مستقلة » و « وطنية » . وفي سائر بلدان ما وراء الستار الحديدي ، اجبر السفراء البابويون ، من زمن بعيد ، على ترك مناصبهم ، وزج الكنسيون الكاثوليكيون في الحبس ، او وُضعوا في حالة تحول دون مباشرتهم اي عمل .

واحياناً تتخذ المقاومة ضد الاساقفة شكلاً جديداً عنيفاً . من ذلك اعدام المنسيور بوسلكوف Bossilkof في بلغاريا . وفي جميع البلدان الواقعة تحت الرقابة الروسية ، اصبح الاساقفة في المنفى او في الحبس ، مثل الاساقفة المتحدين برومية في غاليسيا . وفي يوغوسلافيا اخذت الدولة تحت حمايتها « شركات الكهنة الشعبيين » .

ومما كتبه وزارة الدولة في هذا الصدد : « يأتي البوليس الى الاجتماعات الدينية حيث تلقي الخطب التي تشجب ، بطريقة مكشوفة وعلنية ، اعمال الاساقفة ، بل الكنيسة جمعاء . وهذه « الشركات » يشدها تعاون وثيق الى الجبهة الشعبية ،



وبواسطتها الى « اتحاد الشيوعيين في يوغوسلافيا ».

أما انشاء الكنائس الوطنية ، تحت اشراف الحكومة وسهرها الدائم ، فتختلف خطته باختلاف البلدان . وهاكم الاطوار الاربعة التي يتم بها تأميم الكنائس في الصين .

١ - يتجمع الكاثوليكيون ، في كل رعية ، شركات او جمعيات ، منها للرجال ومنها للنساء ؛ وتشترك هذه الجمعيات في التظاهرات العامة الضخمة . وبلاستناد الى آيات من الانجيل او من رسائل مار بولس ، يُشرح لهم كيف ينبغي للمؤمنين « الطاعة للسلطة » او « تأدية ما لقيصر الى قيصر ».

٢ - على المسيحيين ان يترددوا الى « حلقات الدروس » التي يديرها « مسيحيون تقدميون » ، مهمتهم اعادة الديانة الى « نقائها الاولي » . فيُشرح لهم ان الاسقف الفلافي والكاهن الفلافي وزملاءهما يسخرّون طابعهم الديني لغايات سياسية . ثم يلقنون في النهاية مبادئ « العقيدة المركسية ».

٣ - وبعد اعداد قسم لا بأس به من الكاثوليكين ، بواسطة « حلقات الدروس » ، على هذا الشكل ، يأخذ العمل بالانتضاح . فتتظم الاجتماعات ضد المرسلين الاجانب ؛ وتتهم علناً منظمة « فرقة أو جيش مريم » ، التي هي فرع من العمل الكاثوليكي ، بالتجسس وبقتل الاطفال ، الخ ... وعندئذ تُقدّم حلقات الدروس على تحقيق اصلاح الكنيسة ، فتدعو المؤمنين الى الوقوف في وجه الاساقفة والكهنة للمحافظة ، بافضل

وجه ، على نقاوة الايمان وصفائه .

٤ - وبعد انشاء هذه الجمعيات من مسيحيين ومسلمين وبوذيين ، الملقبين جميعاً « بالمستنيرين » بمصباح الدولة ، تعلن حلقات الدروس استعدادها للقيام بادارة الرعية والابرشية على مسؤوليتها ، بدلاً من رعاتهم المستوذلين . وعند هذا الحدّ يتحوّل « التطهير » الى محاولة « التوحيد » ؛ فتبتزج هذه الكنائس المُصلّحة على الطراز الحديث ، بالرغم من اختلاف مذاهبها ، وتؤلف نوعاً من كنيسة عليا ( فوق الكنائس ) ، تركز على عهد وطنية .

وعندما تدرس الحكومة القضايا الدينية ، تختار الخبراء من هؤلاء « المتّقّين الكبار » . ويؤلف البروتستانتون والمسلمون والبوذيون والكاثوليكيون ، وجميعهم تقدميون وتحت اشراف الحكومة ، جماعات دينية بدون رؤساء ، ينساق الاساقفة والكهنة والمؤمنون ، الذين يحرسون على سلامة ايمانهم واستمرارهم فيه ، يعتبرون معارضين للعهد الجديد .

أما رومية ، وقد بذلت اقصى جهودها ومعظمها في الصين ، فتوى ، والحزن يحزّ في نفسها ، ان كهنتها يقل عددهم فيها ، ويزيد في قلقها ان معيناً يجود عليها بجنود جدد قد نصب .

## ٣ - « البابا الاحمر » ينشئ الكنائس الجديدة .

منذ ثلاثة قرون ، بدأت السلطة الكنسية المركزية تعمل بعزم ثابت على التوسع ، والقت هذه المهمة الى مجمع خاص هو مجمع نشر الايمان . وقبل ربط جهود المرسلين ، على هذا الشكل ، بمرکز واحد ، كان التبشير قائماً على نشاط كبار الرحالة الذين كانوا يقتحمون الاسفار الطويلة في سبيل اكتشاف عوالم جدد . وعلى مدى زمان طويل ، كانت الرسائل وقفاً على البرتغال واسبانيا . وكان لعمل المرسلين ناحية سياسية ، هي خدمة اوطانهم الاصلية في منافعها الاقتصادية ، وزيادة ثروتها ، وبسط سيطرتها على اراض جديدة . فبعد انشاء مجمع نشر الايمان ، اتخذ الباباوات من قصر روماني قديم ، قائم على ساحة اسبانيا في رومية ، مقراً عاماً للجنود الكاثوليكين المروضين المرشحين لاقتحام الامصار الوثنية وهدى شعوبها الى دين المسيح . فالكردينال رئيس المجمع ، ويلقب بالبابا الاحمر بسبب الثوب القرمزي الذي يلبسه ، يقود في الوقت الحالي جيشاً من اثني عشر الف كاهن بلدي ، وستة عشر الف مرسل . ويبلغ عدد الكاثوليكين الخاضعين لولايتهم نحواً من ثمانية وعشرين مليوناً . على ان غالبية هؤلاء المؤمنين ليسوا سوى شبه رقبات جسر في اراض شاسعة واسعة من افريقيا وآسيا ، تعنى رومية بكل اناة ببذر الزرع الانجيلي في تربتها .

وبالرغم من الصعوبات الجمة التي تصطدم بها الكنيسة في بعض البلدان ذات الطابع الشيوعي ، فان عدد هذه الجماعات الفتية يزداد على التوالي . فسنة ١٩٢٧ ، كان تحت ولاية مجمع نشر الايمان ثلاثة ملايين كاثوليكي في افريقيا ، فاصبحوا احد عشر مليوناً سنة ١٩٤٩ ؛ وكانوا ستة ملايين في آسيا ، فصاروا تسعة . ان هذه الارقام تخمينية وتقريبية لاسباب عديدة . ولكن يبقى من الاكيد ان الكنيسة تعلق آمالاً واسعة على انتشارها بين هؤلاء الشعوب الذين حققوا تحرورهم او اقربوا منه ، وهم الآن على اهبة القيام بخدمة بلادهم في اعقاب الاجيال الذين تقدموهم .

وتعنى الكنيسة في ايماننا اكثر من ذي قبل بانشاء كنائس محلية ، وبرسامة اساقفة وكهنة من السكان الاصليين البلديين في اراضي الرسائل . وهذه العناية تعود بقدمها الى زمن الجهود الاولى في سبيل التبشير . ولكن رومية لم تقرّر ، الا في عهد بيوس الحادي عشر ، ان ترفع ، بكل جرأة وليس بدون خطر ، الى مقام رؤساء عاملين في سياسة الكنيسة ، بعض المؤمنين الذين هدام المرسلون الى الدين المسيحي من زمن بعيد .

وفي الوقت الحاضر ، يكتبي مجمع نشر الايمان ، في كثير من هذه البلدان ، بوضع المعالم الاولى للتبشير ، تاركاً للكنائس المحلية الفتية ان تربو وتنمو شيئاً فشيئاً ، بينما يواصل

هو امدادها بالمساعدات .

وهناك قوة اخرى ، كنيسة اخرى ، تجهد في بسط سيطرتها على شعوب افريقيا وآسيا ، عينا بها الشيوعية . وهذا الواقع الاساسي هو الذي جعل مجمع نشر الايمان يعدل خطته ومناهجه تعديلاً عميقاً . فعادت ادارة الرسالات مباشرة الى البابا ووزارة دولته ، لان المرسلين اصبحوا يجابهون صعوبات اجتماعية ناتجة عن تحرر تلك الشعوب ، ويتعرضون لدعايات وطنية متطرفة ، ولحملات عنيفة من جانب المركسية الجامحة . وما عدا ذلك ، فان في كثير من البلدان الاوروبية القديمة حاجة ملحة الى ايقاف تيار الفتور الديني ، بل تيار الانحراف حتى العدول عن الدين الى الالحاد والكفر . فانشأت الكنيسة ما سموه « الرسالة في فرنسا » و « الرسالة في باريس » لمعالجة هذه الحالة . فاغار الكهنة على المصانع في المدن الكبيرة بالروح عينه الذي دفع المرسلين الى ركوب البحار صوب امراض مجهولة .

وفي افريقيا ، جعل الاب شارل دو فوكو Ch. de Foucaud ذاته شبيهاً باتمس فقراء السكان الرحّل ليحمل رسالة السيد المسيح الى هذا العالم - بمنّاه وباستقراره بينهم ، يعطف عليهم بروح المحبة المسيحية ، حتى اصبح بعد وفاته ينبوع الوحي الاول والشفيع الاكبر للحركات الرسولية التي ينتظر منها ان تعظم في العالم القديم ، وتكمل العمل الذي

بدأه « الكهنة العمال » أو الذين خلفوهم .

ان امتزاج الكنيسة الرومانية ، على هذا النحو الحميم ، بالجماعات المسيحية القائمة في آسيا وافريقيا ، يمثل عنصراً جديداً في حياة هذه الكنيسة . فقد اقيمت في الغرب معارض كبيرة للرسالات رأينا فيها صوراً ورسوماً للسيد المسيح وللمريم العذراء والقديسين تمثلهم وفق عقلية هؤلاء المسيحيين الجدد ، ولكنها تبدو لنا غريبة . وقد نشأ عندهم فن معماري كنسي وفقاً لعادات بلادهم ، ولا تخلو بعض محاولاته من كونها عوجاء خرقاء . على ان من الراجح ان يتم شيئاً فشيئاً تمازج اعمق بين روحانية هؤلاء الشعوب والكنيسة . وحتى الآن كان الإهداء الى الكتلكة يقتضي اعتناق الطقس اللاتيني والتفكير والصلاة على الطريقة الغربية . ولكن الكنيسة اخذت تميل اكثر فاكثر الى اجتناب فرض ما كان غربياً محتجاً على مسيحيي بلدان الرسالات . انها تفتش على مهل عن تعابير تقوية جديدة . وقد يجيء يوم تعني فيه طقوسها بعناصر بلدية محلية . وهذه القضية طرحها لأول مرة على بساط البحث المرسلون اليسوعيون في الصين منذ اربعة قرون . وكان قصدهم ان يدمجوا في الطقس الكاثوليكي العبادة التي يؤدونها الصينيون الى امواتهم . وبعد جدل طويل ، بدا الامر لرومية غير خالٍ من الخطر ، اذ رأت فيه تصويماً لعبادة وثنية وتشجيعاً لها . ولكن الكنيسة عادت



فدرست القضية من جديد بعد مهلة اربعماية سنة ، فاصدورت ، منذ ثلاثين عاماً على التقريب ، قراراً به تجيز للكنوليكين الصينيين ان يعبروا بعلامات خارجية عن تكريمهم لقداماهم . فاعتبر هذا التكريم ، اليوم ، كأنه على اتم وفاق والعقيدة الكنوليكية .

يتمتع رئيس مجمع نشر الايمان بسلطات واسعة على الكنائس الكنوليكية الموضوعة تحت ولايته . فمنها ما جعلت ابرشيات يسوسها الاساقفة ولا يؤدي « البابا الاحمر » اليها سوى مساعدات واعانات . ومنها ما هي تحت سلطة نواب رسوليين ، او وكلاء رسوليين ، او رؤساء رسالات مستقلين . وفي الهند واليابان والصين ، وفي نواحي افريقيا الشاسعة ، اصبحت الكنائس الكنوليكية ذات سلطات متسلسلة ذاتية . ومن آلاسكا الى جزر الانتيل ، ومن ليبيريا والتوجو الى ياووندا ونياسا والزنجبار ، ومن بور لويس الى مدراس ، ومن كولمبو الى بنجكوك ، ومن سيوونتز الى هيروشيا ، وضع مجمع نشر الايمان المعالم ليهدي خطوات المرسلين الاولين ، والقي رقبات جسر ، ولا يزال يشمل بعنايته اعمال هؤلاء الرسل ، ويدوّن ، بتدقيق ونظام ، في سجل شهادته الضخم ، اسماء الشهود الاخيرين .

### الفصل الثالث

#### البابا يعبيء جيش الرهبان

##### ١ - ازمة في الاديرة .

بالقرب من مار بطرس يمتدّ احد الشوارع التجارية المعروف بـ « كولادي رينزو » Cola di Rienzo ، رأيت فيه يوماً راهبتين تشقان طريقهما وسط جمهور من النساء المسارعات باكرأ لمشترى اللازم لمعاش بيوتهنّ ، احدهما مُسنّة قاربت الستين من سنّها ، قسّات وجهها مستقيمة وقاسية كأنها تمثال من الطراز الغوطي ، وعلى شعر رأسها المقصوص حتى جذوره شبه خوذة من قماش مُنشأ ، وعلى منكبيها يتدلى ازار اسود ثقيل ينحدر حتى خصرها ، وبزنارها علق سبعة غليظة الحبات ، وثوبها الاسود الفضفاض يكاد يمسّ الارض . اما رفيقتها ، وهي لم تزل في عهد الصبا ، فسافرة الوجه ، وعلى مثال الممرضات ، يضم شعرها غشاءً خفيف عند مؤخر الرأس ويهبط الى ما تحت نقرتها بقليل ، ولباسها رداء قصير ، وطوق ابيض ضيّق ، وفستان اسود يعلو عن الارض خمسة عشر سنتيمتراً .

هاتان الراهبتان تنتميان الى دير سيدة الناصرة : احدهما تلبس الثوب القديم ، والاخرى الثوب الجديد الذي آقره البابا ، فلبسته الراهبات الفتيات ومرت به امامه .

لقد هاجت الراهبات وماجت مذ ان اعتزم مجمع الراهبات تحويل بزة الراهبات وفقاً للمقتضيات العصرية . واشتد النزاع في كل مكان بين القديم والحديث . وقام صراع الاجيال في الدير . ان مشايخي الحديث يعانون عراكاً شاقاً ، ولكن مناصريهم كثرة ، ومنهم البابا . هبّ ربح الاصلاح على الدير فليلا يلامس الثوب الخارجي ، فتوكلها الفاتيكان تسير سيرها البطيء ، لانه لا يريد ان يفرض الاصلاح فرضاً على الراهبات ، مراعاة لحرمة استقلالها الذاتي .

قال لي احدهم : أتعرف ان اسكوبيرث Schubert ، الحياط الذي تروى محلاته كبيوت نجوم الغناء ، قد أعد سلسلة من تصاميم لثياب الراهبات الجديدة ، وعرضها على قداسة الخبر الاعظم ليأمر بتصديقها ؟ ولكن لا نصيب له كبيراً في النجاح . كان محدثي احد الحياطين الكنسيين . وكان الحديث في ردهة مخزنه القريب من البنتيون وكنيسة القديس لويس للفرنسيين . وهذا الحي من المدينة الخالدة اشبه شيء بحي سان سلبس في باريس ، يجد فيه الاكليروس ما يحتاج اليه من ثياب واوان وحلل كنسية . ان وراء واجهة من البلور قبة

كردينالية جدّ جميلة . وهنا وهناك طيالة من حرير بنفسجي زاهٍ او خمري او احمر ، وفراء بيضاء ، واقمشة بالوان مختلفة ومتموجة ومطرزة ، مما يُشيع في الجو شيئاً من الحلاوة والعذوبة والنعومة . ولكن يا لضياع الحرير ! يا لحسارة الفراء ! فمنذ مجمع الكرادلة الاخير ، امر البابا بتقصير ذيول الادرية الكردينالية ، وبتحريم الاقمشة الفاخرة .

على ان هذا الاصلاح الخارجي في الملبس يعكس ازمة عميقة يتخبط فيها عالم الراهبات على اتساعه وتنوعه واختلاف قوانينه . وما هذه الازمة سوى وضع الرهبان والراهبات في المجتمع المصري .

## ٢ - الراهبات والتجدد .

قال لي راهب فرنسي : تأمل اننا في غمرة العصر الذري ما زلنا نلبس الثوب الصوفي الحشن الاربدي على مثال مؤسسا القديس فرنسيس .

كنت ذات يوم في مطار شمينو Ciampino بالقرب من رومية ؛ وكان البرد قارساً ، ولباسي رداء من وبر الابل ؛ وكان مخاطبي يحتذي نعلين بدون جلد ، وليس في قدميه جوارب طويلة ولا قصيرة ؛ وكانت الريح التي تفتح الريف الروماني عاصفة من وراء الجبال تدخل الى جسمه من طوق ثوبه المفتوح واسعاً . انه راهب فرنسي ، لا

يبالي بالهواء الصاقع . فقال لي مبتسماً ، تبديداً لدهشتي : افي منذ سبعة قرون اقرن واتدرب ...

يتساءل الكثيرون من اخوة هذا الراهب ، على اختلاف قوانينهم : هل من الموافق ان نحفظ بشباب من القرون المتوسطة ، ونحن نمارس رسالتنا في عالم عصري ، في عهد الثوب القصير Short والطائرة الزارقة كالنجم المذنب ؟ وبعبارة اخرى هل يلائمنا ان نظهر في وسط هذا العالم كأننا لسنا منه ، كأننا من زمان آخر ، نابون عن زماننا ، منعزلون حتى بثوبنا عن معاصرنا ؟

ان اديرة عديدة قد بثت هذه القضية على الصعيد الفكري ، فدفعت بجندها الهجومى الى احتلال المواقع الامامية في الفن والعلم . ولكنها تنتظر قرار السلطة المركزية ، في رومية ، في ما يعود الى تحويل نظام الحياة الخارجى . وهذه ليس من دأبها التسرع على ما قال خياط القاتيكان ، خصوصاً بعد ان رأت الاجيال الفتية من الرهبان والراهبات يحاولون دفع الكنيسة في الركب العصري ، مما يقلق السلطة ويجدوها الى القبض على الامور بيد شديدة خشية السقوط في الورطات والموات .

### ٣ - الراهبات القانتة .

للرهبان والراهبات جمعيات لا عديد لها ، يعيشون فيها

بموجب قوانين يختلف واحدها عن الآخر . على ان حدوداً واضحة تفصل بين المنصرفين منهم الى العمل Actifs ، او الى التأمل Contemplatifs ( وقد دعونا هؤلاء « القانتين » ) . فيينا يعمل اولئك في معترك الحياة : في المدارس والمستشفيات ومعاهد الاصلاح والرسالات ومحاربة الدعارة ، يعتبر هؤلاء مدفونين احياء ، فحياتهم ليست سوى صلاة ومارسات تصوفية لا غير . على ان اديرتهم تخرج ، من وقت الى آخر ، شخصيات فذة يستمر اثرها اعواماً بل قرونأ ، كالقديسة تريزيا الطفل يسوع ، وكانت فتاة مختبئة في دير الكرمل في ليزيو Liseux ، المدينة النمرندية الصغيرة في فرنسا ، فاصبحت في القرن العشرين احد كبار الاشخاص اللامعين في الكنيسة .

ان الحياة في اديرة « القانتين » من الرهبان والراهبات لشاقة للغاية . فالترايبون Trappistes ، مثلاً ، يحظون عليهم التحدث على الدوام ؛ فيعبرون عن افكارهم ، على شكل بدائي ، ببعض حركات يتعلمها المبتدئون ، وبواسطتها يستطيع الآباء التفاهم ؛ ويبلغ الصوم عندهم حد الافراط في شدته ؛ وتستمر تلاوة الصلوات الفرضية ساعات طوالاً ؛ ويقطع الرقاد ، في منتصف الليل ، بصلاة عامة في كنيسة غالباً ما تكون صاعدة . ويخضع الرهبان لنظام عقلي وروحي جد قاس ، يقضي عليهم بالطاعة المطلقة للرؤساء ،



كما يقضي عليهم ، مدى الحياة ، بمساكنة اشخاص لا يد لهم في اختيارهم ، وقد لا يحبونهم في بعض الاحيات إلا على كره منهم .

قال الاب جس Jammes الترابي ، رئيس دير الينابيع السبعة Sept - Fons : « ان رهباننا لا يهدفون الا الى ان يظهروا للعالم وجه الكنيسة الاولى المنسي ، واخوة الجماعة المسيحية الاولى ، حين كان كل شيء للكل . قد يبدو هذا الامر بسيطاً جداً . ولكن ما اصعبه في الواقع ! فكثروا اننا لا نكون ابداً وحدنا ، إلا وقت التأمل الذي فخلو فيه الى الله ، لاننا نشغل ، ونأكل ، ونوقد ، ونخدم الله دائماً معاً . قد نخالون ان هذا ليس بالامر الجلل . فجربوا ! اجمعوا نحو مئة رجل ، والزومهم بان يعيشوا بدون انقطاع بعضهم مع البعض الآخر ، في منزل واحد ، منصرفين الى اشغال واحدة ، مجتمعين في ساعات معينة في محل واحد لتناول الطعام ، وفي محل واحد آخر للرقاد ، واخلاقهم ، وان صلحت ، لا تخلو من بعض شراسة ومن بعض انحراف واعوجاج ، واجسامهم تثقلها غالباً الاسقام والعلل . فلن تتوصلوا الى ان تنالوا منهم ان يحتمل بعضهم البعض الآخر ، وبالاخرى ان يحبه ؛ ولا ان يجهدوا انفسهم في ان يخدم بعضهم بعضاً بنشاط ولطف ، بدون ادنى كراهية وملل ، وبدون شعور انافي ولا توبيخ او عتاب صامت . على ان ذلك هو ما ينتظره المسيح منا ويطلبه

فينا ، بحق ، حين يذكّرنا بان شريعة الله هي ان نجب قريبتنا كنفسنا .

هذه حياة الترابيين يقضونها معاً مشتوكة على الدوام . اما الكرتوزيون Chartreux فيقضون حياتهم في خلوة مستمرة . لكل منهم مقره ، لا يتركه إلا للذهاب الى كنيسة الدير والاشتراك في الصلوات الفرضية . طعامه يقدمه اليه ، كل يوم مرتين ، عبر نافذة صغيرة ، احد الاخوة المساعدين . وليس له اتصالات الا بهذا الاخ الذي يمر عليه ، وباخوته الآباء الرهبان الذين يلتقيهم اضطراراً ، بدون ان يتبادلواهم الكلام ، بمناسبة اقامة الصلوات الفرضية . انه منقطع الى الصلاة والتأمل طوال حياته .

قال لي بعضهم : « ان الراهب الكرتوزي يرقد الساعة السابعة ، وينهض الساعة الحادية عشرة ليلاً ، فيجثو في غرفته امام المصلوب ، يتلو صلاة الليل وصلاة الصبح من فرض العذراء مريم . وقيل منتصف الليل ، يتوجه ماشياً بدون ضجيج بجذائه الصوفي الابيض ، ماراً بالرواق الكبير حيث تنساب اشباح اخرى الى الكنيسة ، فيمكث فيها حتى الساعة الثانية والنصف في مقعده الخشبي ، يرتل مع اخوته صلاة الليل القانونية ، ثم يعود الى قلايته حيث يتلو صلاة الساعة الاولى من الفرض الصغير ، ولا يأوي الى فراشه إلا عندما تدق الساعة الثالثة . وقيل الساعة السابعة ينهض مرة اخرى

من رقادته ، فيرتل بصوت خافت صلاة الساعة الاولى من  
الفرض القانوني ، والساعة الثالثة من فرض السيدة العذراء . ولا  
تأزف الساعة الثامنة حتى يكون قد انتهى تأمله الصباحي .  
فيسرع مرة ثانية الى الكنيسة ، عبر الرواق حيث تتلاعب  
اشعة الشمس ، ويحضر القداس الديري مع جمهور  
الرهبان والاخوة ، قبل ان يحتفل بقداسه الخاص على انفراد .  
ولا يعود الى مقره الا الساعة العاشرة . فيستريح قليلاً ، ثم  
ينصرف الى الممارسات والقراءات الروحية ، وينهيها بتلاوة  
الساعتين السادسة والتاسعة من فرض السيدة العذراء . وقبل  
الظهر بنصف ساعة ، يذهب الى حيث الخطب ليشقه ، او  
الى طاولة النجارة ليقوم ببعض الاشغال ، او الى بستانه  
فيعشبه . وعندما تدق ساعة الظهر ، يصعد الى مقره ، فيتلو  
صلاة التاسعة من الفرض القانوني . ثم ينزل ليأخذ عن النافذة  
الصغيرة غذاءه اليومي الوحيد ، وهو دائماً من الطعام القاطع ،  
بدون لحم ولا دهن . والساعة الثانية بعد الظهر ، بعد ان  
يتمّ تنظيف غرفته ، يفتح كتاباً يجد فيه موضوع التأمل  
الذي يدوم ساعة . والساعة الثالثة يعود الى محل شغله ،  
حطّاباً او نجاراً او بستانياً ، حتى الثالثة والنصف ، فيتلو  
صلاة المساء من الفرض الصغير . والساعة الرابعة الا الربع ،  
يتوجه الى الكنيسة للمرة الاخيرة حيث يرتل صلاة المساء  
القانونية بالاشتراك مع اخوته الرهبان . ثم يصعد الى

قلايته ولا يتركها حتى المساء . وهنا يدرس نحو ساعة .  
وعند الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة عشرة ، يجد على النافذة  
الصغيرة قطعة خبز وبعض خمر ممزوج ماءً ، وبهذا كل عشائه .  
واخيراً يفحص ضميره الساعة السادسة ، ويباشر تأملاً طويلاً  
حتى صلاة النوم التي يتلوها الرهبان جميعاً في وقت واحد ،  
كلّ في قعر قلايته . وينتهي يومه الساعة السابعة . فيرقد  
وينام .

« ذلك هو مسلك الراهب الكرتوزي ، يدوم طوال حياة  
كاملة . وغالباً ما تكون حياة الراهب الكرتوزي طويلة  
جداً قبل ان يرقد رقادته الاخير في مقبرة ترتفع فوقها صلبان  
خشبية صغيرة ، لا تجد على واحد منها اسم الراهب الذي  
يرقد في ظله » .

اما الراهبات المنضويات تحت قانون الرهبانيات الكبيرة  
القديمة ، فانهنّ ، في كل بلدان العالم ، يعشن بموجب قوانين  
يختلف بعضها عن البعض الآخر ، ولكنها متساوية في الشدة  
والقساوة ، وتفوق بها قوانين الرهبان . وينشأ أحياناً عن  
الرهبانيات الكبيرة ، التي تقرن العمل بالتأمل كالبندكتيين  
والدومنيكين ، فروع نسائية تتفرغ للصلاة والتأمل .  
ومن وقت الى آخر ، تصدر عن هذه الاديرة نشرات مغفلة  
تنقل اخبار رؤى روحانية ومزاوالات تصوفية عميقة  
نستطيع بها سبر غور الحياة الروحية الداخلية التي يتأجج

سعيها ضمن هذه الجدران الصامتة الخفية . واحيانا تكتشف الكنيسة ، بين الراهبات المحضات ، قديسة جديدة لا تبدأ رسالتها إلا زمناً طويلاً بعد دفنها في مقبرة ديرها .

#### ٤ - الراهبات العاملة .

الى جانب هذا الجيش الصامت من الراهبات والراهبات القانتين ، جيوش أخرى من الرهبان والراهبات الذين ينشدون العمل ، والعمل وسط العالم . فاليسوعيون ، منذ تأسيسهم ، ألغوا الاديرة ، والصلاة الفرضية المشتركة ، وعدلوا عن التقيد بثوب خاص يتميزون به من سائر الكهنة . اما في ايامنا فقد باقت حياة الاديرة نابية عن الحياة الحقيقية وشاقة جداً ، وتطفي عليها الشكليات . وبعض الكنوليكين ، اصحاب الدعوة ، يشعرون في داخلهم بوجوب اقتحام العالم . فكانت النتيجة نشوء جمعيات تختفي فيها نوعاً ما الحياة الرهبانية ، ويلبس اعضاؤها ثياباً لا يختلفون بها عن سائر الناس ، ولا يستنكفون من ركوب القطارات السائرة تحت الارض في المدن الكبيرة Métro ، والاتكاء الى حافة طاولة في حانة شأن جميع البشر . فبموجب الوصية الانجيلية ، ينبغي للمسيحي ان يكون « في » العالم ، وليس « من » العالم . على ان هؤلاء الرهبان والراهبات المتخفين يقومون بكل ورع وحرارة

بالممارسات التقوية عينها التي تفرضها قوانينهم على غرار من تقدموهم .

#### ٥ - ضرورة التجدد في الاديرة : مؤتمر الرهبان في رومية .

بينما كانت الكنيسة تدرس معضلات التبشير ، وغايتها من ذلك جعله مطابقاً لمقتضيات العصر الحاضر ، التأم في رومية ( وهذا حادث ذو شأن كبير في تاريخ الكنيسة ) مؤتمر عالمي حضره مندوبون يمثلون جميع الرهبان الذين دعاهم البابا الى « تطبيق حالتهم على مقتضيات الحياة في الازمنة الحاضرة » .

فله ما كان اطرف القاعة الفسيحة في قصر « دائرة الحتم الرسولي » Chancellerie ، حين عقد المؤتمر فيها جلسات سرية ، حُظر حضورها على غير الرهبان ، يتداولون شؤونهم الخاصة ! فقد أمّ رومية رهبان من اقصى البلدان ، ومن الاديرة المتحصنة تحصيناً شديداً ، بشبابهم المختلفة الازياء والالوان . فضمّ هذا المؤتمر ( والمؤتمر الآخر الذي اجتمعت فيه الراهبات ) ممثلي مليون ومايتي الف رجل وامرأة ، يستمدون قواهم كل دقيقة من حفظ القانون والنظام ، بكل انضباط وامانة ، ومن الممارسات التصوفية القاسية التي يمكننا اختصارها بالتدور الثلاثة القانونية : العفة ، والفقر ، والطاعة . انصرف الرهبان في البدء الى فحص ضمير دقيق وطويل .



وكانت لغة المؤتمر اللاتينية وأهم اللغات الأوروبية. قال البعض: « من الحُطْل الاحتفاظ بشيانا التقليدية وكيفية قص شعرنا في العصر الحاضر؟ - اننا مشتتون ومنقسمون الى حدٍ مفرط؛ - على الرؤساء ان يحترموا شخصية الرؤوسين اكثر مما يصنعون؛ - ان وكلاء الدخل والخرج في الاديرة يجهلون اصول الادارة ومبادئ مسك الحساب؛ - تبذل جهود قصية لكي تحافظ كل رهبانية على مكائنها؛ - لسنا نغير الجبهة الكاثوليكية بالاجمال ما تستحقه من الاهتمام والعناية؛ - تنقصنا روح الاقدام والابتكار، واننا نعمل كل شيء في حياتنا على سبيل العادة بصورة آلية » .

وما خلا هذه النظرات التي تبادلها الرهبان، وهذا النقد لحالتهم الداخلية، فان البابا نفسه دعاهم الى تجديد لازم لازب. وكان ما حداه الى ذلك شعوره بالخطر الذي يهدد الكنيسة من جهة اعدائها، ولا سيما اعضاء الكنيسة الدجالة الشيوعية. فوجه كلامه الى الرهبان، مذكراً اياهم، شأنه في ظروف اخرى عديدة، باننا نعيش في ازمة تنذر بخطر رهيب. فقد كتب البابا بيوس الثاني عشر في رسالته الجامعة الصادرة في ٢٣ ايلول ١٩٥٠: « بعد الحوادث المريعة التي اتسمت بها الحرب الاخيرة، لم يعد عدد الكهنة كافياً للحاجات الماسة المتزايدة على الدوام، سواء في البلدان الكاثوليكية او في بلاد الرسالات » .

لهذا امر البابا بعقد هذا المؤتمر ليعلم الرهبان انه سيدعوهم الى الانخراط في الفرق العاملة من جيش الكليوس الكاثوليكي. ولم يستثن البابا من هذه الدعوة حتى الرهبان القانتين انفسهم، فقال: « ينبغي لجميع الرهبان، حتى العائشين منهم في الخلوة والصمت، ان يجعلوا تبشير الكهنة ذا فاعلية بصلواتهم وتضحياتهم، واذا كان الامر مستطاعاً فبأعمالهم كذلك » .

وقد شرح كلمات البابا هذه الكردينال بياتزا Piazza، احد معاونيه الاقربين في محاولة تنظيم رهباني مجدّد، فخطب في المؤتمرين قائلاً: « بين لنا ان كلمة الجبر الاعظم هي ان: اخرجوا من الدير، يوجهها كشعار الى جميع الرهبان الذين لا تمنعهم قوانين ناطقة صريحاً بالتحصن، او تعهدات اخرى توازيها اهمية وتتنافى مع العمل الرسولي. فعندما يحترق البيت، على الجميع ان يسرعوا الى اخماد النار. وليس هذا الامر ضرورة الساعة؟ » وازاد الكردينال: « هل تنطبق حالة الرهبانيات، كما تظهر اليوم في حقيقة وجودها، على مقتضيات التبشير العصري والمساعدة الاجتماعية؟ هذا هو السؤال التمهيدي الموجه الى هذا المؤتمر. وجواباً عنه، ينبغي لكم مباشرة فحص ضمير جدي، واعادة النظر في الاسس والخطط والمناهج، وربما القيام ببعض اصلاحات جريئة » .

## ٦- آراء بعض الرهبان .

وثلبية لهذا النداء ، عرض بعض الآباء المرموقين آراءهم للكرسي الرسولي في شأن التجدد الرهباني . فقال الاب بطرس باسٲ Basset ، رئيس دير ليغوجيه Ligugé ، في فرنسا : « ان تقهقر النظام الراسمالي لما يدفع بكثير من الجمعيات الرهبانية الى تعديل تركيزها الاقتصادي ؛ - ان اضمحلال حماية السلطات الرسمية وشيوع التكتلات الاجتماعية يجعلان انزال الاديرة في خطر اكيد ؛ - لم تبق المظاهر الخارجية التقليدية في الحياة الرهبانية رمز الشهادة تجاه عالم مقسوم في الحاضر فتتين ، الواحدة تتطلب المزيد من الرخاء ، والاخرى تعاني مرّ الشقاء بدون ذنب اقترفته ... »

وحلل الاب اسفوبودا Svoboda ، من جهة ، عوامل العداء للاكليوس الذي ينتشر في حضن الكنيسة ، ومن جهة اخرى ، موقف الرهبان المعارضين بكل تصلب لقبول اي عمل اصلاحي في داخل الرهبانيات .

وادلى الاب كلي Kelly بان « الانسان المصري ميل الى نبذ ما كان رهبانياً ، الا ان يراه قريباً اليه فيقدره على صعيد انساني بحت . وانه لامر مرغوب فيه وضروري ان تأخذ الرهبانيات بتطبيق هذه النظرية ومجاعة هذه العقلية ، لانه لا يحق لها ان تعرض عملها

للعقم . ومن ضروب هذا التطبيق : لبس ثوب رهباني خاص او عدم لبسه ، والاشتراك ، على مدى اوسع ، في المنظمات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية .

اما الاب وليم اسكاموني Schamoni فاطلع المؤتمرين على الاختبارات التي تسنى له اجراؤها في معتقل داشو Dachau في المانيا حيث كان مبعداً مدة الحرب الاخيرة . فقد انصرف الى تحقيق عميق لحالة الكهنة الموجودين فيه ، وللانحرافات والضلالات العديدة التي استتبت من وجودها في دعوتهم ، وكان الرهبان الذين اتصل بهم فيه يعدّون بالآلاف ، وهم من جمعيات وابرشيات مختلفة . فاحسّ جلياً بان « كثيراً من الكهنة لم يشعروا ، وهم بعد في المدارس الاكليوسية وفي الاديرة ، بان معضلة الحياة الروحية الاساسية انما هي في تعري الانسان من ذاته تعرياً كلياً » .

## ٧- مؤتمر الراهبات .

ان مؤتمر رومية الذي جدّ بدون شفقة في كشف الحجاب من النقص الداخلي في الاكليوسيات والاديرة ، عقبته سلسلة اجتماعات اقليمية او وطنية ، بناءً على دعوة صريحة من مجمع الرهبانيات . فعقدت ، في السنوات الاخيرة ، مؤتمرات في الولايات المتحدة ، وايطاليا ، وبوليفيا ، والبرازيل ، والارجنتين ، وفرنسا ، وكندا ، وافريقيا

الجنوبية . وكانت جهودها الاولى مبذولة في سبيل تجديد الجمعيات الرهبانية النسائية .

ان عدداً مدهشاً من اديرة الراهبات القانتات يخيم عليه الشقاء وقد يشكو الجماعة ؛ وفي كثير منها ليس الخبز اليومي مضبوناً الا نادراً ؛ والتدفئة بذخ مجهول ، والابنية فريسة العوامل الجوية . وليس من تفسير لهذا الانهيار المادي في معظمها الا ما طرأ من تبدل في الاحوال الاقتصادية ، وفي عدول المؤمنين عن انشاء اوقاف جديدة ، وفي ما جرته الحرب من تدمير الابنية وتبديل عادات المحسنين والمحسنات وامكاناتهم . في هذه الاديرة ، كانت الراهبات يعشن في الغالب من ثمره اشغال الاخوات المساعدات اللواتي لسن ملازمات بتلاوة الفروض الطويلة وممارسة التأملات المتواصلة . ولكن هذا الشغل المهني لم يعد يدرّ كسباً ذا شأن كما في السابق ، فضلاً عن ان الراهبات ، في اديرة عديدة ، بسبب نقص الغذاء « المزمن » ، لم يعد في وسعهن القيام بمجهود مضمّن تقتضيه الحياة الحاضرة . وبالرغم من ذلك لا يزال عدد هذه الاديرة المحصنة على ازدياد مطرد في بلدان عديدة .

ومن الراهن ان مجمع الرهبانيات لا يشجع بعد اليوم على انشاء اديرة جديدة ، ولكنه يعنى ، بامرٍ من البابا ، بان تندمج في اتحاد رهباني جمعيات قوانينها متماثلة ، لان

هذا الاندماج يساعدها على تحسين حالتها المادية ، وقطبها قوانينها على مقتضيات الزمن الحاضر .

وقد اكبّ مؤتمر الراهبات ، تحت اشراف مجمع الرهبانيات ، على درس عميق للمعضلات التي تعانيها اديرة النساء في ايامنا . فالراهبات والكهنه الموجون استماع اعترافهنّ قاموا بتحقيق دقيق في سيكولوجية الفتاة الكاثوليكية التي تشعر « بالدعوة » الى الحياة الرهبانية . وشدّد الخطباء في بسط الاخطار التي تهدد المبتدئات ، ونقص تدريبهنّ الروحي ، والجهل المستولي على غالب الاديرة . حتى ان المؤتمر اقترح ان يُنشأ في رومية « معهد للرئيسات » ترسل اليه الرهبانيات ممن ترشحن لادارة الاديرة .

وقد تنازل الخبر الاعظم شخصياً فمحض المؤتمرات نصائح ثمينة ، غير مستنكفٍ من ايراد بعض تفاصيل عائدة الى ثياهنّ ، قال : « اما الثوب الرهباني فيجب ان يختار بنوع ان يعبر عن البساطة الداخلية وعن الحشمة الرهبانية . فيكون له عندئذ احسن وقع لدى الجميع ، بدون استثناء الشبيبة العصرية ... » واما القوانين ، اذا ما فُسّرت بحسب الحرف والروح معاً ، فتسهل للراهبة القيام بمهمة معلمة ومهذبة فضلى في ايامنا . لننظر في ذلك على الصعيد الآلي البحت : في كثير من البلدان ، مثلاً ، تستخدم الراهبات الدراجة عند الضرورة بنوع جدّ لائق . اما في



البدء فكان هذا الامر مستهجنا بالرغم من انه غير مضاد للقوانين . ومن المستطاع الآن تطبيق بعض امور ثانوية على مقتضيات العصر مثل : نظام توزيع الشغل اليومي ، وبعض تفسيرات للقوانين ، وبعض عادات وليدة ظروف زالت ، وشد ما كانت تعيق رسالة التعليم والتهديب .

ولم يهل المؤتمر معالجة كل معضلة تتعلق بالفتاة الحديثة الترهّب من مثل : قيمة العقدة والدعوة الرهبانية ؛ - الاتزان النفساني والادبي في الراهبة الفتية التي لا تصير عالمة علماً محققاً بما ينطوي عليه نذرها العقدة الدائمة الا بعد فترة من الزمن ؛ - مقاومة الوسواس ؛ - الصداقات الخاصة ؛ - اعطاء ملء الحرية للاطلاع على تطور العالم العصري ( احتج احد المؤتمرين الاب ليافن Liévain على تحريم بعض الافلام السينائية ، او قطع اجزاء منها او اجراء مراقبة عليها ) ؛ - تعديل الممارسات التقوية ( هل من المناسب الاحتفاظ ببعض انواع تقليدية من الزهد كاذلال الراهبات ) ؛ - التغذية ؛ - عدد ساعات الرقاد ؛ - الفحص الطبي ؛ - التدفئة ؛ - الاغتسال وما اليه ( « يجب ان تعطى الراهبات ملء الحرية في الاعتناء بنظافتهن الشخصية في الدير ، بقدر ما كنّ يصنعنه في العالم » . )

ليس من يشك في انتشار هذه الاصلاحات شيئاً فشيئاً في الاديرة ، بالرغم من حذر القدماء رهباناً كانوا او راهبات .

لكننا نتساءل : الى اي حدّ يستطيع مجمع الرهبانيات تحقيق ما اوعز به البابا في شأن تطبيق حالة الراهبات القانتات على مقتضيات الحياة العصرية . ذلك ان النشء الطالع يتجاذبه عاملان : من جهة روح الاندفاع والثوب ، ومن جهة اخرى نزعة حمية الى تجديد الحياة الروحية . فالممارسات الصوفية ، الصحيحة منها والمزعومة ، لم تكن قط تستهوي الجميع على ما هي اليوم . فالى جانب العديد من الاكليوسيين النازعين الى الخروج من الاديرة الى العالم لاجل الجهاد والصراع ، تتجاوب في حضان الكنيسة دعوة الى اعتناق حياة التصوف في انواعها الاكثر قساوة .

اننا نشهد اليوم في داخل الكنيسة اعادة نظر في القيم ، فاشتراك العلمانيين في صميم حياة الكنيسة يسير جنباً الى جنب وتجدد التصوف الكاثوليكي .

في القطار : من الاونسكو الى المؤتمرات الاخرستية الدولية ، ومن « السلام الروماني » Pax Romana ، وهي منظمة دولية للجامعيين الكاثوليكين ، الى « منظمة التغذية والزراعة » في الامم المتحدة . وليس ثمة مؤسسة دولية كبيرة ، كاثوليكية او غير كاثوليكية ، الا يحضر اجتماعاتها ، فهو يعتبر انه يجب احصاء القوى وجمعها ثم ضمها الى الحياة الدولية ودمجها فيها قبل الاقدام على تنظيم ينطلق من مؤسسة مركزية . وليس في نية وزارة الدولة توحيد حركات العمل الكاثوليكي توحيداً مفرطاً ، لان فروعها متنوعة للغاية ، واحوالها جد مختلفة ، وكذلك الظروف التي تعمل فيها .

وخلال السنة المقدسة الاخيرة ( ١٩٥٠ ) نُظِمَ لأول مرة في تاريخ الكنيسة « مؤتمر عالمي لرسالة العلمانيين » ، وكان الفضل في تنظيمه للسيد فيرونيزي ومعاونيه . التأم هذا المؤتمر في رومية ، واستعرض منظمات العمل الكاثوليكي التي تعد بالآلاف ، على اختلاف انواعها ، ووضع بياناً ، لأول مرة ، بالمنظمات الدولية التي تمتد من « المجلس الدولي للرسالة المرمية » الى الجمعية « الكاثوليكية الدولية لحماية الفتاة » ، ومن « المكتب الكاثوليكي الدولي للأطفال » الى « المكتب الدولي للشبيبة الكاثوليكية » ، ومن المكتب الدولي للسينما الى « المركز الدولي لدروس التربية الدينية » ، ومن « الاتحاد الدولي للجميات ارباب العمل الكاثوليكين » الى « الاتحاد الدولي للنقابات

## الفصل الرابع

### القوى الجديدة : العمل الكاثوليكي

#### ١ - المنظمات الكاثوليكية الدولية .

نظم السيد فيتورينو فيرونيزي Veronese مؤتمراً للعمل الكاثوليكي في افريقيا المتوسطة ، حضرته وفود بلدان عديدة ؛ وكان احد المجاهدين البارزين فيه رجل جاء من بلاد المومو

• Mau-Mau

والسيد فيرونيزي هذا محام جد لطيف ، يشغل بضع غرف من القصر الفسح القائم بالقرب من كنيسة السيدة عبر نهر التير ، والتابع لحاضرة الفاتيكان ، هو قصر سان كاليست Caliste حيث جعل مكاتبه . وقد اطلق على دائرته اسم « اللجنة الدائمة للمؤتمرات » ، ووضعها تحت اشراف وزارة الدولة مباشرة . فكانت هذه اللجنة النواة الاولى لمنظمة العمل الكاثوليكي الدولي .

ولا يطمح هذا الرجل المعتدل الفطن الا الى ان يزاوِل ، على اوسع مدى ، سياسة الوجود والحضور ، فلا شأن لديه للحدود بين البلدان ، ويقضي حياته اما في الطائرة او

الكثوليكية»، ومن «الجمعية الكاثوليكية الدولية للاذاعة والتلفزة» الى «الشبيبة العاملة الكاثوليكية الدولية»، ومن «الاتحاد العالمي للجمعيات الكاثوليكية للفلسفة» الى «الاتحاد الاميركي المشترك للعمل الكاثوليكي». وقد تمثل في هذا المؤتمر «المركز (الكاثوليكي) الدولي الدائم للاخبار» في جنيف، المعترف به لدى الامم المتحدة، و«مكتب المؤتمر الوطني الكاثوليكي للترفيه» (العمل الكاثوليكي الاميركي) لاجل شؤون الامم المتحدة، الخ...

وقبل هذا المؤتمر العالمي لرسالة العلمانيين، كان لهذه الجمعيات الكاثوليكية الدولية العديدة وثائق ضئيلة تربط الواحدة منها بالآخرى بواسطة «مؤتمر الرؤساء» Presidents الذي صبح سنة ١٩٥٢ «مؤتمر المنظمات الدولية الكاثوليكية». وقد اضاف اليه القاتيكان «اللجنة الدائمة للمؤتمرات» التي تُعنى باعداد المؤتمرات الكبيرة للعلمانيين من عالمية واقليلية، ويجمع الوثائق عن اعمال المنظمات الكاثوليكية، وبانشاء مكتب دروس لبحث هذه الوثائق. وفي الجملة، ان مهمة السيد فيرونيزي الرئيسة هي ان يضمن الاتصال بين هذه المنظمات العاملة هنا وهناك وبين وزارة الدولة البابوية.

وقد بلغ العمل الكاثوليكي الدولي شأواً كبيراً بعد الحرب الاخيرة بسبب المدى الذي وصلت اليه المؤسسات الدولية التي ترغب الكنيسة في التعاون معها تعاوناً فعلياً. فقد جاء

في جملة مقررات المؤتمر العالمي للعلمانيين، الذي تمثل فيه ٧٤ بلداً ٣٨ منظمة كاثوليكية دولية، ما يلي: «على الكاثوليكين ان يشتركوا في حياة المنظمات والمنشآت القائمة، لكي يحملوا اليها بحضورهم التحير المسيحي».

ان كلاً من المنظمات الكاثوليكية مستقلة عن الاخرى بادارتها ومالياتها. ولكن التنظيم الواسع، الذي اخذ السيد فيرونيزي على عاتقه انجازه، يقتضي مبالغ باهظة لم يكن في استطاعة القاتيكان ان يؤديها. لهذا انشئت منظمة جديدة، دعيت «وقفية بيوس الثاني عشر»، لتغلب على هذه الصعوبة. فجعل الكرسي الرسولي تحت تصرفها مبلغاً من المال، على ان يجمع الكاثوليكون في العالم ما به الكفاية. وانشىء مجلس ادارة لهذه الوقفية مؤلف من خمسة اعضاء تسميهم وزارة الدولة.

## ٢ - العمل الكاثوليكي والسلطة الكنسية.

رأينا فيما سلف كيف 'عني' الاحبار الاعظمون بان يقبضوا على زمام السلطات الكنسية الكاثوليكية. ولكن معضلة اخرى كانت تعترضهم هي قيادة الحركات العلمانية.

ان نظام السلطات الكاثوليكية، على تنوع فروعها وتعدد درجاته، لم يعد كافياً للاضطلاع بكل المهام التي تواجهها الكنيسة في الازمنة الحاضرة. وقد نادى الباباوات المتأخرون،



مراراً كثيرة ، بوجوب الاستعانة بالعلمانيين .

على ان الكنيسة لا تقدم على تحقيق هذا التعاون الا بدراية بالغة ، لان المقصود هو دمج عمل العلمانيين دمجاً صمياً في الكنيسة . وقديماً حاول البروتستنتيون ذلك ، فتوصلوا الى تقويض هيكل السلطة الكنسية والى تسلط الحاكم المدني على الكنيسة . وفي ايماننا ، قامت قضية الكهنة العمال ( ولا شك في انها مستوحاة نوعاً ما من عمل الكاثوليكين الغير في المعامل ) ، فكادت تفضي الى علمنة الكنيسة . لهذا صرف الباباوات همهم منذ البدء للحوول دون تراخي السلطة الكنسية في اشرافها على تنظيم العمل الكاثوليكي ، تحت سلطة الاساقفة مباشرة في ابرشياتهم ، وتحت سلطة البابا في الكنيسة بأسرها ؛ وحتموا بان يعين مساعد اكليريكي الى جانب الرئيس او المدير في كل فرع من العمل الكاثوليكي ، لان هذا العمل ، كما اعلنه البابا بيوس الثاني عشر في المؤتمر العالمي للعلمانيين : « اداة بيد السلطة ، كانه امتداد لساعدها ... »

وتختلف حدود العمل الكاثوليكي باختلاف البلدان القائم فيها . الا ان هدفه هو الرسالة والتبشير . ولا يني بيوس الثاني عشر في التذكير بما تنطوي عليه الازمنة الحاضرة من اخطار تهدد الكنيسة ، وبضرورة تعبئة القوى الكاثوليكية جمعاء لدورها . ولهذا يدعى العلمانيون ، وخاصة في بلدان ما وراء

الستار الحديدي ، الى القيام مقام الكهنة الغائبين في تعليم الاحداث مبادئ الدين وفي المحافظة على « التفكير الكاثوليكي الصائب » ، فضلاً عن مواصلة الدفاع في كل ميادين الحياة السياسية والاجتماعية .

ومما قاله البابا بيوس الثاني عشر في مؤتمر العلمانيين : « ان حياة الانسان الشخصية والاجتماعية تتصل حتماً ودوماً بشريعة المسيح وروحه . فينجم عن ذلك ، بطبيعة الحال ، تداخل الرسالة الدينية والعمل السياسي . فالسياسة ، بمعنى الكلمة السامي ، ليست سوى التعاون لاجل الخير العام ، ولكن هذا الخير يمتد الى مدى واسع . وبالنتيجة فالشرائع ذات الشأن الخطير ، كالتي تعود الى الزواج والعائلة والولد والمدرسة ، انما تفحص وتبت وتقرر على الصعيد السياسي . اوليست هذه القضايا مما يهم الكنيسة في الدرجة الاولى ؟ في خطبة سابقة ( ٣ ايار ١٩٥١ ) رسمنا الحدود بين العمل الكاثوليكي والعمل السياسي ، فلا ينبغي لاعضاء العمل الكاثوليكي ان يخوضوا غمار السياسة الحزبية . ولكن كما انه لعمل يستوجب الثناء ان يبقى الانسان فوق المباحكات العرضية الزائلة التي تسم المنازعات ، كذلك انه لعمل مستوًى ان نخلي الميدان ونترك المجال حراً ، في ادارة شؤون الدولة ، لاناس غير ذوي استحقاق ولا كفاية . على انه من الصعب ، في هذا

الموضوع ، تعيين الحسد الذي يحتم على الرسول بان يقف عنده ، او فرض 'سنة' وحيدة للجميع . فالاحوال والعقليات ليست هي اياها في كل مكان .

### ٣ - دور العلمانيين .

بلغ العمل الكاثوليكي الذروة في عهد البابا بيوس الحادي عشر . اما في ايام خليفته بيوس الثاني عشر ، فقد اتسم بحدث هام يمت اليه بصلة ، ألا وهو اشتراك العلمانيين في حياة الكنيسة الداخلية اكثر من ذي قبل . ان السلطات الكنسية ( البابا والاساقفة وسائر الاكليروس ) وجدت في العمل الكاثوليكي اداة «تدّ ساعدها» . قد كان للمؤمنين دور المساعدين . إلا ان تعلقهم بالسلطة على هذا الشكل الذي يجعلهم مرؤوسين ، تحت امرتها ، لم يخل من ان يولد فيهم بعض قلق واضطراب . فقد أحسّوا ، خاصة في أبان الحرب الاخيرة ، بمشقات وُجد الكهنة والعلمانيون فيها جنباً الى جنب ، معرضين لخطر واحدة ، ومتربسين بتبعات متاثلة .

وعندئذٍ وتدريجياً ، شعر الكاثوليكيون ، الذين طبقوا حياتهم على ايمانهم في عالم فككت البغضاء اوصاله تفككاً عميقاً ، بالدور الذي يجب عليهم القيام به في حياة الكنيسة العامة . شعروا بذلك لان كثيرين منهم كانوا مدعويين

الى الاعتراف بايمانهم حتى سفك الدم ، في بلدان كثيرة كانت الكنيسة مضطهدة فيها ( ولا تزال حتى اليوم ) ، ولان اقل حركة يأتونها كانت لها قيمة الشهادة ، ولأن العمل الذي كان يُطلب منهم ان يقوموا به يفوق جداً تصميم عمل اجتماعي وسياسي ، ويشمل الانسان برّومه . هؤلاء العلمانيون ، والحق يقال ، لم يبقوا عناصر سلبية بحتة ، بل اخذوا يشتركون فعلياً في بناء الكنيسة ، اذ بدا لهم انه يجب تجديد كل شيء ، كما في عهد المسيحية الاولى . ففطنوا الى انهم بدون منازع جزء من جسم الكنيسة السري الذي يحدث عنه اللاهوتيون بأسهاب ، وان هذه الكنيسة مؤلفة من عنصرين متميزين الواحد من الآخر ، هما الاكليروس والمؤمنون ، وان الجماعة المسيحية لا تكون كاملة الا اذا كان العلمانيون ، بقدر الاكليروس ، جزءاً منها . وفي هذه الاثناء ، ظهر في فرنسا كتاب ضخم ، وكان ظهوره في وقته ، وضعه الاب دومنكي ايف كنغار Congar ، وعنوانه «معالم لاهوت العلمانيين» . فما كاد يصدر حتى أثار حركات عميقة في الاوساط الكاثوليكية . وهاكم ملخص القضايا المبسطة فيه .

يتذكر العالم الكاثوليكي شيئاً فشيئاً ان العلمانيين «درجة» ، وانه من الصواب اضافتها الى «درجة» الاكليروس . فالدعوة ، من حيث انها نداء من الله ، لا تعني

بالحصر الدعوة الكهنوتية او الرهبانية . فيمكن تلبية الدعوة مع البقاء في العالم . فالعلمانيون يشعرون بانهم « من العالم ومن الكنيسة » ، بينا الاكليروسيون والرهبان ليسوا الا من الكنيسة . فالعهد الذي يرتبط به العلمانيون يتم رسالة السلطة الكنسية . فبدونهم لا وجود للكنيسة ، او تكون الكنيسة في حالة نقصان .

ولدينا دلائل عديدة على هذه الروح الجديدة ، او بالحري على هذا العود الى القديم ، تبشر بهذا التطور العلماني من زمن طويل . ومن هذه الدلائل ، على سبيل المثل ، الحركة الطقسية : فمن زمن بعيد شرعت تحدث ردة فعل قوية في الكنيسة ضد ابتعاد المؤمنين عن الحفلات الطقسية .

في الكنيسة اللاتينية ، نتيجةً لتطور قديم العهد ، يدور الكاهن ظهره الى الشعب في الحفلات الطقسية ، ويتلو كثيراً من الصلوات بصوت خافت ، وبلغة لم يعد يفهمها الحاضرون ، ويتم حركاته في اقامة ذبيحة القديس اتاماً لا يكاد يُرى ولا يفهم احد مغزاه . اما الفكرة السائدة الآن فهي ان هذه الانحرافات يجب ان تزول . وقد بدأ بعض الكنائس ( التقدمية منها على الاقل ) يصوّب المذابيح من جديد نحو الشعب ، واخذ الحضور يتلون معاً وجهرّاً الجوابات الموضوعة لبعض كلمات الكاهن . وقد تبدّل « اسلوب » الاحتفال عينه بالطقوس . فالحركات اصبحت منبسطة ومتوتّنة ، والكلمات

متميّزة ومفهومة . وغداً الراديو والتلفزة يُوزان للناس اجمعين دقائق الطقوس ، فيسهلان عليهم ادراكه ، فيرغبون في الاشتراك فيه . ومن ذلك انهم باتوا يفتحون المدلول الرمزي لهذه القاعدة التي سنّتها الكنيسة ، وبها يمنع الكهنة من اقامة ذبيحة القديس اذا لم يكن من يحضره من الشعب ، فالقديس موضوع للمؤمنين .

ولهذا التحسّس الجديد بدور العلمانيين مرحلة اخرى ، علامتها ادراك اعمق واوسع للزواج . فالزواج يبدو كأنه « خلّية كنسية » اولية . وهو عند المسيحيين سرّ . والذين يتسمون هذا السر انما هم المتزوجون انفسهم ، وما الكاهن سوى شاهد رسمي منتدب من قبل الكنيسة . فالزوجات اذاً يشتركان ، بعقد الزواج ، في احدى الخدمات السرية التي تقوم بها الكنيسة . فحين يعبران عن رضاها المتبادل بالزواج فانهما ينشئان عائلة جديدة ، جماعة جديدة ، موسومة بشعار المسيح . واللاهوتيون يعتبرون اقترانها بالزواج كرمز لاتحاد الكنيسة بالمسيح رأسها . فهذا السر اذاً علمانيٌّ بجوهره ، يظهر به شرف الدور الذي يعود الى المؤمنين القيام به في الكنيسة .

#### ٤ - العمل الكاثوليكي واخطاره .

ان الكنيسة توجه نداء ملحاً الى العلمانيين ، وكذلك



الى الرهبان . وانما يدعوها الى هذه التعبئة العامة ما تقتضيه المهام الخطيرة الملقاة على عاتقها ، وما تنطوي عليه الحقبة الحاضرة من اخطار . فالبابا ، في العديد من خطبه ، يعلن ان عدد الكهنة اصبح لا يفي بالمراد . ولا سبيل الى تدارك المضار الا بنزول الرهبان والعلمانيين ، كل حسب درجته ومقدرته ، الى ميدان العمل في مجالاته كافة ، والى الدفاع على جبهات القتال كلها .

وقد كان لهذا الكلام الخبري الكريم صدى تجاوب في الجمعية العمومية التي عقدها اساقفة فرنسا سنة ١٩٥٤ ، فادلوا ببيان يلامس العقيدة جاء فيه : « يجب الاتصال بغير المؤمنين ، في الاوساط المنقطعة عن الكنيسة ، بواسطة حضور علمانيين مسيحيين مقيمين في العالم وبواسطة عملهم ، فيحملون اليهم رسالة المسيح ، ويؤدون ما بينهم شهادة المحبة المسيحية ، ويقيمون اكثر فأكثر برسالة التبشير بالانجيل التي تكلمها الكنيسة اليهم » .

بهذه الطريقة تستعيد الكنيسة طابعها الجماعي ، وتزيد الجسم السري ، الذي تمثله في عيون المؤمنين ، تجربة جديدة كلها حياة . ولكن هذا التطور الذي يشعر به الكثير من الكهنة والعلمانيين ، على السواء ، لا يخلو احياناً من اخطار تهدد الكنيسة ، بدليل ما اسلفنا قوله من ان محاولة الكهنة العمال ، مثلاً ، كادت تنحرف الى علمنة

الكهنوت ، او هي انحرفت فعلاً .

فكما انهم ما عادوا فلبسوا ثوبهم الاكليروسي لكي يتزوجوا على افضل وجه بالبيئة العاملين فيها ، كذلك توصلوا احياناً الى التفكير في ان الاحتفال بالقداس وتلاوة صلوات الفرض قد يصبحان عناصر تحول بينهم وبين العمال ، لان العامل لا يحتفل بقداس .

ومن الواضح ان هذا الامر لم يكن في نظرهم من الامور المستحيلة بطبعها ، ولكنهم قالوا به كمبدراً لا تستطيع رومية الا ردله . فطابع الكاهن ووسمه الخاص به انما هما من الامور المكرسة التي يجب ألا تمس . فالناحية الكهنوتية تفوق سائر النواحي في حياة الكاهن ، فلا يقدر الكاهن ان يعدل ، بدون ذنب ، عما هو جوهر رسالته ، اي الاحتفال بذبيحة القداس .

لهذا ترى للمحققين الرومانيين ان الكهنة العمال ، بتنازلهم عن بعض نقاط جوهرية في حياتهم الخارجية ، قد تعرضوا لخطر الانحراف الى اهمال عناصر جذرية من العقيدة التي يقصدون التبشير بها ، لان رغبتهم في توحيد تام يضمنهم الى العمال كانت تدفعهم الى الابتعاد عن رسالتهم التبشيرية البحت للاتحاق بالعمال على الصعيد الاجتماعي والنقابي والسياسي . فاهيك بان في ترك الكهنة العمال للاولية التي يفرضها طابعهم ووسمهم الكهنوتي ،

وفي افعالهم ما خدمتهم الاسرار المقدسة من ضرورة ماسة ،  
خطراً يهدد بعضهم بالانزلاق الى فرع من فروع البروتستنتية  
بدون ان يشعروا .

على ان هذا الخطر لم يقع الا في حالات استثنائية .  
فالسلطة الكاثوليكية جد حريصة على التمسك بالامتيازات  
التي وصلت اليها « بتقليد رسولي » ، وجمهور المؤمنين يغار  
على هذه الامتيازات بكل حمية وتشدد . فانطلاق  
العلمانيين في الاشتراك باعمال الكنيسة لن « يعلنها » ، بل  
ينفخ فيها روحاً جديدة ويوليها قوى جديدة .

ان هذه الفكرة الجماعية او المسكونية *œcuménique*  
قريبة جداً من الفكرة التي لا تزال حية بدون انقطاع  
لدى المؤمنين في الكنائس الشرقية المنفصلة ، وما هو مطابق  
الى الغاية للتقليد المسيحي لدى كثير من الكنائس  
البروتستنتية .

وعليه فقد يكون في تطور العلمانيين الكاثوليكين في  
الوقت الحاضر ما يخلق بعون الله جواً مؤاتياً للمحاولات  
العاملة على التقرب بين الكنائس المسيحية .

### القسم الخامس

وفاة البابا وانتخاب خلفه

## الفصل الاول

### وفاة البابا

#### ١ - الساعات الاخيرة .

هوذا مرة اخرى المعبد السيستي بفخامته وزخرفته ،  
تتألق روائع ميكال انج في صدره وسقفه وعلى جدرانها .  
لا يد للكنيسة من العود اليه في ايامها الحافلة بالسرور  
او بالكدر . فحين يموت البابا ، يلتئم فيه مجمع الكرادلة  
الانتخابي Conclave ليقوموا بوظيفتهم السامية التي يحرزون  
بها مرقتهم كأمراء العائلة المالكة في نظام التشريعات  
البشرية . فهم جميعاً ينتخبون رأس الكنيسة نائب المسيح ؛  
وكل منهم قد يكون البابا المنتخب .

الحبر الاعظم يلفظ النفس الاخير ، محاطاً بما تقرضه الطقوس  
من الالهة . ولا عجب ، ففي حياة الباباوات ، كثيراً ما تتوافق  
الاضداد . ومنها ما نراه ، في هذه المناسبة ، من الضعة البالغة  
والرفعة الرائعة . فان البابا ، بسبب المرض وانحطاط القوى  
الناجم عن اعمال مرهقة . تفوق الطبيعة ، وعن جهود مضية  
تشتد كل ساعة ، لا يستطيع ان يغادر غرفته ، ولا ان



ينهض من سريره . وليس في غرفته شيء من ففخخة الردهات الرسمية ، فهي قلأية راهب في النزع تملأها آثار المرض الزرية .

في هذه الغرفة ، يستمع اخضاء البابا القليلون ، وهم جاثون ، الى الطلبات التي يرفعها الى الله ، بصوت قوي ، كاهنٌ معبد قداسه الذي يعود اليه تلاوة صلوات المحتضرين :

« يا يسوع الرؤوف ، يا محب النفوس ، نسألك ، بنزع قلبك الاقدس ، وباوجاع والدتك البريئة من الدنس ، ان تغسل بدمك جميع خطاة العالم بأسره ، الذين هم في ساعة النزع وسيعبرون اليوم الى الحياة الابدية . يا قلب يسوع المحتضر ، ارحم المشرفين على الموت » .

وهذا الكاهن عينه يولي البابا سر المسحة الاخيرة . ولا يحضر هذه الحفلة سوى ذوي قرى البابا ، واعضاء غرفته الاخضاء ، والاطباء ، ومعاونيه الادنين ، وغالباً بعض كرادلة ورؤساء رهبانيات .

فاذا ما اسلم البابا الروح ، يتقدم الطبيب الخاص ليتحقق الوفاة ، وعندئذ يجثو الاحياء الموجودون في الغرفة ، ويتلون اولى صلوات الموتى . ثم يلتزمون بين الجبر الاعظم الارفع منهم رتبة فالارفع .

ولا يلبث النعي ان يتسلل الى القصور الرسولية ، فيثير فيها فجأة القلق والاضطراب . ويُفتح باب الغرفة على

مصراعيه ، ويسجى احدُ الاحبار وجه البابا الراحل بنسيج ابيض . ويحضر الكهنة القانونيون الذين يستمعون الى اعتراف المؤمنين في الكنائس الباسيلية الرومانية ، لانهم ، في طليعة الذين يحيون الليل بالصلاة الى جانب الجثمان ، بقوة انعام عريق في القدم .

وفي معبد البابا الخاص به ، او امام مذبح نقال ينصب في غرفته نفسها ، يحتفل احد الاحبار بالقداس الاول لراحة نفس رئيس الكنيسة . وتتوالى القداسات ، على مدى الساعات ، يقيمها بصوت خافت كبار اصحاب المقامات العليا في الكنيسة ، وكذلك اخضاء البابا .

وفي الغرفة ، يياشر غسل الجثمان ، والابواب موصدة . ثم يُفاض عليه غبار من حرير ابيض بذييله الطويل ؛ وعلى كتفيه رداءٌ نصفى من مخملٍ قرمزي مخشى بفروة بيضاء ؛ وعلى رأسه قلنسوة مخملية من اللون عينه ؛ ثم يلف النعش بكامله بنسيجٍ من حرير احمر يستر الجثمان حتى الذقن ، وتبقى الذراعان فوقه ، وفي الاصبع الخاتم رمز السلطة .

وتشعل حول النعش اربع شمعات . ويدخل الغرفة اثنان من حرس الاشراف بسلاحها المقعقع ، ويقفان عن جانبيه وقد اصلتا سيفيهما . وبين هذين العملاقين ، تعسو رأسها الحوذة المذهبة ، يبدو البابا الراحل كشبحٍ واهٍ وضع يثيو

فينا الاشفاق .

ويأتي دور الكردينال ورئيس الغرفة البابوية Camerlingue ، وهو اعلى سلطة في الكنيسة لمدة بضعة ايام ؛ وفي حال شعور هذه الوظيفة ، يقوم بها عميد مجمع الكرادلة ؛ فيتوجه الى غرفة البابا ، تواكبه فصيلة من الحرس السويسري حاملي الرماح ، دلالة على الرتبة الجديدة التي ارتقاها . ويباشر رسمياً تحقق هوية جثمان الحبر الاعظم بمعونة نائبه وممثلي الغرفة الرسولية .

وكانت الغرفة الرسولية عظيمة الشأن في الماضي ، ولكنها تكاد تفقد اهميتها اليوم ؛ غير انها تسترجعها لمدة ايام قلائل في ابان وفاة البابا ، اذ يعود اليها السهر على ممتلكات الكرسي الرسولي وحقوقه الزمنية .

يجتو الكردينال ورئيس الغرفة - او عميد المجمع - امام الجثمان الهامد ، ويتلو المزمور : « من الاعماق » ، ثم يدنو من النعش ، ويرفع الستر الملقى على وجه البابا . ويتحقق الوفاة . وسابقاً كان يأخذ مطرقة من عاج يطرق بها ثلاثاً جبهة الحبر الاعظم وهو يناديه باسمه .

وبعد اثبات الوفاة على هذه الصورة الرسمية ، يُنتزع من اصبع البابا خاتم الصياد . والى الآن كان البابا ، ولو ميتاً ، يعتبر متمرساً بسلطته ، وبعد ايام يُكسر هذا الخاتم في احدي « الجمعيات الكردينالية العامة » . ويجرّر احد كتبة

الغرفة الرسولية محضراً بهذه الاعمال كلها ، وهي ذات اهمية في قضية خلافة البابا الشرعية . وفي هذه الاثناء ، يضع البلاط الرسولي وباسيلية مار بطرس وجماهير المؤمنين بطلب جثمان الحبر الراحل .

## ٢ - الى المعبد السيستي .

ويوم وفاة البابا بالذات ، ينظم موكب حافل لنقل جثمانه الى المعبد السيستي . فيتم تأليفه عند العشيّة ، ويتقدمه احد افراد الحرس السويسري بدوعه اللباعة ، ووراءه الخدام بلباسهم الحريري الموشى ، فالضباط ، فالحجاب السريون ، فكبار رجال البلاط ، فامراء ضباط حرس الاشراف ببناتهم الكاملة ، واخيراً البابا على نعش يحمله ثمانية من حرس الاشراف . ومن كلا الجانبين احبار يحملون شموعاً كبسيرة صفراء . ثم الكرادلة بارديتهم البنفسجية ، فاعضاء السلك الدبلوماسي بكامله . وفي مؤخرة الموكب يبرز العديد من ابناء الرهبانيات الكبيرة باجسامهم النحيلة وثيابهم الحشنة القاتمة ، فيبدون كاشباح انسلخت من التصاوير التي يغرقها الليل شيئاً فشيئاً في ظلاله الخالكة .

ويتجه الموكب في الصمت الى المعبد السيستي الذي تضيئه شموع عديدة . وفي صدره ، حيث رسم ميكال انج مشهد

الدينونة الاخيرة ، يظهر السيد المسيح نقطة وضاءة وسط الابرار والهالكين . وتقام امام المذبح منصة مجللة بالحرير الاحمر فيوضع الجثمان فوقها مطلقاً على الجماهير التي تتسابق فتدخل المعبد ، وتبدأ تمزج صلوات تتمتها بالمزامير التي تنشد بالتناوب طوال العشية .

ويأتي الليل ، فيخرج المؤمنون من المعبد ، وتوصد ابوابه . ويأخذ الكهنة قانونيو مار بطرس باعداد الجثمان لدخول الجبر الاعظم ، للمرة الاخيرة ، الى كنيسته الباميلية حيث تؤدي له مراسم التكريم الاخيرة . وهذه المرة تفرغ على البابا حلتة الجبرية الكاملة ويدفن بها .

توضع على الغنبار قميص بيضاء طويلة تصل حتى القدمين . وعلى القميص يركز القانونيون قميصاً حمراء خاصة بالشمامسة ، وفوقها بدلة حمراء مذهبة . وتغطى الكتفان برداء فضفاض من الحرير الابيض ، محببك بخيوط من ذهب ، يدعى بيثيال Piviale . ويلف العنق بعصابة من صوف ابيض ، تتخللها صلبان سود منحدره على الصدر والظهر ، وهي ما يسمونه باليوم Pallium الذي لا يحق الاتشاح به الا للبابا والبطاركة وكبار مطارنة الغرب . وهذه العصائب تنسجها راهبات ( بقوة انعام قديم يحرصن عليه كل الحرص ) من صوف حملان تباركت في كنيسة القديسة اغنيسيا العريقة في

القدم برومية ، وتوضع ليلة بكاملها على ضريح القديس مار بطرس ، ثم ترسل الى البابا ، فيمنحها الاحبار الذين ينوي ان يوليهم بها « ملء » استعمال السلطة الاسقفية ، بعد ان يكونوا قد سبقوا فالتمسوها بالحاح . ثم يلبس البابا ما يسمونه « القانون » Fanon ، وهو كناية عن شعار خاص بالاحبار الاعظمين وحدهم ، منسوج من حرير احمر ومن خيوط حمراء وذهبية يرتدونه عند احتفالهم بالقداس الالهى ، رمزاً الى الاتحاد الكنيسة الغربية بالكنيسة الشرقية . ويوضع على رأس الجبر الاعظم تاج عالٍ من الذهب . وتغطي يداه بقفازين احمرين ، يشع خاتمه فوق احدهما . وتعمل قدماه بخفين احمرين مزدانين بصليبين من ذهب ومطرزين بخيوط من ذهب .

ان هذه الحلل التي تفرغ على الجبر الراقد لا توتمز الى الرتبة البابوية وحسب ، بل الى جميع السلطات الكهنوتية في الكنيسة ، وبها يؤهب لحفلة التمجيد البالغ التي تنتظره غداً . اما هذه الليلة ، فيقضيتها في المعبد السيستي ، امام مشهد الدينونة الاخيرة . وامامه يجي الليل بالصلاة لاجله الكهنة القانونيون مع حرس الاشراف الذين لا يفارقون الجثمان لحظة واحدة ، منذ ان أستودعوه ، بعد ان لفظ رأس الكنيسة انفاسه الاخيرة .

وفي اليوم التالي ، يتألف موكب عظيم آخر امام المعبد



السيستي لنقل الجثمان الى مار بطرس .

### ٣ - الى مار بطرس .

تجتمع السلطات الكنسية بأسرها : مجمع الكرادلة ،  
والاساقفة ، والرؤساء العامون للرهبانيات ، والكهنة القانونيون ،  
واصحاب الوظائف العالية في الدواوين ، وفصائل من الجيش  
البابوي على تنوع فئاته ، ويمثلو جميع البلدان ذات العلاقات  
الدبلوماسية بالكرسي الرسولي .

ويتقدم الموكب حملة العرش Sedarii بالبستهم الحمراء ،  
وبايديهم مشاعل ينيرون بها القاعة الفسيحة التي يمر بها  
الموكب متجهاً الى السلم الملوكي الذي ينحدر الى مار  
بطرس .

ويتحرك الموكب في صمت لا يكاد يقطعه سوى همس  
المصلين الذين يتلون المزمور : « من الاعماق » . وبغثة تبرز ،  
من خلال الظلام ، فصائل من الحرس البلاطي ومن  
الحرس السويسري ، وتحيط بصليب اسلحتها الجثمان الذي  
يتقدم على مهل ، وعن جانبيه حراس سويسريون عمالقة ،  
متدرعون بالحديد ، معتبون الحوذ ، مسلحون بالرماح . وعلى  
فولاذ الاسلحة والدروع ، تنعكس انوار صفراء تشع  
من الشموع التي يحملها الكهنة القانونيون .  
واما السلم فمن الرخام ، وهو واسع ، يرجع وطء الاقدام .

فحين يصل اليه حاملو النعش ، يجعلون الجثمان يظهر كأنه  
مستقيم على الفراش الاحمر ، ويأخذ التاج الذهبي العالي يشع  
في الظلام ، وتبدو الحلة الحمراء كنقطة غبراء وسط الملابس  
البنفسجية والدروع الفولاذية .

واخيراً هوذا البابا يدخل كنيسة الباسيلية . ولاول مرة ،  
لا يوافق هذا الدخول تحية الابواق الفضية ، ولا هتاف  
الجمهير . فالكنيسة الفسيحة الارجاء خالية ، يحيط فيها  
الحداد .

وحسب العادة المألوفة ، قبل ان يتابع الحبر الاعظم  
سيره الى ضريح امير الرسل ، يعرج على معبد القربان  
الاقديس حيث يُعرض جثثه ثلاثة ايام كاملة  
وراء الدرابزون النحاسي العالي . ويجعل النعش  
على شكل مسطح منحدر بحيث يستطيع المؤمنون ان يروا  
من بعيد رأس البابا واعلى جسده . ويجول الدرابزون دون  
وصول المؤمنين الى الحبر الراحل ليثموا قدميه بحسب عادة  
ايطالية قديمة .

ومنذ الساعات الاولى من اليوم التالي ، تسرع  
المدينة برمتها ، لتلقي النظرة الاخيرة على اسقفها . ان  
الرومانيين ، وان ألفوا ابهة الحفلات القاتيكانية فملوها ، لا  
يمكنهم كبت ما يجيش في صدورهم من الحزن والاسى .  
فالابنية الضخمة ، التي قامت حول ساحة مار بطرس

حدوداً تفصل بين ايطاليا وحاضرة الفاتيكان ، مزدانة بالاعلام البابوية البيضاء والصفراء ، منكسة حداداً على الجبر الاعظم . ويسير الكهنة والرهبان والراهبات والمؤمنون ببطء ، بايديهم السجحات يصلون بها لاجل ابيهم المتوفى . وتتجه الانظار الى الدور الثالث من القصر البابوي ، فاذا نوافذه مقفلة علامة الحداد .

في الرواق اليمين ، يقفل الباب النحاسي ، والى جانبه ، على الجدار ، اعلان كبير ابيض ، في اطار اسود ، ينعي البابا الى الرومانيين . ويقوم الحرس السويسري ، بزياتهم البسيطة ، بالسهر على حدود الفاتيكان الاكثر شهرة .

ليل نهار ، مشاعل كبيرة تحف بالنعش وتنبه ، وحرس الاشراف ، بسيفهم المصلطة وزياتهم الكاملة ذات الالوان الحمراء والفضية ، يداومون الحراسة ، ووراءهم ، على بعد ما ، الحرس السويسري بدروعهم وخوذهم المجنحة بالريش .

اما على المذبح الكبير ، الذي تطله قبة البرنان Le Bernin ، فتتوالى القداسات ، طوال ثلاثة ايام ، لراحة نفس رأس الكنيسة . وت نصب امامه منصة كبيرة على شكل نعش عال جداً ومن فوقها التاج البابوي المثلث الطبقات ومن حولها اربعة وعشرون مشعلًا وسبعون شمعة .

وطوال ثلاثة ايام ، يظل المؤمنون يمرون امام البابا

ويصلون لاجله . وبانتهاء اليوم الثالث ، تقفل ابواب الكنيسة الباسيلية . ويبدأ الجبر الاعظم المرحلة الاخيرة من سفره الطويل نحو القبر . فها هو ينقل الى معبد آخر . وبحضور رجال السلك الدبلوماسي ، واشراف الرومانيين ، واصحاب المقامات العليا في الكنيسة ، واخصاء الراحل ، يلف جثمانه ، على ما يرتديه من الحلل الجبرية ، بالنسيج الحريري الاحمر الذي كان مفروشاً على النعش ، فيصبح كفنًا له . وعند قدميه ، تلقى صرة مخملة حمراء أودعت جميع الانواط والقطع النقدية المضروبة على عهده . ويودع انوباً معدنياً رق سجلت فيه اهم الاعمال التي اتاها ، شهادة ناطقة بها ترافقه الى القبر .

وبعد ذلك يوضع الجثمان في تابوت مثلث : الاول من خشب السرو مبطن بحمير احمر ، والثاني ملبس بالرصاص ، والثالث من خشب السنديان . وبعد ان تتلى على هذه التوابيت الثلاثة صلاة اخيرة ، تودع مدفناً موقفاً في سرايب Souterrains كنيسة مار بطرس .

من المعتاد ان يعين الباباوات بدقة واسهاب المكان الذي يختارونه لدفنهم ، فينتقون ، وفق رغباتهم وميولهم ، مدفناً بالقرب من احد اسلافهم . على انهم يؤثرون الآن الدفنة على هضبة الفاتيكان ، حيث كان يقوم ، في رومية الوثنية ، ملعب روماني ، صلب فيه الاول من

اسلافهم ، مار بطرس ، منكس الرأس ، ولا يزال قبره  
مكرماً تحت القبة الفسحية المنيرة التي شادها ميكال  
انجلو .

## الفصل الثاني

### انتخاب البابا الجديد

#### ١ - قبيل الانتخاب .

على اثر وفاة البابا ، يجمع عميد الكرادلة ، كل يوم ،  
زملاءه الموجودين في رومية ، ويروحون يتلون معاً « دستور »  
الانتخاب الذي اصلحه البابا بيوس الثاني عشر سنة ١٩٥٤ ،  
وبه رسم طريقة انتخاب الحبر الاعظم باسهاب لم يتوك  
شاردة ولا واردة . ثم يؤدي كل كردينال القسم المفروض .  
وبعدئذ يعين الكرادلة يوم نقل الجثمان الى مار بطرس ،  
ويقررون كيفية الاحتفال بالجنازة طوال تسعة ايام ، ويختارون  
خطيبين من الاكليوس يكلفون احدهما تأييد الحبر المتوفى ،  
والآخر ارشاد الكرادلة استعداداً لانتخاب خلفه . ويتروّب  
عليهم اقامة حفلة استقبال عام لرجال السلك الدبلوماسي  
ولجمعيات الفرسان ، وتألّف لجان من عدة كرادلة لمعاونة  
الذين سيُدعون الى الاشتراك في اعداد المجمع الكردينبالي  
الانتخابي .

ثم يدق الكرادلة في تخمين نفقات الانتخاب .



وتتلى عليهم رسائل الملوك ورؤساء الدول وتقارير السفراء البابويين . واذا كان البابا المتوفى قد ترك رسائل موجهة الى الكرادلة ، فيأخذون علماً بها . وامامهم يفضّ خاتم الصيّد الذي كان يلبسه الجبر الراحل والمزدان بنقشٍ يمثل مار بطرس . ويتلف الخاتم الذي كان يستعمل حتى ذاك الوقت في دائرة الحُتم الرسولي . وتُعين لكل كردينال بطريقة القرعة القلاية التي يقيم فيها وقت التثام المجمع الانتخابي . ويحدّد يوم التثام هذا المجمع وساعته .

وعند وفاة البابا بندكتس الخامس عشر ، كانت المهل المحددة للتثام المجمع قصيرة جداً ، فلم يستطع بعض الكرادلة الاميركيين الحضور للاشتراك في الانتخاب في الوقت المعين . فحوّر بيوس الحادي عشر ، عقيب انتخابه ، هذا البند من دستور الانتخاب ، محرّماً التثام المجمع قبل اليوم الثامن عشر او الخامس عشر بعد وفاة البابا . على ان سرعة المواصلات في ايامنا قد تقضي قريباً بتحويل جديد بمعنى معكوس ، لئلا يتعرض الكرادلة ، بعد وصولهم الى رومية ، للتضجر من البطالة اياماً طويلة بانتظار الانتخاب .

وبينا تجري في القاتيكان وفي كنيسة مار بطرس حفلات المآتم الجبوي ، يتأهب الكرادلة امراء الكنيسة للسفر من مختلف اقطار العالم الى رومية بأسرع ما يكون من الوقت . وقد يسفر الاصلاح الهام ، الذي قام به بيوس الثاني عشر ، عن

ان تكون اكنوية ناخبي البابا من غير الايطاليين للمرة الاولى ، وكرادلة الدواوين الرومانية اقلية ضئيلة ، ويكون بين الناخبين ممثلون لكنائس بعيدة ، منهم بطاركة شرقيون ، ومطرانان احدهما صيني والآخر هندي .

ويتتابع وصول الكرادلة الى رومية للاهتمام بالانتخاب قبل ان يغزوا في القاتيكان . فيجرون فيما بينهم الاتصالات والاجتماعات وتبادل الآراء . ومن الطبيعي ان تستيقظ القومية في نفوس بعض الكرادلة فيتداعون الى التقارب والتكتل ، بينما تنشط كل من الدول الكبيرة - فرنسا واسبانيا والولايات المتحدة - الى لعب دورها .

وفي رومية ، تروج سوق التكهّنات . فالرومانيون ، بالرغم من انهم سُموا فخفخة البابوية ، يتحمسون بغتة في سبيل الانتخاب ، فيرددون القول المأثور : « من يدخل المجمع الانتخابي بابا يخرج منه كرديناً » ، والمقصود به ان الكرادلة الذين يُظنّ انهم الاجدر بالبابوية هم الاقل حظاً بالفوز بها . على ان هذا القول الشعبي ليس من الامور المحققة . فسنة ١٩٣٩ ، لم يك احد الكرادلة اقرب من الكردينال باتشلي الى ارتقاء العرش البابوي ، فلم يحل ذلك دون انتخابه . اما سلفه بيوس الحادي عشر فكان ابعد ما يكون عنه بين الذين كان يُقدّر لهم الحظ الاوفر بالبابوية .

وبقطع النظر عن النفوذ الشخصي والشعبية اللذين يتمتع بهما بعض الكرادلة ، يلجج الناس باسمهم وحظهم بارتقاء العرش البابوي ، لكن الجدل يدور بينهم على افضلية انتخاب بابا من « الاحبار الرعاة » او بابا من اهل السياسة . فيصرح بعضهم بميلهم الى انتخاب مطران ابرشية كبيرة ، عجن الدهر وخبزه ، فيحمل معه الى عرش مار بطرس اختباره الحيّ لحاجات الانسانية الحاضرة ؛ ويؤثر الآخرون ، بمنّ خبروا ما في حياة الدواوين من معائر ومهاوير ، كـردينالاً حاذقاً بشؤونها وعالمّاً بأسرارها ، شبّ وهرم في البلاط ، ومارس ادارة الكنيسة ، وتعاطى امور العالم . وفي الواقع يتتابع الباباوات ، لكنهم قليلاً ما يتشابهون ، فكل منهم يجابه احوالاً مختلفة ويحمل رسالة شخصية خاصة .

## ٢ - المجمع الكرودينالي الانتخابي Conclave .

طُلّيت الروايات ذات الواجبات الزوجية بدهان كثيف منعاً لارسال اشارات من الخارج الى الكرادلة . واقامت « حصون » امام المعابر المؤدية الى المربع الارضي القائم عليه المعبد السيستي ودارات الفاتيكان ، حيث يعقد المجمع الانتخابي . وفتحت نوافذ صغيرة دوارة تدعى ابراجاً Tours في هذه الحصون ، كما في اديرة الراهبات المحصنات ، تدفع بها المؤن الى الداخل . ذلك ان

الكردالة ومعاونيهم ينغزلون عن العالم الخارجي ما دام المجمع الانتخابي ملتصقاً .

ولكن من حق كل كـردينال ان يصطحب الى المجمع اثنين من الاكليروس او احدهما اكليروسي والآخر علماني ، بعد ان يتحقق حسن سلوكها ودرايتها واخلاصهما للكرسي الرسولي . وما عدا الكرادلة ومعاونيهم ، يلزم العزلة في المجمع طول مدة انعقاده : سكرتير مجمع الكرادلة ، وكاهن المعبد البابوي ، ورئيس الاحتفالات الرسولية ، وراهب للاستماع الى الاعترافات ، وطبيبان ، وجراح ، واجزائي ، مع بعض معاونين ، والعدد الكافي من الخدّام .

وتب بيوس الثاني عشر سلسلة قاعات ككقلايات للكردالة المجتمعين ، وكل منها دارة صغيرة تتألف من غرفة لكـردينال ، ومكتب له ، ومنزل لمعاونيه ، وجعلها افضل جداً بما كانت عليه قبلاً من حيث اسباب الراحة . وهناك ، في دارات آل بورجيا ، ردهة فسيحة كانت للحرس ، فتحوّلت الى قاعة للاكل ، يتناول فيها الكرادلة طعامهم معاً ، حول مائدة على شكل نصف دائرة . وقد اعدت مذابح للقداس في غرف اخرى من الفاتيكان .

اما القرعة فتجري ، بحسب العادة القديمة ، في المعبد السيستي . ولهذا اقيمت فيه منصات صغيرة ، جنباً الى جنب ، على طول جدرانها ، تتسع الواحدة منها للكرسي وطاولة

صغيرة ، تعلوها مظلة من الجوخ الأخضر ، فيجلس كل من الكرادلة على منصته .

وقبل الذهاب الى المعبد السيستي ، يجتمع الكرادلة في كنيسة مار بطرس ، حيث يحتفل عميدهم بالقداس استمطاراً لنعم الروح القدس . وفي اثناء القداس ، يلقي عليهم ارشاد يدعون به ( كما جاء في « دستور » بيوس الثاني عشر الذي عدل القوانين السابقة ) الى انتخاب راعٍ ذي جدارة للكنيسة الرومانية الجامعة المقدسة في اقصر وقت وببالغ الغيرة ، متناسين كل ميل بشري ، وواضعين الله وحده نصب عيونهم .

وبعد انتهاء القداس في الباسيلية ، يدخل الكرادلة المجمع الانتخابي فوراً او قبل المساء على الاكثر حسب ما يرى الآباء . فيتقدم موكبهم مدير الاحتفالات حاملاً الصليب البابوي ، يتبعه الكرادلة بملابسهم الصوفية البنفسجية ، وزنانيرهم الحمرية من اللون عينه ، وكتوفاتهم القصيرة . ويمشي وراء الصليب المرتلوت منشدين : « هلم ايها الروح الخالق » .

وعند دخولهم المعبد السيستي ، تتلى صلوات اخرى ، ثم يصرخ رئيس الاحتفالات الرسولية : « فليخرج الجميع » ، يقصد بهم من لا حق لهم في البقاء داخل المجمع مع الكرادلة . وحينئذ يتلى مرة اخرى دستور الانتخاب ،

ويقسم الكرادلة اليمين على حفظ حرمة هذا الدستور ، قائلين : « نعد ونصرح ونقسم ان الذي سيختب من بيننا حبراً رومانياً بارادة الله لن يني ابدأ عن المطالبة والمناذاة بكل حزم وعزم بكامل حقوق الحبر الاعظم ، بدون استثناء الحقوق الزمنية ، وكذلك بحرية الكرسي الرسولي . وعليه ، فور ارتقائه عرش الحبرية ، ان يجدد هذا الوعد معززاً بالقسم » .

« نعد ونقسم قسماً حافلاً اننا ، نحن وخدامنا او معاونونا ، نحفظ السر في كل ما يلامس ، بأي نوع كان ، انتخاب الحبر الروماني ، وفي كل ما يجري في المجمع الانتخابي ، ونتعهد بعدم افشاء هذا السر ، لا في وقت قيام المجمع ، ولا بعد انتخاب الحبر الجديد ، الا اذا اعفانا هو منه . ولا نقبل على الاطلاق ، من اية دولة كانت ولا باية حجة كانت ، مهمة نقل الحظر Veto او المنع Exclusive ، ولو بشكل قنّي ، ولا نعطى علماً بهذا الحظر والمنع ، لا الى مجمع الكرادلة ولا الى كardinال بنوع خاص ، لا كتابة ولا مشافهة ، لا مباشرة ولا بالواسطة ، لا بالعلامة ولا بأي وسيلة اخرى ، لا قبل المجمع الانتخابي ولا في اثناؤه . ولن نسهل اي تدخل او توسل من اي نوع كان قد تتذرع بهما السلطة المدنية للتدخل في انتخاب الحبر الاعظم » .



وبعد ارشاد اخير يلقيه عميد الكرادلة ، يتقدم حاكم المجمع ، والمرشال الدائم للكنيسة الرومانية المقدسة حافظ المجمع ، والمطارنة المساندون للعرش الجبري الذين عليهم مراقبة ابراج الحصون ، وسائر الاجبار ، فيقسمون امام الكرادلة انهم يقومون بمهامهم حسب القوانين المفروضة .

ويتابع بيوس الثاني عشر الكلام في هذه المقررات الدقيقة على الوجه التالي : « تضاء المصابيح . فيقوم الكرادلة الثلاثة رؤساء المراتب الكردينالية الثلاث ، والكردينال ورئيس الغرفة يرافقهم سكرتير المجمع الانتخابي ، ورئيس الاحتفالات الرسولية ومعاونوه ، ومهندس المجمع الانتخابي ، بتفتيش حيث ليتحققوا عدم وجود غريب او جاسوس في الداخل . ثم تقفل ابواب المجمع وتسلم مفاتيحها الى الكردينال رئيس الغرفة والى رئيس الاحتفالات الرسولية ... وعندئذ يدعى جميع المشتركين في اعمال الانتخاب الى الاجتماع في المعبد السبستي حيث يُستعرضون واحداً فواحداً .

ثم يقفل الكردينال رئيس الغرفة المجمع الانتخابي من الداخل ، ويقفله المرشال ومعاونوه من الخارج ، وتسلم المفاتيح الخارجية الى المرشال حافظ المجمع ، ويجوز بكل ذلك محضر في الداخل ، وآخر في الخارج .

وبينا تجري اعمال المجمع الانتخابي ، يترتب على الكرادلة

المكلفين مراقبة « الحصن » ان يتوردوا بتواتر الى قلايات زملائهم لكي يتحققوا عدم خرق الحصن . ويوسم بيوس الثاني عشر ألا يُرسل شيء من الخارج الى الكرادلة : لا جرائد ولا نشرات دورية ؛ وألا يُرسل الكرادلة شيئاً من الداخل كذلك ، باستثناء الكردينال الموكل اليه ايلاء الحل من الخطايا المحفوظة ، فيدوم اتصاله بديوانه ، لان قضايا الضمير لا تقبل التأجيل . اما من تجاسر على ايصال آلات تصوير او اذاعة او تلفزة او سينما الى داخل المجمع ، فينزل فيه الحرم الاكبر .

### ٣ - القرعة والانتخاب .

في هذه الاثناء ، يكون احد الحياطين قد فصل بكل سرعة ثلاثة غنابيز بيضاء بثلاثة قياسات مختلفة ، ليكون كل شيء معداً للبابا الجديد . وفي موهف المعبد السبستي ، ينصرف الخدام الى نهية كانون قديم من حديد الصب لتحرق فيه اوراق القرعة بعد كل دورة اقتراع . فاذا لم تحصل الاكثوية ، يضاف الى هذه الاوراق قليل من تبني رطب وتتحرق معاً ، فيتصاعد من المدخنة فوق الفاتيكان دخان اسود ، فيعرف الرومانيون ، وقد غشوا ساحة مار بطرس ، من هذه العلامة ، ان « البابا لم ينتخب بعد » . وتعد غرفة موقدة

ليشغلها الحبر الاعظم اذا تم انتخابه مساء اليوم الاول بالذات .

وفي صباح اليوم الذي يلي التمام المجمع الانتخابي ، يحضر الكرادلة الى المعبد السيستي ، ما عدا المرضى الذين يبقون في قلاياتهم . ويبدأ الانتخاب . فيعطى كل منهم تذكرتين او ثلاثاً ، طبع عليها باللاتينية : « انتخب حبراً اعظم سيدي الوافر الاحترام الكردينال ... »

وعلى طاولة امام لوحة « مشهد الدينونة الاخيرة » ، توضع كأس مغطاة بصينيتها . وبعد ان يملأ كل مقترع رقعته بخط مصطنع يخفي به هويته على فاحصي القرعة ، يتقدم من الطاولة ، ويجثو مصلياً ، ثم ينهض ويصرخ بصوت جهوري : « يشهد السيد المسيح ، الذي سيديني ، اني انتخب الذي ارى ، امام الله ، من واجبي انتخابه » . ويرمي الرقعة على الصينية ويدفعها فتقع في الكأس . ثم ينحني امام المذبح ، ويرجع الى مقعده . اما الكرادلة المرضى فيقصد ثلاثة كرادلة اليهم حاملين حُقّة يرمي فيها المرضى رقع اقتراعهم .

فاذا كان الفراغ من الاقتراع ، يحرك الكأس اول الكرادلة فاحصي القرعة ، ويباشر اخيرهم نشر الرقاع ، ويحصى الاصوات كل من الناخبين على ورقة معدة لذلك .

قبل « الدستور » الذي عدله بيوس الثاني عشر ، كانت اكثرية ثلثي الاصوات كافية لانتخاب البابا . اما الآن فيقتضي حصول اكثرية الثلثين وزيادة صوت عليها ، لثلاث ثلثين في مجال القول ان المنتخب اقترع لنفسه خلافاً للقانون .

ويوسم بيوس الثاني عشر ان يتمتع الكرادلة عن كل تواطؤ ووعود ومواريق ، ولكنه يرخص ان تتم اتفاقات بينهم لمصلحة هذا او ذاك من المرشحين . واخيراً يوجه نداء حاراً الى المنتخب كيلاً يهاب قبول العبد الذي يلقي على عاتقه .

فاذا توفرت الاكثرية القانونية ، واعلن اسم المنتخب ، يضغط كل كردينال جهازاً ازاء منصته ، فتسقط القبة المرفوعة فوقها ، وتبقى مظلة المنتخب قائمة ، علامة لسلطانه المطلق . وعندئذ يسأله الكردينال العميد ، باسم مجمع الكرادلة ، عما اذا كان يقبل بالانتخاب . واذا يجيب بالقبول ، يسأله عن الاسم الذي يود ان يدعى به كحبر اعظم .

وبعد ان يقدم امراء الكنيسة مراسم الاحترام الاولى الى البابا الجديد ، يذهب احدهم الى الشرفة التي تطل من كنيسة مار بطرس على الساحة العظيمة ، حيث تألبت جماهير كثيفة منتظرة اعلان اسمه ، وقد علمت بانتخابه ،

بدون ان تعرف اسمه ، من لون الدخان الذي تصاعد آخر مرة من كانون الموهف ، وكان ابيض لعدم اضافة تب رطب اليه ، فيذيع الجبر قائلاً :

« اني ابشركم بفرح عظيم انه صار لنا بابا السيد الوافر الاحترام الكردينال ... » . ولا شك في ان مكبرات الصوت ، في انتخاب البابا الآتي ، ستقل هذه البشرية حتى ضفاف نهر التيبر .

#### ٤ - حفلة التتويج .

بعد ايام قلائل ، يدخل البابا الجديد كنيسة مار بطرس ، متبعا الطريق الذي سلكه جئان سلفه ، من المعبد السيستي الى معبد القربان الاقدس ، فالى ضريح مار بطرس رأس الرسل ؛ ويجلس على العرش المحمول ، تحيط به المراوح الكبيرة Flabelli التي ورثها البلاط البابوي من الفراغة بطريقة غير مباشرة . وتتألق الكنيسة الباسيلية بالانوار وتدوي بالهتاف ، وتوجه الابواق الفضية اناشيدها نحو التمثال الحي الذي يلتفت ذات اليمين وذات اليسار ويبارك المؤمنين . ثم تبدأ جوقة المعبد السيستي ترانيلها ، ويرتفع البخور ضباباً فيعقب في قبة ميكال انجلو حيث تتخلله اشعة الصباح .

ويتقدم الموكب البابوي في غمرة من الترتيل والهتاف

والدعاء والنور والطيب . وامام العرش المحمول يسير مدير الاحتفالات ، يحمل قضيباً طويلاً من فضة ، في قمته فتيل صغير ينبعث منه دخان لاذع خفيف ، ومن وقت الى آخر يوجه الى البابا هذا القول : « ايها الاب الاقدس ، هكذا يزول مجد العالم » .

هذا المجد سيعرفه البابا بعد ساعات ، عندما يتوج ، من على شرفة مار بطرس ، امام الجماهير المتألبة من رومانيين وسوام . فيعتم تاجه الخاص الثلاثي الطبقات Tiare الذي كان يلبسه في القديم ملوك فارس . على ان البابا لا يلبسه مطلقاً في الحفلات الدينية البعثة .

وعليه ، فحفلة التتويج التي تتم بحضور ممثلي امم الارض قاطبة ، وعلى مشهد من الزوار الذين تراهم كأنهم البنيان المرصوص في ساحة مار بطرس وعلى ضفاف نهر التيبر ، لا تريد شيئاً في مرتبة الجبر الاعظم . فالبابا قد حاز ملء الجبوة مذ قبل بانتخاب انداده الكرادلة اياه ، في جو المعبد السيستي الصامت الهادي .

وعلى الشرفة ، تتدلى راية حمراء مزدانة بمفتاحين هما شعار السلطة البطرسية البابوية ، ومنها يُطل الاساقفة بالعشرات ، والتيجان على رؤوسهم ، ليروا ، على افضل وجه ، جمهور الرومانيين وضيوفهم يهتفون للجبر الاعظم الجديد .

واخيراً يُطل البابا ، بعد ان اخذ بعض الراحة في



غرفة صغيرة وراء الشرفة ، عقيب الاحتفالات المضخكة التي جرت في الكنيسة ، ويجمع يديه الواحدة الى الاخرى ، منتظراً . فالتفت اليه احد الكرادلة الشامسة ، وبينهما على وسادة حمراء التاج الثلاثي الطبقات يتلأل بالحجارة الكريمة ، وقد كان في الموكب يستوعي الانظار كأنه دعوة صامته مشوقة الى العيد . فيرفع الكردينال التاج بكل تؤدة ويضعه على رأس البابا .

وعندئذ ينتصب الجهر الاعظم ويبسط ذراعيه ما استطاع صوب الجماهير ، ويعطي بركته الرسولية الاولى الى سكان رومية وسائر شعوب المسكونة « الى المدينة والعالم ،

. Urbi et Orbi

## الخاتمة

### نفس الكنيسة

قلنا في مقدمة هذا الكتاب اننا لا نهدف فيه الى التحدث عن الكنيسة ، بل عن القاتيكان والدواوين والمجامع والكرادلة ووزارة الدولة . وجلنا جولة صحافي فضولي بين اجهزة حاضرة القاتيكان ودوائرها الكنسية . وحاولنا ان نرى الى اية آفاق جديدة تنبج رويداً رويداً سفينة مار بطرس : الاراضي الجديدة التي يكتشفها مرسلوها ، والمهام الجديدة التي تنتظر العلمانيين . ولكن الكنيسة ، بحصر المعنى ، هي غير ذلك .

الكنيسة ، على حد قول اللاهوتيين ، هي جسم المسيح السري . وتشترك بهذه الصفة في طبيعة المسيح البشرية والفائقة الطبيعة من حيث ان المسيح للمؤمنين به هو ابن الله . فاذا فقدت الكنيسة هذه الميزة التي قلدها اياها الله ، هذا الاتحاد الحميم بالله الذي يشبهه اللاهوتيون باتحاد الزوجين ، تصبح على الحضيض ؛ وتضحى متداعية زائلة ، كجسم لا يحيا الا اذا اتحدت به نفس ، جميع المنشآت البشرية التي تحدثنا عنها في فصول هذا الكتاب . وهذه القوة المحيية يسميها

اللاهوتيون النعمة الالهية .

ولكن اذا كانت هذه المنشآت لا تحيا الا بالنعمة ، فوظيفتها لا تبطل ان تكون جوهرية . فالسلطة الكنسية بمراتبها - البابا والاساقفة والكهنة والمؤمنون - ملتصقة بطبيعة الكنيسة . فلا سبيل الى ان تتصور الكنيسة بدون سلطانها . فهي جماعة منظورة ، وُجدت لاجل البشر ، مؤسسها السيد المسيح ، جاء فافتدى بآلامه وموته البشر الموصومين بالخطيئة الاصلية . وسلم الوديعة - العهد الجديد والاسرار المقدسة - الى تلاميذه وجعل منهم جمعية كاملة بشرية واهية معاً ، هي الكنيسة . ودعا اناساً اتخذهم رسلاً ، واختار احدهم وكلفه ان يحفظ الوديعة سالمة . وهؤلاء الرسل رسموا بوضع اليد ككهنَةً لخدمة الاسرار المقدسة . فانضمت اليهم جماعة المؤمنين ، مرتبطة رباطاً وثيقاً بحياة هذه الكنيسة الاولى . وفي الزمن الحاضر ، لا تزال كنيسة العصر الذري ، بالرغم من قفراتها وتكاثر خلاياها الحيوية الى حدٍ ختّاق ، قائمة بهذه العناصر الاساسية : البابا والاساقفة والكهنة والشعب المؤمن .

ان اصحاب السلطات الكنسية يتولون اذاً ، قبل كل شيء ، آخر ، وظيفة القيمين على الوديعة . وهذه الوديعة لا تتأثر البتة بقيمتهم الشخصية . انها ثروة دعوا الى توزيعها ، سواء كانوا متصفين بالجدارة والقداسة ام لا . فرجال الكنيسة

بشر معروضون لكل ضعف . والكاهن الذي يكرّس القربان قد يكون لا يسمع الله زانياً او قاتلاً . فالذبيحة التي يقدمها وهو بهذه الحالة تريد خطيئة على خطاياها ، ولكنها صحيحة مقبولة ، والسر الذي يتمه يظل طوع ارادته بوصفه انساناً مختاراً ومرسوماً ، لان الشخص تحجبه وظيفته . والبابا هو رأس الكنيسة المنظور ولو كان اسكندر بُرجيا Borgia . وقد وجد المدافعون عن المسيحية ، في هذه الحالة ، برهاناً على حيويتها ، لان الباباوات الذين كانوا اقل جدارة واكثر انحطاطاً ، لم يستفد احدهم قط من سلطته ليلحق وصمة ما بوديعة الايمان والاسرار التي تسلمتها الكنيسة .

تقضي الكنيسة حياتها ، نوعاً ما ، على صعيدين : الصعيد البشري وصعيد النعمة . على ان الواحد لا وجود له بدون الآخر ، كالانسان لا يستطيع ان يكون جسماً فقط او نفساً فقط . ومع كل ذلك ، فحيث تكثر النعمة فهناك تتجلى حيوية الكنيسة الفضلى . وتمتد هذه الحيوية بالهزال والزوال حيث النعمة لا تروي العناصر المنظورة . فالكنيسة اذاً تشع وتتناق بازدياد حيث تتجلى القداسة الحقيقية ، احياناً في رعية ريفية ، او في كوخ خشبي في ظاهر المدن ، لا تحت مظلة احد الكرادلة . والكنيسة بنوع عام هي مجموع كل اعضائها الذين يرتبطون بدون شك بالرأس



وبالسلطات ، ولكنهم يحيون هم انفسهم حياة ذات فاعلية  
ضرورية للجموع بقدر ضرورة الاساقفة والكهنة .

واكثر من ذلك ، فالكنيسة ، التي تعلن نفسها بشرية  
وفائقة الطبيعة معاً ، لا تنتهي حدودها في مواطن الاحياء .  
فالجسم السري المتألف منها يتجاوز الموت الجسدي . فالاحياء  
والاموات - وهؤلاء في عينها احياء حقيقةً اكثر من اولئك -  
يؤلفون كياناً واحداً ، ويرتبطون بعضهم ببعض ارتباط  
العضو بالعضو ، وهم بنوع ما مسؤولون بعضهم عن بعض .  
وهذا ما يسميه اللاهوتيون شركة القديسين ، وهي عقيدة  
تعلمنا ان الفرد ، كل فرد ، يشترك في حياة المجموع ، وان  
الجميع يحيون بعضهم ببعض ، وانهم يغرفون من فيض كنز  
مشترك ، وانهم جميعاً ينمون او يبذرونه .

فشركة القديسين تشمل اذاً ، في نظر الكنيسة ، كل  
اولئك الذين تحيهم النعمة ، ولكن هل يعني ذلك ان هذه  
« الشركة » مقصورة على الاقلية التابعة للكنيسة الرومانية ،  
والآخرين محرومون منها ؟

لا ، وايّ الحق ! لان نطاق النعمة هو نطاق الحرية .  
فالنعمة ، بحسب مشيئة الله ، تمس من تشاء ، ولا يحرمها من  
يتطلبها بخلوص وتعق ؛ انها لا تتقاعس ابداً عن انعاش جميع  
« ذوي الارادة الصالحة » ، كالشمس تدرك ، حتى عن بعد سحيق ،  
كل الذين يفتحون عيونهم صوبها ، او يجسدون في محاولة

اكتشافها بدافع من فطرتهم ، وبدون علم منهم .  
فبحسب تعليم الكنيسة ، يستطيع اذاً جميع البشر  
الاشتراك في نفس الكنيسة ، سواء كانوا كاثوليكين ،  
ارثوذكسين ، بروتستانتين ، يهوداً او مسلمين ، وحتى من  
بجاهرون بانهم « لا مذهب لهم » . فامر انتسابهم الى نفس  
الكنيسة منوط بهم . وتلك قضية شخصية تعود الى الصميم  
من انفسهم . ولن يُعلم ما زادوه على الكنز العام في شركة  
القديسين ، الا في الدينونة الاخيرة ، حيث تصدر الاحكام  
النهائية في قيمة اعمال البشر جميعاً .

ان النعمة تولي الحرية مع الحياة ، وتعمل عملها بواسطة  
الاسرار التي رسمها السيد المسيح ، واعظمها سر القربان  
الاقديس الذي به يتكرر تجسد المسيح في القداس بدون  
انتهاء . وهكذا يتجدد دوماً طابع الكنيسة الفائقة الطبيعة .  
فالنعمة تبدل حالة كل انسان ، و« تقدسه » كما يقول  
اللاهوتيون ، وترفعه من مستواه البشري الى مستوى الهي .  
فانتسابه الى الكنيسة يبطل ان يكون ذا شكل شرعي ،  
انه يشترك فيها بانتفاضة حب . فالنعمة والمحبة في منزلة  
واحدة ، ولكليهما نظام واحد .

عندئذ لا تبقى العقيدة حقيقةً نظرية مفروضة تحت  
طائل التأديبات والقصاص ، بل تصبح تمسكاً بالحقبة  
الموحى بها . وليست مراتب السلطة الكنسية « نظاماً قسرياً » ،



بل ارتفاعاً طبيعياً وسوياً الى القمة . وما القمة هذه ،  
على مستوى الحرية والمحبة والنعمة ، إلا المسيح عينه مؤسس  
الكنيسة . وهكذا فالكنيسة ، في نظر الكاثوليكين ، مع  
منشأتها الموكولة الى القوى البشرية المتطورة ، انما يُنعشها  
ويجددها على الدوام ذلك الذي اضعه في بداية مسيرها  
ونهايته .

## فهرست

المقدمة . . . . .	٥
القسم الاول : قداسة البابا . . . . .	٩
الفصل الاول : اصغر دولة في العالم . . . . .	١١
الفصل الثاني : اعظم سلطة على الارض . . . . .	٢٦
الفصل الثالث : السلطة البابوية . . . . .	٣٣
الفصل الرابع : شركاء البابا في السلطة . . . . .	٤٨
القسم الثاني : اعوان البابا . . . . .	٦٣
الفصل الاول : البابا في دارته الخاصة . . . . .	٦٥
الفصل الثاني : وزارة الدولة . . . . .	٧٢
الفصل الثالث : الكرادلة . . . . .	٩٩
القسم الثالث : الدواوين الرومانية . . . . .	١١٧
الفصل الاول : موظفو الدواوين الرومانية . . . . .	١١٩
الفصل الثاني : المجامع المقدسة . . . . .	١٣٢



الفصل الثالث : المحاكم والدوائر . . . . . ١٦٥

القسم الرابع : نظرات الى المستقبل . . . . . ١٧٥

الفصل الاول : الشرق والغرب . . . . . ١٧٧

الفصل الثاني : الكنيسة والشيوعية . . . . . ١٨٤

الفصل الثالث : البابا يعبىء جيش الرهبان . . . . . ١٩٧

الفصل الرابع : القوى الجديدة : العمل الكاثوليكي . . . . . ٢١٦

القسم الخامس : وفاة البابا وانتخاب خلفه . . . . . ٢٢٩

الفصل الاول : وفاة البابا . . . . . ٢٣١

الفصل الثاني : انتخاب البابا الجديد . . . . . ٣٤٣

الخاتمة : نفس الكنيسة . . . . . ٢٥٧

ص	خطا	تصويب	صواب
٣٠	١٠	على قداسة	على اعلان قداسة
٣٣	٩	سيلدون	سيتلدون
٤٥	٩	فانه يصبح	فانه لا يصبح
٥٥	٢٠	تقريراً اضافياً	تقريراً اضافياً
٥٦	١٣	تثقيفه	تثقيفه
٦٠	.	وهم غالبهم	والرهبان غالبهم
٦٠	١٥	فمن البديهة ان لكل	فمن البدء لكل
٦٥	٤	الشيخ الواعي	الشيخ الواهي
٦٧	٢	لدرجات	الدرجات
٨٤	١٦	عقدها	كان عقدها
٩١	١٣	على يده	على يد
١٣٤	١١	جمع كبار	جميع كبار
١٤٦	١٦	عن عيونهم	على عيونهم
١٤٧	١٤	ويصنفوا	لكي يصنفوا
١٥١	٤	الضئيل	بضوئها الضئيل
١٨٧	١٨	وفيها الكنائس	ومنها كنائس
٢١٨	١١	الذي صبح	الذي اصبح
٢٢١	١٨	التي تسم	التي تسم
٢٢٢	١٩	تفكيكاً	تفكيكاً
٢٥٨	١٢	الرسل	والاساقفة خلفاؤهم-